د. عائض القرني

العَظَمَة

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القرني، عائض عبدالله

العظمة/عائض عبدالله القرني - ط٢ .- الرياض، ١٤٢٥هـ

٢٩٠ ص ؛ ١٦,٥×٢٤ سم

ردمك: ٤-٦٠٢-٤٠-٩٩٦٠

١- الله جل جلاله ٢- الألوهية.

أ - العنوان

ديوي ٢٤١ ١٤٢٥/٣٣٢٤

ردمك:٤-٦٠٢-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٣٣٢٤ / ١٤٢٥

الطبعة الثانية

١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

إليكَ، وإلاَّ لا تُشدُّ الركائبُ

ومنكَ، وإلاَّ فالمؤمِّل خائبُ

وفيك وإلا فالغرام مُضيعٌ

وعنك وإلا فالمُحدِّث كاذبُ

الفهرس

مقدمة المحقق

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عبده المصطفى، ورسوله المجتبى، المبعوث بالرحمة محمد ﷺ.

أما بعد...

فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

العلماء ورثة الأنبياء، والميراث هو العلم، فقد حفظ الله هذا العلم بالعلماء، فما كان منهم إلا تجنيد النفس لتوصيل كلمة التوحيد، امتداداً للمسيرة الخالدة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن أجل هذه المهمة العقدية جند أهل العلم أقلامهم في تسطير معالم التوحيد عبر الأزمان وفي كل مكان.

ومن هذه الأقلام ـ قلم العظمة ـ ذاك القلم السلفي، الذي جعل مداده لا إله إلا الله، فخط محمداً رسول الله، وسطر كلمة التوحيد، فكانت ألفاظه سلفية، وطريقته أثرية، وندارة لغوية، وتراكيب بلاغية، وصوراً فنية، وملحمة تعبيرية، وعظمة فكرية.

وقلم العظمة سلَّ ريشته العقدية، فأظهر مظاهر التوحيد في الحياة الكونية، فطار في السماء، ومشى على الماء، وغزا الصحراء، وغاص في البحار، وصعد الجبال، ودخل في باطن الأرض فأخرج منها آيات الرحمن، وكلم الجمادات والحيوان.

وقلم العظمة وعى القرآن، فأطلق سحر البيان، وحفظ السنة، فشحذ الهمة، وفهم آثار السلف، فكان خير خلف، وأدرك منهج الأئمة، فالتزم بقواعد أهل السنة، وعرف ماهية الإيمان، فجعل الكمال للرحمن.

وقلم العظمة أجمل التوحيد مبتعداً عن التعقيد، فاستخدم الإشارة، وأفصح العبارة، وفن المهارة، فكانت العظمة، أسلوباً ماتعاً، وفهماً يانعاً، وعلماً ساطعاً.

والعظمة تبسيط لمجمل العقيدة، وماهية التوحيد، وحقيقة الإيمان، وضوابط الانقياد، من خلال جولة قلبية في الحياة الكونية، التي تُقرر الحقيقة الإلهية بالآيات الربانية.

مقصود العظمة وهدفها: زرع التوحيد الخالص لله في صور تطبيقية، وحفظ الأحكام الشرعية لا التراكيب المتنية، وإقامة الحجة على العقول البشرية، للاعتراف بالصفات الإلهية.

وكنت على يقين قبل قراءتي للعظمة أنني سوف أقرأ كتاباً متنيا، ولكن فوجئت أن العظمة ملحمة أدبية شرعية، بروح العقيدة السلفية.

والعظمة يصلح أن يكون عمدة في إقناع غير المسلمين بالإسلام، لأنه يُخاطب الفطرة الإنسانية بما يوافق المنطق العقلي، ليُقنع الإنسان بتوحيد الرب جلّ وعلا.

فأقام الحجة على العقل بدلائل مرئية، وعبارات مركزة قوية، ولذلك أرى - والله أعلم - أن كتاب العظمة في هذا الشأن سوف يترك أثراً كبيراً في دعوة غير المسلمين. سائلاً ربي أن يُقيِّد له مَنْ يترجمه إلى لغات مختلفة ليزداد نفعه، ويعم خيره.

وقلم العظمة وضع صوراً مختلفات ، وآيات كثيرات، يقنع بها أهل الملة والدين، ليزدادوا معرفة بربهم، وهذه الآيات الإلهية، والشواهد المرئية تجعل النفس أكثر انقياداً ، وأشد حرصاً على اتباع ما أمر به الله سبحانه وتعالى والكف عما نهى عنه تعظيماً وإجلالاً لصاحب العزة والجبروت.

وهذه المقدمة كان لابد منها لتوضيح الخطوط العريضة لمضمون كتاب العظمة، حتى نستفيد منها، ونقرأ ونعي، ثم نجتهد ونعمل ونطبق، فالهدف هو العمل والتطبيق، وليس القراءة والإعجاب.

وأخيراً:

أسأل الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العُلاَ أن يثبت قلم العظمة، وأن يثبتنا وإياه على الحق المبين، وأن يحشرنا في زمرة المتقين، وأن يجمعنا بخاتم المرسلين.

والحمد لله رب العالمين

المحقق

أبو صهيب

باحث بن أحمد الخزرجي الأنصاري

مكة المكرمة

المقدمـة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرورِ أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسولهﷺ(١).

أما بعـــد:

فهذا الكتاب شدوٌ(*) أدبي للدعاة والخطباء والوعّاظ والمربين؛ عله أن يسكب في القلب يقيناً وخشية ومحبة ومراقبة لأعظم محبوب، وأجل مطلوب له العزّة والجلال، علاَّم الغيوب.

أَخطُّ هذه الكلمات بقلم التقصير، ومِدادَ الخجل، ودمع الندم والحياء.

وأَرفعُ هذه الأحرف إلى من يصعد إليه الكلم الطيّب، تسمع فيه ثناء العبد على ربِّه، والمولى على سيده، والمخلوق الفقير على خالقه وباريه.

أصابع الذنوب تشير إلى الغفّار.

أَلسنة الفقر تدعو الغنيّ.

أَكف الضعف ترفع للقوي.

---

(١) تسمى خطبة الحاجة، وهي سنة.

والحديث رواه مسلم في صحيحه (٢ / ٥٩٢ ، ٥٩٣) (٤٦ / ٨٦٨) في كتاب الجمعة. باب: تخفيف الصلاة، والخطبة. عن ابن عباس مرفوعاً.

(*) شدْوٌ: كل شيء قليل من كثير ... يقال: شدوت منه بعض المعرفة إذا لم تعرفه معرفة جيدة، ...» انظر لسان العرب (١٤ / ٤٢٥).

الميت يمدح الحي القيوم.

الغريق يُنادي: ياذا الجلال والإكرام.

الكلمات والإشارات عاجزات.

البيان والبلاغة والتعبير تعلن التقصير.

لا يعلم ما يستحق إلاَّ هو.

لا يحيط بعلمه سواه.

لا يقدر قدره إلاَّ إياه.

لا يحسن الثناء عليه غيره.

إن قدَّستهُ أو سبَّحتُه أو مجدتُه فهو الذي علمني. إن حمدته أو كبَّرته أو وحدته فهو الذي ألهمني. إن عبدته أو شكرته أو ذكرته فهو الذي أكرمني.

صفات المدح في الكاملين ذرة من كماله، نعوت الفضل في الأبرار نفحة من أفضاله، ألسنة المادحين وأقلام الواصفين حائرة في جلاله، من أنا حتى أمدحه، من أنا حتى أُمجّده، من أنا حتى أُثني عليه، أنا الذي خُلِقَ من تراب أصف الملك الوهّاب، أنا الذي صُوِّر من طين أذكر جلال رب العالمين.

إن الخجل يملؤ فؤاد من خلق من ماء مهين، إذا قام يشدو بأوصاف أحكم الحاكمين، اللهمَّ إن أشرف تاج أُتوجُهُ تمريغ أنفي على التراب لجلالك، اللهم إن أعظم وسامٍ أحمله وضع جبهتي على الأرض لعبوديتك.

أنا الظالم لنفسه، المعترف بتقصيره، المقر بذنبه، وأنت الجواد الماجد الغني الحميد، عز جاهك وجلَّ ثناؤك، وتقدَّست أسماؤك. ولا إله غيرك.

قــد كنتُ أشــفق من دمــعي على بصــري

فــــاليــــوم كل عـــــزيز بعــــدكم هانا

الحمد لله رب العالمين، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾، الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ الحمد لله ﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ وما كان معه من إله، الذي لا إله إلا هو، ولا خالق غيره، ولا رب سواه، المستحق لجميع أنواع العبادة، ولذا قضى أن لا نعبد إلا إياه، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

عالم الغيب والشهادة الذي استوى في علمه ما أسرَّ العبد وما أظهر، الذي علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ﴾، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾. كيف لا وهو الذي خلق وقدَّر، ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما الذي كتب على نفسه الرحمة وهو أرحم الراحمين، الذي غلبت رحمته غضبه، كما كتب ذلك عنده على عرشه في الكتاب المبين[1]، الذي وسعت رحمته كل شيء، وبها يتراحم الخلائق بينهم،

(١) كما ثبت في الحديث المتفق على صحته. رواه البخاري (الفتح ١٣ / ٣٨٣) (٧٤٠٤)، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقوله جل ذكره: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]. ومسلم (٤ / ٢١٠٧، ٢١٠٨) (١٤، ١٥، ١٦ / =

كما ثبت ذلك عن سيد المرسلين[(١)]، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها، إن الله يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.

الملك، الحق الذي بيده ملكوت كل شيء، ولا شريك له في ملكه ولا معين، المتصرف في خلقه بما يشاء؛ من الأمر والنهي والإعزاز والإذلال والإحياء والإماتة والهداية والإضلال، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

لا راد لقضائه، ولا مضادَّ لأمره، ولا معقب لحكمه، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين.

له ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير. القدوس السلام الذي اتصف بصفات الكمال، وتقدَّس عن كل نقص ومحال، وتعالى عن الأشباه والأمثال، حرام على العقول أن تدركه وعلى الأوهام أن تكيفه[(*)].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

=

٢٣٥١) كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً: «**لما خَلَقَ الله الخلق كتب في كتابه وهو يكتب على نفسه وهو وضع عنده على العرش - إنَّ رحمتي تغلب غضبي**». وهذا لفظ البخاري، وألفاظ مسلم مختلفة ومتقاربة جداً.

(١) كما رواه الشيخان: البخاري، (الفتح ١٠ / ٥٣١) (٦٠٠٠) في كتاب الأدب، باب: جعل الله الرحمة في مئة جزء، ومسلم (٤ / ١٦٧٥) (١٧، ١٨، ١٩ / ٢٧٥٢) في كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه. كلاهما عن أبي هريرة مَرفوعاً: «**جعل الله الرحمة في مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تُصيبه**». وهذا لفظ البخاري ومسلم ولكن في مسلم دون بدل «في»، و«خلائق» بدل «خلق».

(*) وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة بالاتفاق راجع باختصار شرح الطحاوية (١ / ٥٧، ٧٢).

المؤمن، الذي آمن أولياءه من خزي الدنيا، ووقاهم في الآخرة عذاب الهاوية، وآتاهم في هذه الدنيا حسنة، وسيحلهم دار المقامة في جنة عالية.

المهيمن، الذي شهد على الخلق بأعمالهم وهو القائم على كل نفس بما كسبت، لا تخفى عليه منهم خافية إنه بعباده لخبير بصير.

العزيز، الذي لا مغالب له، ولا مرام لجنابه.

الجبار، الذي له مطلق الجبروت والعظمة، وهو الذي يجبر كل كسير مما به، المتكبر الذي لا ينبغي الكبرياء إلا له، ولا يليق إلا بجنابه، العظمة إزاره، والكبرياء رداؤه[1]، فمن نازعه صفة منها أحل به الغضب والمقت والتدمير.

الخالق البارئ المصور، لما شاء إذا شاء في أي صورة شاء من أنواع التصوير ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) كما ثبت عند مسلم (٤ / ٢٠٢٣) (١٣٦ / ٢٦٢٠) في كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الكبر. والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٢) في باب الكبر. كلاهما عن أبي سعيد وأبي هريرة. مرفوعاً: « العزُّ إزارُهُ، والكبرياء رداؤُهُ. فمن يُنازعُني عذبتُهُ». وهذا لفظ مسلم، أما البخاري «...... فمن نازعني بشيء منهما، عذبته». وفي لفظ آخر: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحداً منهما القيته في جهنم**». أخرجه أبو داود (٤ / ٢٥) (٤٠٩٠) كتاب اللباس، باب: ما جاء في الكبر.

وابن ماجه (٢ / ٥٥٧) (٤١٧٤) كتاب الزهد، باب: البراءة من الكبر والتواضع.

كلاهما عن أبي هريرة بلفظه.

قلت: وهو صحيح، وانظر الصحيحة (٥٤١) فهناك التفصيل، وراجع ترجمان السنة (٧١) وانظر شرح الحديث في ترجمان السنة.

الغفار، الذي لو أتاه العبد بقراب الأرض خطايا ثم لقيه لا يشرك به شيئاً لأتاه بقرابها مغفرة [١].

القهّار، الذي قسر بسلطان قهره كل مخلوق وقهره.

الوهاب، الذي كل موهوب وصل إلى خلقه فمن فيض بحار جوده وفضله ونعمائه الزاخرة.

الرزاق، الذي لا تنفد خزائنه ولم يغض ما في يمينه، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ماذا نقص من فضله الغزير؟! يرزق كل ذي قوت قوته ثم يدبر ذلك القوت في الأعضاء بحكمته تدبيراً متقناً محكماً، يرزق من هذه الدنيا من يشاء من كافر ومسلم أموالاً وأولاداً وأهلاً وخدماً، ولا يرزق الآخرة إلا أهل توحيده وطاعته، قضى ذلك قضاء حتماً مبرماً، وأشرف الأرزاق في هذه الدار ما رزقه عبده على أيدي رسله من أسباب النجاة من الإيمان والعلم والعمل والحكمة وتبيين الهدى المستنير.

الفتّاح، الذي يفتح على من يشاء بما يشاء من فضله العميم، يفتح على هذا مالاً وعلى هذا ملكاً، وعلى هذا علماً وحكمة، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ﴿**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾.

---

(١) كما أخرج ذلك مسلم (٤ / ١٦٤٢) (٢٢ / ٢٦٨٧) في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى.

عن أبي ذر مرفوعاً: يقول الله عز جل: « **من جاء بالحسنة فله عشرة أمثالها وأزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها، أو أغفر، ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً (لقيته بمثلها مغفرة)** ».

العليم، الذي أحاط علمه بجميع المعلومات، من ماضٍ وآتٍ، وظاهر وكامنٍ، ومتحركٍ وساكنٍ، وجليلٍ وحقير، علم بسابق علمه عدد أنفاس خلقه، وحركاتهم، وسكناتهم، وأعمالهم، وأرزاقهم، وآجالهم، ومن هو منهم من أهل الجنة، ومن هو منهم من أهل النار في العذاب المهين ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ما من جبل إلا ويعلم ما في وعره، ولا بحر إلا ويدري ما في قعره، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه، وما يُعمَّر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب، إن ذلك على الله يسير.

القابض، الباسط، فيقبض عمن يشاء رزقه؛ فيقدره عليه، ويبسطه على من يشاء؛ فيوسع عليه، وكذا له القبض والبسط في أعمال عباده وقلوبهم، كل ذلك إليه، إذ هو المتفرد بالإحياء والإماته، والهداية والإضلال، والإيجاد والإعدام ، وأنواع التصرف والتدبير.

الخافض، الرافع، الضار، النافع، المعطي، المانع، فلا رافع لمن خفض، ولا خافض لمن رفع، ولا نافع لمن ضر، ولا ضار لمن نفع ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فلو اجتمع أهل السموات السبع والأرضين ومن فيهن وما بينهما على خفض من هو رافعه أو ضر من هو نافعه أو إعطاء من هو مانعه لم يك ذلك في استطاعتهم بواقع ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

المعز، المذل، أعز أولياءه في الدنيا والآخرة، وأيدهم بنصره المبين وبراهينه القويمة المتظاهرة، وأذل أعداءه في الدارين وضرب عليهم الذلة والصغار، وجعل عليهم الدائرة فما لمن والاه وأعزه من مذل، وما لمن عاداه وأذله من ولي ولا نصير.

السميع، البصير، لا كسمع ولا بصر أحد من الورى، القائل لموسى وهارون ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فمن نفى عن الله مما وصف به نفسه، أو شبه صفاته بصفات خلقه(*) فقد افترى على الله كذباً، وقد خاب من افترى، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

الحكم، العدل، في قضائه، وقدره، وشرعه، وأحكامه قولاً وفعلاً، إن ربي على صراط مستقيم، فلا يحيف في حكمه ولا يجور، وما ربك بظلام للعبيد، الذي حرّم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده محرما(١)، وأوعد الظالمين الوعيد الأكيد، وفي الحديث: «**إن الله عز وجل يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته**» ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(٢).

وهو الذي يضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً؛ بل يحصي عليهم الخردلة والذرة والفتيل والقطمير.

اللطيف، بعباده معافاة، وإعانة، وعفواً، ورحمة، وفضلاً، وإحساناً، وإجمالاً، وسراً، وإعلاناً.

(*) ومن صور النفي التأويل كا صنعت المعتزلة أخذوا يؤولون صفات الله فجعلوا يد الله القدرة حتى جعلوه - سبحانه وتعالى - عدماً. ومن صور التشبيه كما صنعت المشبهة أو الجهمية أخذوا يثبتون صفات الله فجعلوا يد الله مثل يد المخلوق، فجسدوه - جل شأنه - فجعلوا الله صنماً. ولذلك قالوا: «من نَفَى عَبَدَ عَدَماً، ومن شبَّه عَبَدَ صنَماً». وراجع تفصيل المصنف في كتابه «فاعلم أنه لا إله إلا الله» (ص١٠ ، ١١)، وفي مقاماته «المقامة السلفية».

(١) كما ثبت عند مسلم (٤/١٥٨٣، ١٥٨٤) (٢٥٧٧/٥٤) كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، من حديث أبي ذر عن النبيﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**، ...» والحديث طويل، وما ذكرته محل شاهد المصنف.

(٢) الحديث صحيح أخرجه مسلم (٤ / ١٥٨٥) (٦١ / ٢٥٨٣) كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم عن أبي موسى مرفوعاً باللفظ المذكور.

الخبير، بأحوال مخلوقاته وأقوالهم وأفعالهم ماذا عملوا؟ وكيف عملوا؟ وأين عملوا؟ ومتى عملوا؟ حقيقة وكيفية ومكاناً وزماناً؟ ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

الحليم، فلا يعاجل أهل معصيته بالعقاب، بل يعافيهم ويمهلهم ليتوبوا فيتوب عليهم إنه هو التواب الرحيم.

الذي اتّصف بكل معنى يوجب التعظيم، وهل تنبغي العظمة إلا لرب الأرباب، خضع لعظمته وجبروته جميع العظماء، وذل لعزته وكبريائه كل كبير.

الغفور، الشكور، الذي يغفر الكثير من الزلل، ويقبل اليسير من صالح العمل، فيضاعفه أضعافاً كثيرة، ويثيب عليه الثواب الجلل، وكل هذا لأهل التوحيد، أما الشرك فلا يغفر، ولا يقبل معه من العمل قليل ولا كثير.

العلي، الذي ثبتت له كل معاني العلو، علو الشأن؛ وعلو القهر؛ وعلو الذات،الذي استوى على عرشه، وعلا على خلقه بائناً (*) من جميع المخلوقات، كما أخبر ذلك عن نفسه في كتابه (**) وأخبر عنه رسولهﷺ في أصح الروايات (١)، وأجمع على ذلك أهل الحل والعقد بلا نزاع بينهم ولا نكير(***).

(*) قال الشيخ الألباني: قلت: ومن هذا العرض يتبين أن هاتين اللفظتين: «بذاته» و«بائن» لم تكونا معروفتين في عهد الصحابة - رضي الله عنهم - ولكن لما ابتدع الجهم وأتباعه القول بأن الله في كل مكان اقتضى ضرورة البيان أن يتلفظ هؤلاء الأئمة الأعلام، بلفظ «بائن» دون أن ينكره أحد منهم. أ. هـ. مختصر العلوم (ص١٧).

(**) لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ..﴾.

(١) قلت: والأحاديث التي تدل على الفوقية كثيرة، منها ما أخرجه البخاري (الفتح ١٣ / ٤٩٤) (٧٤٢٠) كتاب التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾. ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ عن أنس - ضمن حديث مرفوع في قصة زواج زينب - قال أنس: فكانت - أي: زينب - تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول: «زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات».

(***) راجع اتفاق السلف على هذا كما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٥ / ٢٨٠).

الكبير، الذي كل شيء دونه، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه؛ كما أخبر بذلك عن نفسه نصاً بيناً محكماً(*).

الحفيظ، على كل شيء فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، الذي وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما، حفظ أولياءه في الدنيا والآخرة، ونجاهم من كل أمر خطير.

المغيث، لجميع مخلوقاته فما استغاثه ملهوف إلا نجّاه.

الحسيب، **الوكيل**، الذي ما التجأ إليه مخلص إلا كفاه، ولا اعتصم به مؤمن إلا حفظه ووقاه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه فنعم المولى ونعم النصير.

الجليل، الذي جل عن كل نقص، واتصف بكل كمال وجلال.

الجميل، الذي له مطلق الجمال في الذات والصفات والأسماء والأفعال.

الذي لو أن أول الخلق وآخرهم وإنسهم وجنهم قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، كما روى عنه نبيه المصطفى المفضال ﷺ (١).

ومن كرمه أن يقابل الإساءة بالإحسان، والذنب بالغفران، ويقبل التوبة

(*) لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

(١) كما جاء ذلك في صحيح مسلم (٤ / ١٩٩٤، ١٥٩٥) (٥٥ / ٢٥٧٧) في كتاب البر والصلة والآداب باب: تحريم الظلم. عن أبي ذر عن النبي ﷺ ـ فيما روى عن الله تبارك وتعالى ـ أنه قال: **«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني؛ فأعطيت كل إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما نقص المِخْيَط إذا أدخل البحر، .... الحديث».**

ويعفو عن التقصير، الرقيب على عباده بأعمالهم، العليم بأقوالهم وأفعالهم، الكفيل بأرزاقهم وآجالهم وإنشائهم ومآلهم.

المجيب، لدعائهم وسؤالهم وإليه المصير.

الواسع، الذي وسع كل شيء علماً، ووسع خلقه برزقه ونعمته وعفوه ورحمته كرماً وحلماً، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

الحكيم، في خلقه وتدبيره إحكاماً وإتقاناً، والحكيم في شرعه وقدره عدلاً وإحساناً، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، ومن أكبر من الله شهادة وأوضح دليلاً وأقوم برهاناً.

فهو العدل، وحكمه عدل، وشرعه عدل، وقضاؤه عدل، فله الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

الودود، الذي يحب أولياءه ويحبونه كما أخبر عن نفسه في محكم الآيات(*).

المجيب، لدعوة الداعي إذا دعاه في أي مكان كان، وفي أي وقت من الأوقات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تختلف عليه المطالب ولا تشتبه عليه الأصوات فيكشف الغم، ويذهب الهم ، ويفرج الكرب، ويستر العيب، وهو السِتِّير.

المجيد، الذي هو أهل الثناء كما مجّد نفسه وهو الممجد على اختلاف الألسن، وتباين اللغات بأنواع التمجيد، **الباعث** الذي بدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، والفعال لما يريد.

(*) لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ...الآية﴾ [المائدة: ٥٤].

الشهيد، الذي هو أكبر كل شيء شهادة وكفى بالله شهيداً، ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

القوي، المتين، الذي لم يقم لقوته شيء، وهو شديد المحال.

الولي، للمؤمنين فلا غالب لمن تولاه، وإذا أراد بقوم سوءاً فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال.

الحميد، الذي ثبت له جميع أنواع المحامد، وهل يثبت الحمد إلا لذي العزة والجلال، فله الحمد كما يقول، وخيراً مما نقول، لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، وكيف يحصي العبد الضعيف ثناء على العلي الكبير.

المحصي، الذي أحصى كل شيء عدداً وهو القائل: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

المبدئ، المعيد، الذي قال وهو أصدق القائلين: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وأنّى يعجزه إعادته وقد خلقه من قبل ولم يك شيئاً، كل يعلم ذلك ويقر به بلا نكير.

المحيي المميت، الذي انفرد بالإحياء والإماتة فلو اجتمع الخلق على إماتة نفس هو محييها، أو إحياء نفس هو مميتها لم يك ذلك ممكناً، وهل يقدر المخلوق الضعيف على دفع إرادة الخالق العلاّم، الحي الدائم الباقي الذي لا يموت، وكل ما سواه زائل كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

القيوم، الذي قام بنفسه ولا قوام لخلقه إلا به، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره فلا يحتاج إلى شيء بل كل شيء إليه فقير.

الواحد الأحد، الذي لا شريك له في إلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وملكوته وجبروته وعظمته وكبريائه وجلاله، لا ضد له ولا ند، ولا شبيه ولا كفؤ ولا عديل.

الصمد، الذي تصمد إليه جميع الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، فهو المقصود إليه في الرغائب المستغاث به عند المصائب، فإليه منتهى الطلبات، ومنه يسأل قضاء الحاجات، وهو الذي لا تعتريه الآفات، وهو حسبنا ونعم الوكيل، فهو العظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في صفات الكمال، ولا تبتغي هذه الصفات لغير الملك الجليل، القادر المقتدر، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض، إنه على كل شيء قدير. المقدم المؤخر بقدرته الشاملة ومشيئته النافذة على وفق ما قدره، وسبق به علمه، وتمت به كلمته، بلا تبديل ولا تغيير.

الأول؛ فليس قبله شيء، **والآخر** فليس بعده شيء، **والظاهر** فليس فوقه شيء، **والباطن** فليس دونه شيء، هكذا فسره البشير النذير[(١)].

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٤ / ١٦٥٥) (٦١ / ٢٧١٣) في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع. قال: ثني زهير بن حرب ثنا جرير بن سهيل قال كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام، أن يضجع على شقه الأيمن. ثم يقول: «**اللهم رب السماوات ورب الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته. اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، أقض عنا الدَّين، وأغننا من الفقر**». وكان يروى ذلك عن أبي هريرة عن النبيﷺ.

الوالي، فليس له منازع ولا مضاد، المتعالي عن الشركاء والوزراء والنظراء والأنداد، البر وصفاً، وفعلاً، ومن بره المن على أوليائه بإنجائهم من عذابه كما وعدهم على ألسنة رسله أنه لا يخلف الميعاد.

التواب، الذي يرزق من يشاء التوبة، فيتوب عليه وينجيه من عذاب السعير.

المنتقم، الذي لم يقم لغضبه شيء وهو شديد العقاب، والبطش والانتقام، **العفو**، بمنه وكرمه عن الذنوب والآثام.

الرؤوف، بالمؤمنين، ومن رأفته بهم: أن نزَّل على عبده آيات مبينات ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، ومن رأفته بهم أن اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، مع كون الجميع ملكه، ولم ينزع عنهم التوبة قبل الختام فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

ذو الجلال والإكرام، والعزة والبقاء، والملكوت والجبروت، والعظمة والكبرياء، المقسط الذي أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وما للظالمين من نصير. الجامع لشتات الأمور، وهو جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد.

الغني المغني، فلا يحتاج إلى شيء، ولا تزيد في ملكه طاعة الطائعين، ولا تنقصه معصية العاصين، وكل خلقه مفتقرون إليه، لا غنى بهم عن بابه طرفة

عين، وهو الكفيل بهم رعاية وكفاية وهو الكريم الجواد، وبجوده عم جميع الأنام من طائع وعاص، وقوي وضعيف، وشكور وكفور، وآمر ومأمور.

نور السموات والأرض ومن فيهن كما وصف نفسه بذلك في كتابه(*).

فبصفات ربنا تعالى نؤمن، ولكتابه وسنة رسوله نحكم، وبحكمهما نرضى ونسلم، وإن أبى الملحد إلا جحود ذلك وتأويله على ما يوافق هواه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الهادي، الذي بيده الهداية والإضلال فلا هادي لمن أضل، ولا مضل لمن هدى ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾.

البديع، الذي أبدع السموات والأرض وما بينهما بلطيف صنعه وبديع حكمته، بلا معين ولا مثال، الباقي الذي كل شيء هالك إلا وجهه، الأول بلا ابتداء ، والآخر بلا انتهاء(**).

الوارث، الذي يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، وإليه المرجع والمآل فبإيجاده كل موجود وجد، وإليه كل الأمور تصير.

الرشيد، في كل أقواله وأفعاله، فالبرشاد يأمر عباده وإليه يهديهم.

الصبور، الذي لا أحد أصبر منه على أذىً سمعه، ينسبون له الولد ويجحدون أن يعيدهم ويحييهم. وكل ذلك بسمعه وبصره وعلمه لا يخفى عليه

(*) كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

(**) من قواعد أهل السنة والجماعة، انظر متن الطحاوية.

منهم شيء، ثم هو يرزقهم ويعافيهم، ذلك بأنهم لم يبلغوا نفعه فينفعوه ولا ضره فيضروه، وإنما يعود نفع طاعتهم إليهم، ووبال عصيانهم عليهم، واستغنى الله والله غني حميد.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

أحمده تعالي على جزيل إنعامه وإفضاله، وأشكره على جليل إحسانه ونواله، وله الحمد على أسمائه الحسنى، وصفات كماله ونعوت جلاله، وله الحمد على عدله قدراً وشرعاً، وله الحمد في الآخرة والأولى وهو الحكيم الخبير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الملك الحق العلي الكبير، تعالى في إلهيته وربوبيته عن الشريك والوزير، وتقدّس في أحديته وصمديته عن الصاحبة والولد والوالد والولي والنصير، وتنزه في صفات كماله ونعوت جلاله عن الكفؤ والنظير، وعز في سلطان قهره وكمال قدرته عن المنازع والمغالب والمعين والمشير، وجل في بقائه وديموميته وغناه وقيوميته عن المطعم والمجير، فسبحانه ما أعظمه وأحلمه، وما أجله وأكمله، عليه توكلت وإليه أنيب، وهو حسبي ونعم الوكيل.

سبحان من انتشل ذا النون من الظلمات، سبحان من نجى نوحاً من الكربات، سبحان من أطفأ النار لإبراهيم، وجمد الماء للكليم، سبحان من أنشأ القرون وأعادها، وأحيا الأمم وأبادها، سبحان من ملأ القلوب من هيبته، والأرواح من عظمته، وعمَّر الأكوان بحكمته، وطوق الأعناق بنعمته، سبحان من تفرَّد بالبقاء، وجل عن الشركاء، وأبدع كل شيء كما يشاء.

سبحان من أجرى الماء، وسير الهواء، وبث الضياء، وأقام الظلماء.

سبحان من شفى الشكوك باليقين، وأحل النقمة بالظالمين، وأنزل العقاب بالفاسقين.

سبحان من على العرش استوى، من يسمع ويرى، سبحان الذي خلق فسوّى، سبحان الذي قدّر فهدى.

سبحان من لا يموت، سبحان من تكفل بالقوت، سبحان من صور الأجنة، سبحان من له المنَّة، سبحان من وهب النور في الأبصار، وسكب الضياء في النهار، وقصَّر بالموت الأعمار، وأفنى بالهلاك الديار، جل في علاه، تقدّس عن الأشباه، لا إله إلا إياه، لا نعبد سواه، غالب فلا يقهر، وشاء فلا يجبر، أغنى وأقنى، وأضحك وأبكى، ظهرت آياته، بهرت بيناته، حسنت صفاته، تباركت ذاته.

أبرم الحيل لأعدائه، وأحكم الأمور لأوليائه، تفرَّد عن الملوك بالملكوت، وقصم الجبّارين بالجبروت.

تلألأت بأجل المحامد أسماؤه، توالت بأسنى الهبات آلاؤه، تواترت بأبرك الخيرات نعماؤه، جمل اختياره واصطفاؤه ما أحسن جميله، ما أوضح تفصيله، ما أيسر تسهيله، ما أصدق قيله.

لا إله إلا الله عدد ما خطت الأقلام، لا إله إلا الله كلما سجع الحمام، وهطل الغمام، وقوضت من منى الخيام.

لا إله إلا الله كلما برق الصباح، وهبت الرياح، وكلما تعاقبت الأتراح والأفراح.

لا إله إلا الله كلما ازدحمت الأنفاس، وكلما حل السرور والإيناس، وانتقل الضر والباس، وزال القنوط واليأس.

لا إله إلا الله ترضيه، لا إله إلا الله بها نلاقيه، لا إله إلا الله تملؤ الكون وما فيه، لا إله إلا الله كلما دجى الليل، وكلما انكشف الهول والويل، وكلما انعقد السحاب وجر السيل.

لا إله إلا الله يفعل ما يريد، لا إله إلا الله يبدأ ويعيد، لا إله إلا الله ذوالعرش المجيد، والبطش الشديد، لا إله إلا الله ندخرها ليوم الوعيد، ونتقي بها عذاب جهنم الأكيد.

لا إله إلا الله كلما ترعرع ورد وأزهر، وكلما لمع بارق وأمطر ، وكلما تنفس صبح وأسفر، لا إله إلا الله كلما زجرت الرعود، وخفقت البنود(*)، وجرى الماء في العود، لا إله إلا الله كلما هتف الحمام؛ وهطل الغمام، وارتفعت الأعلام، ووسدت الجماجم الرغام(**).

لا إله إلا الله كلما تلألأ الضياء، وشع السناء، وتدفق الماء، وسرى الهواء.

لا إله إلا الله الواحد القهّار، الملك الجبّار، مكور الليل على النهار.

لا إله إلا الله في علاه، لا نعبد إلا إياه، ولا ندعو سواه، تفضل بالجميل وأعطى الجزيل، وشفى العليل، وأزاح الهم الثقيل.

لا إله إلاالله حفظ الأولياء، ونصر الأنبياء، وكبت الأعداء يفعل ما يشاء، ويبرم القضاء، وينزل الداء والدواء.

(*) البنود: جمع : بند وهو العلم الكبير، فارسي معرب، قال الشاعر: **وأسيافنا تحت البنودِ الصَوَاعِقُ** .·. أ. هـ . انظر الصحاح (٢ / ٤٥٠) وراجع معجم مقاييس اللغة لابن فارس مع حاشية المحقق عبدالسلام محمد هارون (١ / ٣٠٦)، وترتيب القاموس (١ / ٣٢٦).

(**) الرغام: التراب. ومنه «أرغَم الله أنفه» أي: ألصقة بالرَّغام. انظر مقاييس اللغة (٢-/ ٤١٣ / مادة رغم، والتفصيل في اللسان (٢ / ٢٤٧) مادة رغم، فقد توسع فيها.

لا إله إلا الله محيي الأموات، المتكفل بالأقوات، منزل الآيات، عالم السر والخفيات، رفيع الدرجات.

لا إله إلا الله مكرم الأبرار، مهين الفجار، هازم الكفار، عالم الجهر والإسرار.

لا إله إلا الله نأمن بها من الفتان، ونعوذ بها من النيران، ونرجو بها الجنان في جوار الرحمن.

الله المستعان على قدرة الرحمن وكتبة الديان.

ذُبح أنبياؤه، وقُتل أولياؤه، وأوذي أهل الإيمان، فالله المستعان.

وضع خليله في المنجنيق، وهدده الكفار بالحريق، وارتجل اللسان، فالله المستعان.

سهر المعصوم من الأذى، وشرد نعاسه، شج رأسه، وكسرت رباعيته، وجرحت وجنته، وتألبت عليه الأحزاب، والأعوان، فالله المستعان.

طعن الفاروق، فدفقت دماؤه من العروق، وهو يرتل القرآن، فالله المستعان.

مزق عثمان، وسال دمه على القرآن، وقطعت أصابعه والبنان، فالله المستعان.

ذُبح علي، والله الولي، فتوالت الأحزان، فالله المستعان.

إذا حل الأمر الصعب، وادلهم الخطب، وعم الجدب، فالله المستعان.

إذا قل النصير، وتفاقم الأمر الخطير، وحمل الفاجعة النذير، فالله المستعان.

إذا أظلم الأفق، وضاقت الطرق، وانشق بالمصائب الأفق، فالله المستعان.

إذا جاعت البطون، وأخطأت الظنون، وحلت المنون، فالله المستعان.

الله المستعان على تعاقب الزمان، وتفرق الإخوان.

الله المستعان إذا اختلف الجديدان، وافترق المتحابان، وعال الميزان.

الله المستعان على المصائب الأليمة، والكوارث المقيمة، والخطب الجلل، والأزمات والعلل.

الله المستعان على فقد الأحباب، وموت الأصحاب، وتغير الأسباب.

الله المستعان على تبدل النعم، وحلول النقم، وهلاك الأمم.

الله المستعان على فقد الولد، وقحط البلد، وضعف السند.

الله المستعان إذا أجدبت الديار، وتأخرت الأمطار، وذبلت الأشجار.

الله المستعان إذا قست القلوب، وظهرت العيوب، وكثرت الذنوب.

الله المستعان على كل ظلوم جبار، وعلى كل خائن كفار، وعلى كل جاحد ختار.

الله المستعان على فتنة السراء والضراء، وعلى الشدة والرخاء، وعلى المصيبة والنعماء.

الله أكبر عدد قطر البحار، وورق الأشجار، ورذاذ الأمطار، وذرات الغبار.

الله أكبر عدد حبات الرمال، الله أكبر، مع تعاقب القرون والأجيال،

وتصرم الأعمار والآجال.

الله أكبر حقاً حقاً، الله أكبر محبة وصدقاً، الله أكبر عبودية ورقاً.

الله أكبر تشدو بها الطيور على الفنن، وتلهج بها الألسن في كل زمن.

تقدس الكبير المتعال، تبارك ذو الجلال، عز ذو الجمال والكمال.

الله أكبر تزلزل قلاع المارقين، وتنسف معاقل المنافقين، وتحطم أوكار الفاسقين، وتهدم جيوش الخائنين.

الله أكبر ترجف لها القلوب، وتغفر بها الذنوب، وتصغر لها الشعوب.

الله أكبر تكسر بها آمال الأكاسرة، وتقصر بها أعمار القياصرة، وترغم بها أنوف الجبابرة.

الله أكبر له الكبرياء والثناء، وإليه الرجاء ومنه النعماء.

الله أكبر لم تحجبه سماء عن سماء، ولا شغلته أرجاء عن أرجاء، سمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء.

الله أكبر دعاه المريض على سريره، وفزع إليه المنكوب في أموره، وهتف باسمه الربان في البحار، ولهج بذكره من ضل في القفار.

الله أكبر يدعى للكرب الشديد، وينادى للخطب العتيد، يفر إليه في الملمات، ويركن إليه في الأزمات.

الله أكبر ما أحلمه على الطغاة، وما أصبره على العصاة، وما أقربه ممن دعاه، وما أقدره على نصر من تولاه، وما أشد بطشه بمن عاداه، وما أسمعه لمن ناداه.

من قبله فهو المقبول، من حاربه فهو المخذول، من التجأ إليه عز، من توكل عليه كفاه، من أطاعه تولاه، من نازعه قصمه، من بارزه حطمه، من أشرك به أحرقه، من نادَّه مزقه.

الله أكبر شهدت بعظمته البحار والمحيطات، والجبال الراسيات.

الله أكبر كلما دعاه ملهوف فحماه، وكلما سأله محتاج فأعطاه.

الله أكبر أفنى القرون الأول، وفل الجيوش والدول.

الله أكبر أنزل الجبابرة من القصور، وأضجعهم في القبور.

الحمد لله على جزيل العطاء، مسدي النعماء، وكاشف الضراء، معطي السراء.

الحمد لله عالم السر والجهر، الحمد لله عالي القهر والقدر، الحمد لله المتكفل بالأقوات، المدعو عند المدلهمات، المطلوب عند كشف الكربات، المرجو في الأزمات.

الحمد لله دائم الإحسان، جزيل الخير والامتنان، حكيم الخلق والإتقان، إليه يصعد الثقلان، وعليه يتوكل الإنس والجان، ومنه يطعم الإنسان والحيوان.

الحمد لله على كل نعمة أنعم بها، وعلى كل بلية صرفها، وعلى كل أمر يسره، وعلى كل قضاء قدره، وعلى كل شر صرفه، وكل مكروه كفاه، وكل حادث لطف فيه.

الحمد لله كم أعطى من النعيم، الحمد لله كم منح من الخير العميم، الحمد لله كم تفضل به من النوال الجسيم، الحمد لله عمت نعمه، وانصرفت نقمه، وتضاعف كرمه.

الحمد لله على تمام المنة، الحمد لله بالكتاب والسنة، والحمد لله على نعمة الإسلام، الحمد لله على تواتر الإنعام، الحمد لله ما توالت أفضاله، وعم نواله، وحسنت أفعاله، وتمت أقواله، الحمد لله وحمده أحسن قيل، وهو مولي الجميل، وواهب العطاء الجزيل، وشافي العليل، والمبارك في القليل، الحمد لله أجود من أعطى، وأصدق من أوفى.

الحمد لله مانح الهبات، مجزل العطيات، مهيء الطيبات، مرسل النفحات، الحمد لله على حسن الكفاية، الحمد لله على جميل الرعاية، الحمد لله على عزة الولاية، الحمد لله المدل على الهدى، الحاجز من الردى، ما حمام شدا، وما بدر بدا، وما طل غدا.

الحمد لله أبداً سرمداً ولا نشرك معه أحداً، تبارك فرداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولا شريكاً ولا عضداً.

الحمد لله على مر الساعات، وفي كل الأوقات، وطيلة اللحظات، الحمد لله على إنعامه، الحمد لله على إكرامه، الحمد لله على حسن صنيعه.

الحمد لله على الأيادي الوافية، والمنن الصافية، والحمد لله على العافية، والولاية الكافية، الحمد لله على إفضاله، الحمد لله على نواله، الحمد لله على إجزاله.

نحمدك ما همع سحاب، ولمع سراب، واجتمع أحباب، وقُرئ كتاب.

الحمد لله ما طبق ظلام، وانحل نظام، وسُمع كلام، واستيقظ نُوَّام.

الحمد لله ما استهل وليد، وعاد وعيد، وآب بعيد، ورجع طريد.

حمداً حمداً على الإكرام، شكراً شكراً على الإنعام.

ثناء الجنان واللسان على الملك الديَّان

سبحان من أتته السماء والأرض طائعة، وتطامنت الجبال لعظمته خاشعة، ووكفت العيون عند ذكره دامعة، ترنم الرعد بتسبيحه، لمعَ البرق بتمجيده، شدا الطير بذكره، هدل الحمام بشكره، شكره نعمة تستوجب الشكر، ومدحه فضيلة للمادح تستحق العرفان، والثناء عليه منّة منه يختص بها من يشاء.

هجدنا ونام الركب والليل مسرفٌ

وقمت أسح الدمع للخالق الباري

عبادته شرف، والذل له عزة، والافتقار إليه غنى، والتمسكن له قوة، محاربته خذلان، والكفر به لعنة، والتنكر لجميله عذاب.

فتح ومنح، طحى ودحى، أغطش وأغشى، رفع ووضع، وصل وقطع، أطعم وسقى، كفى وكسى، يبتلي ويستدرج، ويبرم ويعد، ويأخذ وينتقم، يصب النعيم على من عصاه، ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر، ويسلط البلاء على من أطاعه ليرفع منزلته في الصالحين.

ينشئ حدائق غناء؛ غزيرة الماء؛ وارفة الأنداء، طيبة الظل، ندية الطل ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾.

كم أضحكَ من سن، وأبكى من عين، خلق الضدين، وأوجد النقيضين، وجعلَ المتشابهين والمختلفين: ليلاً ونهاراً، ونوراً وظلمة، حراً وبرداً، رخاءً وشدة، جنة وناراً، هدىً وضلالاً، إيماناً وكفراً، صلاحاً وفساداً، فيا ألله ما أحكمه وأعلمه وما أحسن صنعه وأجل لطفه.

قطع الألسنة الفصيحة بسيف الموت، بتر الرؤوس العنيدة بصارم الفناء، فَرَجُه فجأة، وأخذه بغتة، ومنعه وعطاؤه حكمة، وقضاؤه نافذ، وأمره غالب، بيده الأمر وإليه المعاد ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾.

أَحْلَى اللحظات وأجل الساعات إذا ذكرته، أشرف الرتب وأفضل القُرَب إذا سبَّحته.

أرفع المقامات وأعظم الدرجات إذا شكرته، أنكد الأزمات وغاية الهوان إذا عصيته، أشقى الليالي والأيام إذا حاربته.

أرغم بحجته أنوف الضلاَّل، وقرع بجلال وعظه قلوب اللاَّهين، وزلزل بوعيده أفئدة الجبابرة، وأتحف بوعده نفوس الطائعين.

انظر إلى الشمس كيف أبدع سناها، وسيّرها إلى منتهاها، وبلّغها مداها، وزين القمر وحسّن طلعته، وبث نوره، وحسّن زينته، وبث النجوم ما بين منظوم ومنثور ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾.

إشارات تدل العبيد على عظمة الحميد ذي العرش المجيد

سبحان من أحاط علمه بالكائنات، واطّلع على النيات، وعلم بنهايات الأمور، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، علم ما في الضمير، ولا يغيب عنه الفتيل والقطمير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

يبدئ ويعيد، وينشئ ويبيد، وهو فعّال لما يريد، لم يخلق الخلق سدى، ولم يتخذ المضلين عضداً، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

دخلَ موسى وهارون على رأس الطغيان، فهابا السلطان والصولجان، وخافا في ساعة الامتحان، فنادى رب الورى قوي العرى ﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

هرب موسى من فرعون، فاصطدم بالبحر، وضاق الأمر، فصاح بنو إسرائيل: إنا لمدركون فقال: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

لما التجأ الرسول مع الصديق إلى الغار وأحاط به الكفار، وفوض الأمر إلى الواحد القهار، قال الصديق: كيف لو رأونا هنا؟! (١)

قال: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

---

(١) حديث الغار في الصحيح، أخرجه البخاري (الفتح ٧ / ٨) (٣٦٥٣) كتاب فضائل الصحابة باب مناقب المهاجرين وفضلهم، ومسلم (٤ / ١٨٥٤) (١ / ٢٣٨١) كتاب فضائل الصحابة. باب: من فضائل أبي بكر الصديق. كلاهما عن أبي بكر مرفوعاً **«ما ظنك باثنين الله ثالثهما»** وسيأتي بلفظه، ما ذكره المصنف هنا بالمعنى.

شكت خولة بنت ثعلبة[١] للرسولﷺ أمرها، وأخبرته سرها، وعائشة رضى الله عنها في طرف البيت لم تسمع همساً، ولم تعلم حساً، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾.

اجتمعت عائشة وحفصة[٢] وتفاوضتا في شأن الرسولﷺ وأخبرت إحداهما الأخرى بسره، وكشفت شيئاً من أمره، فأنزل علاّم الغيوب: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾.

أصاب الناس على عهدهﷺ قحطٌ شديد[٣]، فدخل أحدهم والرسولﷺ على المنبر يوم الجمعة، فشكى إليه الحال، وضياع المال، وجوع العيال، فدعا

(١) جاء ذلك في حديث صحيح. وقصه خولة أخرجها النسائي (٦ / ١٦٨) (٣٤٦٠) كتاب الطلاق، باب: الظهار وابن ماجه (١ / ٦٧) (١٨٨) المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية. وكرره (٢٠٦٣) والحاكم (٢ / ٤٨١) وقال صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. والحديث صححه الشيخ الألباني الإرواء (٧ / ١٧٥)، وصحيح ابن ماجه (١٥٥ / ١٨٨).

(٢) قلت: وهذه القصة وردت على وجهين.

الأول : أحاديث وطء أم إبراهيم (مارية القبطية)، في بيت عائشة، واطلعت عليه حفصه فأمرها بحفظ السر عن عائشة مقابل بشارة أن أباها يلي أمر المسلمين بعد أبي بكر - وهذا في بعض الروايات - وبعضها لم يذكر هذه البشارة - فكشفت حفصه هذه البشارة والسر إلى عائشة، وكل هذه المرويات لا يخلو سندها من مقال وضعف.

الثاني: أحاديث تحريم العسل الذي كان يشربه عند زوجه زينب بنت جحش وهي في الصحيحين. البخاري (الفتح ٨ / ٦٥٦) (٤٩١٢) كتاب التفسير، باب: سورة التحريم : « يا أيها النبي....» و(٤٩١٤) باب: «وإذ أسر النبي.... ». ومسلم (٢ / ١١٠٠) (٢٠ / ١٤٧٤) كتاب الطلاق، باب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق. وقد صحح الوجه الثاني ابن كثير في تفسيره (٨ / ١٦٠) بقوله: «والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل».

(٣) حديث صحيح: كما ثبت في صحيح البخاري (٢ / ٥٠٧) (١٠١٤) كتاب الاستسقاء، باب: الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة. ومسلم (٢ / ٦١٢) (٨ / ٨٩٧) كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء. كلاهما عن أنس مرفوعاً أوله: «**اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا**، ... الحديث» واللفظ للشيخين.

الرسولﷺ ذا الجلال، وناداه وسأله واستجداه، والسماء صحو لا غيم فيها، فثار السحاب في لحظة، ونزل الغيث في طرفة عين، وإذا الأرض عين معين ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

أجدبت الديار، وجفت الآبار، وبعد العهد بالأمطار، وذبلت الأزهار، ويبست الأشجار، فرفعت نملة يديها ورجليها إلى باريها وخالقها وهاديها ومطعمها ومسقيها، فدعت وألحت، فأنزل الله الغيث المغيث، والوبل المكيث.

سبحان الله! عرفه الهدهد بأسمائه وصفاته وآياته ومخلوقاته، فأذعن له بالوحدانية واعترف له بالعبودية، وغضب على قوم كفروا به ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

سبحان الله! إذا وضعت في الأرض بذرة أو حبة لا تنبت حتى تهتز الأرض بقدرة قادرة، هزّة خفية فتفقس البذرة وتنبت ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

سبحان الله! انطلقت نجوم من مواقعها من آلاف السنين بسرعة الضوء ولم يسقط بعضها إلى اليوم من طول المدى وتباعد المسافة، واتساع الكون، وعظمة القدرة ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾.

سبحان الله! الدودة في الطين يرزقها رب العالمين، والحوت في الماء يغذيه رب الأرض والسماء، والحشرة على الأوراق يطعمها الرزّاق ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

سبحان الله يُسيِّر الريح الزمهرير، ويجري الرياح لها صرير، يثير الغمام، ويقلّب الأيام، ويجري السَّحاب ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

سبحان الله! أهلك القرى لما أعرضت عن دينه، والسماوات مطويات بيمينه، ينقذ من على الهلاك أشفى، ويعلم السر وأخفى.

لمّا تمرّد فرعون وبغى، قال لموسى: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾. قال فرعون : أنا بالألوهية أولى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ﴾.

أنشأ الشعوب وأفناها، وأحيا الأمم وأعلاها، لما أباد الدول والملوك الأول، جعل هلاكهم للباقين رمزاً ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

حارت الأفكار في قدرة من
قد هدانا سبلنا عز وجل

كتب الموت على الكل فكم
فلّ من جيش وأفنى من دول

مؤمّن الخائف، وناصر المظلوم، وعضد الملهوف، ونصير المضطهد، ومطعم الجائع، ومكسي العاري، ومبكي الطاغي.. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. يولي ويعزل، ويملك ويخلع ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

خلق السماء وقال عنها: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، وخلق الأرض وقال: ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾.

وعن الشمس يقول: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

وعن القمر يقول: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾.

وقال عن الماء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقال عن الرياح: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾.

وقال عن الليل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾.

وقال عن النهار: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾.

قال عنه الخليل، لما حاور الملك الضليل: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾.

وقال عنه الكليم لما حاج الطاغية اللئيم: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

مدح نفسه قبل أن يمدحه المادحون، وأثنى على جلاله قبل أن يُثني عليه المثنون، ووصف عظمته قبل أن يصفه الواصفون، قال عن نفسه: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾، وقال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾.

وقال: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

الجبال المنيفة، والشواهق المخيفة، أخبر عن خلقها فقال: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾، وأخبر عن إبادتها وانتهائها، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ .

فسبحانه من عظيم! جعل هذا الجرم الهائل من الصخور والرمال يطير في الهواء شذراً، ويتفتت في السماء مذراً ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ .

وجوب تقديره سبحانه حق قدره وتوقيره ومعرفة حقّه على خلقه

ما لكم لا تملؤون القلوب بمحبته، والنفوس بعظمته، والأرواح بهيبته، ما لكم أيها الناس كأنكم سكارى ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾.

وقع يونس في ظلمات ثلاث: ظلمة ليل هائج، وبحر مائج، وحوت ساذج، فمن ينادي؟! ومن يسأل؟! وإلى من يلتجئ؟! وعلى من يشتكي؟! لا أهل ولا قرابة! ولا ولد! ولا زوجة! فذكر ملك الملوك، ومجيب المضطر، وكاشف السوء، ومزيل الغم، ومفرج الكرب، وهتف: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فاستجاب له الله، ونجّاه، واجتباه، فلا إله إلا الله تهب الريح العاصف؛ والموج القاصف على السفينة، فتضطرب ويصيح أهلها وينادون مولاهم، ويستغيثون بإلاههم، ويعاهدونه على الإخلاص ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

يُذنب العبد، ويرتكب الخطايا، ويفعل السيئات، ويعاقر الذنوب، ويقترف الفواحش، ثم يأوي إلى كنف ربه ويرجوه، ويستغفره ويدعوه، فيتوب عليه وينجيه، ويرحمه ويتجاوز عنه ويجتبيه ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

أخذَ بالنواصي، اطّلع على الضمائر، ملك الرقاب، قهر الجبابرة، كسر بجبروته الأكاسرة، قصَّر بعظمته القياصرة، تفرّد بالبقاء، تنّزه عن النقص،

وتقدَّس عن الند، وجل عن الشبيه. البعيد في إحاطته قريب، والقوي في عزته ضعيف، والغيب في علمه شهادة، والسر في اطلاعه علانية، ينقض العزائم، وينكث الهمم، ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

وما قدروا الله حق قدره، وقد رفع سبع سماوات طباقاً، وأحكم صنعها حتى صارت شداداً، وأتقنها؛ فلا ترى فيها فروجاً، وزينها بمصابيح من النجوم والكواكب، وهي مرفوعة بلا عمد، والله يمسكها أن تقع على الأرض، يُملي للظالم، ويقبل التائب، ويزيد المحسن، فالظالم إن أخذه لم يفلته، والتائب إن قبله محى حوبته، والمحسن إن أعطاه فبلا حساب، فأخذه عدل، وتجاوزه عفو، وعطاؤه فضل.

ما أصبره على الأذى!! يخلقهم، ويرزقهم؛ ويسبونه، ويشتمونه، يقول سبحانه: «**يسبني ابن آم وما ينبغي له ذلك، ويشتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك**»[1] ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾.

خلق خلقه، ثم رزقهم ثم هداهم، ثم اجتباهم واصطفاهم، ثم ذكرهم بأسمائهم في نفسه وفي الملأ الأعلى، قال ﷺ لأبي بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك**» قال: وسمّاني في الملأ الأعلى باسمي، قال: «**نعم**» فبكى أبيّ[2].

---

(١) حديث صحيح. أخرجه البخاري (الفتح ٨ / ٦١٢) (٤٩٧٥) كتاب التفسير، باب: قوله: «الله الصمد» عن أبي هريرة مرفوعاً: «**يقول الله عز وجل: كذبنى عبدي ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك تكذيبه إياي أن يقول: فليعدنا كما بدأنا، وأما شتمه إياي، يقول: اتخذ الله ولداً، وأنا الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد**». انظر ترجمان السنة للمصنف (٧٤) الإيمان.

(٢) حديث صحيح. البخاري (الفتح ٨ / ٧٢٥) (٤٩٥٩) (٤٩٦٠) كتاب التفسير، ومسلم (١ / ٥٥٠) (٢٤٥ ، ٢٤٦ / ٧٩٩) كتاب صلاة المسافرين وقصرها، عن أنس مرفوعاً «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: وسماني؟ قال: نعم. فبكى**». واللفظ للبخاري.

واختــار من خلقـه قـومــاً فكتب الإيمان فـي قلوبهم وأيدهم بروح منه، وأعـانهم علـى الجهـاد في سـبيله، وحـبب إليـهم الإيمـان وزيّنه فـي قلوبهم، ثم أحبهم. يقولﷺ في خيبر: «**لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه**» [1] فأعطاها الله علياً.

ووفَّق قـومـاً للإسـلام وزادهم هدىً وآتاهم تقـواهم، وشـرح صـدورهم للإسـلام، وأنار قلوبهم بالإيمان، ورفع رؤوسـهم بالدين، ثم منحـهم الشهـادة في سبيله، ثم اهتز عـرشه لموت أحدهم، وهو العبد الصالح المجاهد سعد بن معاذ رضي الله عنه.

صوَّر الروح في البدن، وأسرى الحيـاة في الجسم، وأنطق اللسان بالحجة، وألهم القلب الهدى، ثم قبض هذه النفس بعد أن شوَّقها للقائه، فكلّم صاحبها؛ بلا ترجمان، وقـرَّب حـاملها. قـالﷺ لجـابر بن عبدالله: «**إن الله كلم أباك بلا ترجمان فقال: تمنَّ**» [2].

---

(١) حديث صحيح. أخرجه البخاري (الفتح ٧ / ٧٠) (٣٧٠) كتاب: فضـائل الصحابة، باب: مناقب علي ابن أبي طالب الهاشمي أبي الحسن ـ رضى الله عنه ـ عن سهل مرفوعاً: «**لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه... الحديث**». وله طريق آخر: أخرجه مسلم (٣ / ١٤٣٣) (٣٢ / ١٨٠٧) كتاب الجهاد والسير باب: غزوة ذي قـرد وغيرها، عن سلمة بن الأكوع ضمن حديث طويل جداً.. ومحل الشاهد في آخره بلفظ: «**لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله أو يحبه الله ورسوله**».

(٢) حديث حسن. أخرجه الترمذي (٥ / ٢٣٠ ، ٢٣١) (٣٠١٠) كتـاب تفسـير القرآن، باب: ومن سـورة آل عمـران وابن ماجه (٦٨١١) (١٩٠) المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية. كلاهما عن موسى بن إبراهيم بن كثير الانصاري قال سمعت طلحة بن خراش قال: سمعت جابر بن عبدالله مرفوعاً بلفظ أوله: «**لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: يا جابر ما لي أراك منكسراً؟ قلت: يا رسول الله استشهد أبي (قتل يوم أحد) وترك عيالاً وديناً، وقال: أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله. قال: ما كلم الله أحداً قطُّ إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحاً. فقال: يا عبدي تمن عليَّ أعطك. قال: يا رب**...... الحديث» وهذا لفظ الترمذي، وابن ماجه إلا أن ابن ماجه زاد الروايات من بعض الرواة داخل الحديث. والحديث حسنه الشيخ الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٥٧ / ١٩٠).

كاد الرسول ﷺ أن يقتله الكفار، وأن يغتاله الفجّار، فحماه بـ ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فاوضه المشركون وحاولوا مهادنته، ورغبوا في تنازله، فحماه بـ ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ حارب الشيطان أولياء الرحمن، وقعد لهم كل مرصد، وأتاهم من كل طريق، وتصور لهم في كل مكان، فأتى اللطف من اللطيف ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

كادت أسرتان من الأنصار أن تترك معركة أحد وتستسلم للفشل، ولكن الله سلم وهو وليهما [1].

ضاع يوسف عليه السلام من أبيه عليهما السلام، فقال: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ فضاع الثاني فقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾. فأتى الفرج من اللطيف الخبير فرد عليه بصره، وأعاد إليه ابنيه، وجمع شمله.

أخذ سبحانه أهل أيوب، فشكى عليه الحال فاستجاب له الرحمن الرحيم فوهب ﴿لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾.

اعتصم اليهود في حصونهم، فأنزلهم من صياصيهم، وقذف في قلوبهم الرعب.

التجأ قارون إلى داره، فخسف به وبداره الأرض.

هرب أعداؤه إلى ملاجئهم ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾.

---

(١) كما جاء ذلك في صحيح البخاري (الفتح ٧ / ٣٥٧) (٤٠٥١) في كتاب المغازي. باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ ... الآية﴾ [آل عمران: ١٢٢] .عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه والأسرتان هما: بنو سلمة وبنو حارثة.

نشر الرسول ﷺ حفنة تراب على جيش المشركين فما بقيت عين إلاّ دخلها التراب[(١)]، والسر: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾.

﴿لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أخرج يوسف ـ عليه السلام ـ من السجن، وأعطاه الملك بعد الرِّق، والعز بعد الذل، وعلّمه مما يشاء، وجاء بوالديه من البدو، وجمع بينه وبين إخوته.

﴿لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ هرب موسى عليه السلام من فرعون بعدما قتل نفساً، فأرسله إليه، وأدخله قصره، ووعظه وأنذره، ثم هرب منه مرة أخرى، فلحقه بجيش عرمرم فنجّى موسى عليه السلام، وأغرق فرعون وجنوده.

﴿لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ نشّأ رسوله ﷺ في يتم، ليأوي إلى كنفه، وفي فقر ليطلب ما عنده، شكا إلى خديجة حاله، فماتت بعد زمن قليل، ونصره عمه أبو طالب، فهلك، انتصر في بدر فقتل أصحابه في أحد، حاز الغنائم فنزل ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أحب عائشة، فرميت في عرضها فبرأها الله[(*)] وتعلق بابنه إبراهيم، فقبضت روحه[(٢)] سبقت ناقته أسرع الإبل فسبقها أعرابي على

---

(١) كما ثبت في صحيح مسلم (٣ / ١٤٠٢) (٨١ / ١٧٧٧) كتاب الجهاد والسير، باب: غزوة حنين عن سلمة بن الأكوع في حديث طويل أوله: «**غزونا مع رسول الله ﷺ حُنينا** ... (ومحل شاهد المصنف) **قوله: «... فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم استقبل به وجوههم. فقال: «شاهت الوجوه». فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً، بتلك القبضة .... الحديث».**

(*) حديث الإفك، ثابت ومعروف في الصحيحين وغيرهما.

(٢) وحديث وفاة إبراهيم، أخرجه البخاري (٣ / ١٧٢، ١٧٣٢) (١٣٠٣) كتاب الجنائز. باب: قول النبي ﷺ: «**إنا بك لمحزونون**». ومسلم (٤ / ١٨٠٧، ١٨٠٨) (٢٣١٥) كتاب الفضائل. باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال، وتواضعه، وفضل ذلك. كلاهما عن أنس أوله: «**دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سفيان...**». وأول المرفوع: «**يا ابن عوف إنها رحمة ...**». وهذا لفظ البخاري. وأول المرفوع عند مسلم: «**ولد لي الليلة غلام....**».

قعود له [١]، أشرق جبينه فشج في أحد [٢]، وتلألأت أسنانه فكسرت رباعيته[٣].

ألهم سبحانه النحلة أكلها ومسكنها، وذهابها وإيابها، وعرَّف النملة جيش سليمان عليه السلام فحذّرت وأنذرت، وسلَّط البعوضة على النمرود، فنفذت إلى دماغه فمات، وأجرى كيفية بعث الأموات على حمار لمن شك في القدرة، وعلَّم الهدهد توحيده، فأنكر على بلقيس وقومها شركهم، وتحدّى أعداءه بخلق ذباب أو إرجاع ما سلبه منهم ﴿**وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾.

في كل شيء له آية، أنبت حدائق ذات بهجة، وفضّل بعضها على بعض في الأُكُل، وباين بين أذواقها وألوانها وأشكالها، وطولها وقصرها.

الماء واحد والتربة واحدة والثمرة حلوة، أو حامضة، والزهرة حمراء وبيضاء وصفراء وخضراء ﴿**فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾.

---

(١) القصة وردت في صحيح البخاري (الفتح ٦ / ٧٣) (٢٨٧٢)، في كتاب الجهاد. باب: ناقة النبيﷺ عن أنس قال: كان للنبيﷺ ناقة تسمى العَضباء لا تُسبق قال حميد - «الراوي عن أنس» - أولا تكاد تسبق - فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه. فقال: حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعة».

(٢) أحاديث ما أصاب النبيﷺ يوم أحد في الصحيحين. أما شج الجبين أخرجها مسلم (٣ / ١٤١٧) (١٠٥ / ١٧٩٢) كتاب الجهاد والسير. باب: عزوة أحد. عن شقيق عن عبدالله وفيها: «**فهو ينضح الدم عن جينه**».

(٣) وكسر رباعيتهﷺ في الصحيحين. أخرجه البخاري (٧ / ٣٧٢) (٤٠٧٣) كتاب المغازي، باب: ما أصاب النبيﷺ من الجراح يوم أحد. عن سهل بن سعد أوله: «**أما والله إني لأعرف....**» ومحل الشاهد قوله: «**وكسرت رباعيته يومئذ...**». وأخرجها مسلم (٣ / ١٤١٧) (١٠٤ / ١٧٩١) كتاب الجهاد والسير. باب: غزوة أحد عن أنس مرفوعاً: «**كيف يُفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته.... الحديث**».

العقول تحتار في معرفة أسرار أفعاله وفي إدراك مقاصد قدرته

حارت الأفكار في عجائب قدرته، واضطربت الأفهام من جلال عظمته، وذهلت الأذهانِ من بديع حكمتـه، ابتلى أولياءه بأعدائه، وامتحن محبيه بمحاربيه. أعطى قارون حتى ناءت العصبة بمفاتيح كنوزه، وأفقر موسى عليه السلام حتى أكل ورق الشجر، وصب المال على أمية بن خلف حتى عاش في الديباج والحرير، وجوَّع رسولهﷺ، حتى ربط الحجر على بطنه[1] هدى بلالاً رضى الله عنه وهو عبدٌ حبشي، وأضل أبا لهب وهو سيد قرشي.

أغوى فرعون وهدى زوجته، واجتبى لوطاً -عليه السلام- وأغوى زوجته، واصطفى إبراهيم -عليه السلام- وأشقى أباه، واجتبى نوحاً -عليه السلام- وغضب على ابنه: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ يرسل البرق حتى يخطف الأبصار، يجري السيل حتى يقتلع الأشجار، وينشئ الرعد حتى يجلجل في الخافقين، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، وينزل الغيث على من يشاء، ويصرفه عمن يشاء.

يعطي عدوه من الدنيا حتى لا يدري أين يضع المال، ويبتلي وليه بالفقر حتى ينطرح على الرمال ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾، شفع نوح عليه السلام

---

(١) كما جاء ذلك في صحيح البخاري (الفتح ٧ / ٣٩٥) (٤١) في كتاب المغازي. باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب عن جابر أوله: «**إنا يوم الخندق.... ثم قام وبطنه معصوب بحجر.. الحديث**». وأخرجه مسلم من طريق آخر عن جابر دون قصة كدية وعصب البطن. (/٣ ١٦١٠) (١٤١ / ٢٠٣٩) في كتاب الأشربة. باب: جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك، ويتحققه تحققاً تاماً، واستحباب الاجتماع على الطعام وأوله: «**لما حفر الخندق رأيت رسول الله ﷺ خمصاً....**».

لابنه فقال له: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. واستغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه فنهاه، وتوعد رسولهﷺ المشركين فقال:﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وقَبِلَ عذر المنافقين فقال له: ﴿لم أذنت لهم﴾ وصلى على عبدالله بن أبيّ فقال: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ وأراد أن يستغفر للمنافقين فقال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

وشُغِلَﷺ عن أعمى فنزل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾، حرص كل الحرص على إسلام عمه[1] فجاء: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾. وأراد أن يفاوض المشركين فأتى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾. وهمَّ أن يتألف المشركين بطرد المساكين من المسلمين فنزل ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ نهاه الله أن ينظر إلى أموال الكفار: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، ونهاه أن يتلفت إلى ثروات المنافقين فجاءه: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ﴾.

جاء بالتوحيد الخالص وقال له: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

أرسل عيسى عليه السلام ليوحد ربَّه فسأله: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

ذهب موسى عليه السلام ليكلم ربَّه فعبد بنو إسرائيل العجل بعده، وفر

---

(١) كما في الصحيحين. أخرجه البخاري (٣ / ٢٢٢) (٣٦٠) في كتاب الجنائز. باب: إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، ومسلم (٢ / ٥٤) (٣٩ / ٢٤) في كتاب الإيمان. باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت. ما لم يشرع في النزع ..... كلاهما عن سعيد بن المسيب عن أبيه واللفظ المرفوع: «**يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله**»: والحديث طويل واللفظ المذكور لهما.

يونس عليه السلام من قومه فوقع في بطن الحوت، وخرج أبو جهل ليقتل الرسولﷺ(١) فطُرح جيفة في القليب.

يُجري الماء في بقاع حتى تفيض على الجبال، ويسلط القحط على بقاع حتى تعصر فيها الرمال، ويُقَدر البرد على جهات حتى تصبح الأرض من الزمهرير جليداً، ويقدر الحر على جهات حتى تقذف الأرض منه لهباً شديداً.

اقرأ القدرة في الشمس الساطعة، والنجوم اللامعة، تجدها في الخمائل والجداول، في الحقول والسنابل، في الساقية والغدير، في الماء النمير، في الضياء والسناء، في الهواء والظلماء، في الورقة واليرقة.

أول كلمة إلى المعصوم اقرأ، والكون كتاب ، والكائنات حروف، والقدرة أقلام، والقارئ أمي، وعنوان الدرس: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾.

سبحان من دلَّ على نفسه بنفسه، سأل الصحابة رضوان الله عليهم عنه: أقريب فيناجى، أم بعيدٌ فينادى، فنزل: ﴿ قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾.

أطعم، وأسقى، وأهدى، وأسدى، وكفى، وآوى، وقال: ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾.

(١) جاء في صحيح البخاري (الفتح ٨ / ٧٢٤) (٤٩٥٨) في كتاب التفسير. باب: «كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية، ناصية كاذبة خاطئة». عن ابن عباس: دون ذكر القصة ولكن الجزء المرفوع: «**لو فعله لأخذته الملائكة**». أما مسلم أخرج القصة (٤ / ٢١٥٤) (٣٨ / ٢٧٩٧) في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم. باب: قوله «إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى». عن أبي هريرة وذكر ذهاب أبي جهل إلى وطء عنقه ﷺ والجزء المرفوع: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً**».

ابتلى، وامتحن، وأفقر، وأمرض، وأجاع، وأظمأ، وقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾.

التعريف: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾.

الوصف: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

والعلو: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾.

والشأن: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

خطط أعداؤه ودبّروا، وأعدوا فقال: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾.

تشاوروا واحتالوا وتهيئوا فقال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾.

نهجوا في الكيد، وألحوا في الدهاء، وأصروا على المراوغة، فقال: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾. تعجبوا من المؤمنين، وضحكوا من الصالحين، وسخروا فأنزل: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾. فتلوا حبال الفتنة، ونسّقوا خيوط المحنة، ونسجوا برد الوقيعة، فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾. لمزوا وغمزوا واستهزأوا، فقال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾.

الملك الحق يدل العباد بحكمته وتمام قدرته على عظيم ربوبيته وتمام ألوهيته

﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾. أدخل امرأة النار في هرة[١]، وأحبط عمل عابد بكلمة، وأهلك أمَّة في ناقة، وأمر بقطع يد السارقة في ربع دينار[٢]، وغفر لقاتل مئة نفس[٣]، وعرض التوبة على أهل التثليث فقال: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾. وأدخل الشهيد وقاتله في الجنة[٤].

فَرَجُه قريب ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾، ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ يهوي السيف إلي العنق، فيأتي الله بالفرج،

(١) كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٥ / ٤١) (٢٣٦٥) كتاب المساقاة، باب: فضل سقى الماء. ومسلم (٤ / ١٣٦٠) (١٥١ / ٢٢٤٢) كتاب السلام، باب: تحريم قتل الهرة. عن ابن عمر مرفوعاً: «**عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً، فدخلت فيها النار... الحديث**» وهذا لفظ البخاري.

(٢) كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ١٢ / ٩٦) (٦٧٨٩) في كتاب الحدود، باب قول الله تعالى: ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**﴾ وفي كم تقطع؟ ومسلم (٣ / ١٣١٢) (١ / ١٦٨٤) في كتاب الحدود. باب حد السرقة ونصابها. كلاهما عن عائشة مرفوعاً: «**تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً**» واللفظ للبخاري.

(٣) كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٦ / ٥١٢) (٣٤٧٠) كتاب أحاديث الأنبياء ومسلم (٤ / ٢١١٨) (٤٦ / ٢٧٦٦) في كتاب التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله كلاهما عن أبي سعيد الخدري في حديث طويل أوله: «**كان فيمن كان قبلكم رجل ....**».

(٤) كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٦ / ٣٩) (٢٨٢٦) في كتاب الجهاد، باب: الكافر يقتل المسلم، ثم يُسلم فيسدد بعد ويُقتل. ومسلم (٣ / ١٥٠٤) (١٢٨ / ١٨٩٠) في كتاب الإمارة. باب: بيات الرجلين يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً: «**يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيُقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيُستشهد**». واللفظ للبخاري.

تتقطع النفس أسفاً، ويمتلئ الصدر كرباً، فيأتي الله بالفرج، تَغْزُر الدموع في المحاجر، وتبلغ القلوب الحناجر، فيأتي الله بالفَرَج، يعترض الطفل في بطن الحامل، وتعضل الدجاجة بالبيضة، وتكترب الناقة العشراء، فيأتي الله بالفرج، تتلوَّى البطون من الجوع، وتضرم الأكباد من الظمأ، ووتتلمّظ النفوس من الألم، فيأتي الله بالفرج، يكاد الموج يقلب السفينة، وتكاد الريح تنسف البيوت، ويكاد البرق يخطف الأبصار، ثم يأتي الله بالفرج.

يشكو الدائن غَلَبَة دينه، والغريب وحشة غربته، والمُصاب صدمة مصيبته، ثم يأتي الله بالفرج.

«**دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب**»[(١)]، وأنّات التائبين تصعد إليه فيقول: ﴿**لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ**﴾، ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾، ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ يرحم ويعذب، ويرضى ويغضب، ويحب ويسخط، ويضحك ويعجب، ويكره وينتقم، ويرى ويسمع، ويحيي ويميت، ويخلق ويرزق، ويولي ويخلع، ويبتلي ويعافي، ويهدي ويضلّ، ويقبض ويبسط، ويعطي ويمنع[(*)].

لا يشغله شأن عن شأن، لا تأخذه سنة ولا نوم، لا يمسه لغوب، يطعِم ولا يُطعم، لا تختلف عليه اللغات، ولا تزدحم عنده اللهجات، وهو الذي تصمد

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٣ / ٣٥٧) (١٤٩٦) في كتاب الزكاة. باب: أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا. ومسلم (١ / ٥٠) (٢٩ / ١٩) في كتاب الإيمان ـ باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام. كلاهما عن ابن عباس مرفوعاً: «**واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**»! واللفظ للبخاري. ومسلم: «بينها» بدل «بينه».

(*) كل ما ذكره المصنف هنا من صفات جاءت بتقريره الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة ويتفق مع أصول أهل السنة والجماعة.

إليه الكائنات، بالجمال متفرد، وبالكمال متصف، لا شريك له، ولا نديد، ولا كفوا، ولا ضديد.

وُضِعَ الخليل إبراهيم في المنجنيق فقال له جبريل: ألك إليَّ حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فنعم. فلما أرسل إلى النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً[1].

ولما قال المرجفون للرسول ﷺ وللصحابة في أحد: إن المشركين قد جمعوا لكم. قالوا: ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ**﴾.

دعاه نوح عليه السلام لينجيه فأركبه في السفينة، لأن هلاك قومه عن طريق الغرق.

وقال فرعون: هذه الأنهار تجري من تحتي، فأجرى الله البحار من فوقه. تَبجَّح قوم فرعون بالسِّحر، فأعطى الله موسى عليه السلام العصا، فإذا هي تلقف ما يأفكون.

وفاق قوم عيسى عليه السلام في الطب، فأبرأ الأكمه والأبرص، وأحيا الموتى بإذن الواحد الأحد.

---

(١) جاء ذلك في صحيح البخاري (٨ / ٢٢٩) (٤٥٦٣) في كتاب التفسير. باب: ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم..**﴾ الآية. عن ابن عباس قال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**» قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: «**إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**». ولفظ آخر (٤٥٦٤): «كان آخر قول إبراهيم حين أُلقي في النار.. «**حسبي الله ونعم الوكيل**».

مـزّق كسـرى خطاب الرسـولﷺ فـقـال المعـصـوم: «**اللهـم مـزّق مـلكه**»(١) فعدى عليه ابنه فذبحه على فراشه.

سبحان من قال لأوليائه في جنته: ﴿**ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ**﴾، وقال لأعدائه في ناره: ﴿**اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**﴾.

لا ينـام ولا ينبـغـي لـه أن ينـام، يخـفـض القسـط ويرفـعـه، حـجـابـه النـور، لو كـشـفـه لأحـرقت سبـحـات وجـهـه مـا انتهـى إليـه بصـره، يمينه مـلأى سحّاء الليل والنهـار، لم يغض مـا أنفقـه مما في يمينه مـن يوم خلق السمـوات والأرض، له مقـاليد السمـوات والأرض، نواصي العباد بيده، وملك الملوك في قبضته، جعل من الشجر الأخضـر ناراً، وأوجد من الأحـجار جـواهرا، وأسـال من رؤوس الجبال أنهـارا، تفـجرت من خشيته الأحـجار بالأنهـار، وتشـقـقت من مهابته الصخور بالعيون الغزار، وهبطت من عظمته الجلاميد إلى قاع البحار، تجلّى للجبل فـانْهَـار دكاً، وخر موسى عليه السـلام صعـقاً، أطّت السمـاء من ازدحام الملائكة المسبحين بحمده، فسبحان الواحد القهّار.

«**يضع الجبار قدمه في النار فتقول قط قط**»(٢)

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٨ / ١٢٦) (٤٤٢٤) في كتاب المغازي. باب: كتاب النبيﷺ إلى كسرى وقيصر. عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبدالله بن حذافة السهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه ـ فحسبت أن ابن المسيب قال: ـ فدعا عليهم رسول الله ـ ﷺ «**أن يمزقوا كل ممزق**». واللفظ الذي ذكره المصنف ذكره ابن حجر وجعلها من رواية عبدالله بن حذافة.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٨ / ٥٩٤) (٤٨٤٨) في كتاب التفسير، باب: «وتقول هل من مزيد». ومسلم (٤ / ٢١٨٧) (٣٧ / ٢٨٤٨) في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها. باب: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء. كلاهما عن أنس مرفوعاً: «**يلقى في النار، وتقول: هل من مزيد؟، حتى يضع قدمه فتقول: قَطْ قَطْ**». وراجع ترجمان السنة (٦٢) كتاب الإيمان.

(يطوي السموات بيمينه، والأراضين بشماله، ثم يقول لمن الملك اليوم؟ لمن الملك اليوم؟ لمن الملك اليوم؟ فيجيب نفسه بنفسه: لله الواحد القهّار[١] أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟)».

من اعتز به عز، بلا عيال، واغتنى بلا مال، وانتصر بلا أعوان. خلق الخلق، بلا حاجة إليهم، لم يتَقوَّ بهم من ضعف، ولم يغن بهم من فقر، ولم يعتز بهم من ذلَّة. هو الغني وهم الفقراء، وهو القوي وهم الضعفاء، كتب لنفسه البقاء، وكتب عليهم الفناء، لا تنفعه طاعة الخليقة، ولا تضره معصيتهم، يقول: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رَجُلٍ واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً**»[٢].

«**يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**» [٣].

لا تنفد خزائنه، ولا تنتهي كنوزه، ولا يوصف جوده، ولا تستهلك كثرة الحاجات ما عنده، يقول: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**» [٤]، ذلك لأنه واجد ماجد غني

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٤/ ٢١٤٨) (٢٧٨٨) في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم. باب: كتاب صفة القيامة والجنة والنار. عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «**يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى. ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله. ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون**».

(٢)(٣)(٤) حديث صحيح: تقدم تخريجه ص٢٢.

كريم، أمر الخلق أن يسألوه، وأوجب عليهم أن يدعوه، لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا عيب أن يستره، ولا عطاء أن يسديه، ولا خير أن يجريه.

يكافئ على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بها فلم يعملها كتب له بها حسنة كاملة، ويجازي على السيئة بمثلها إلا أن يعفو[(١)]، ومن هم بها ولم يعملها كتب له بها حسنة[(٢)]، ويُوفي الصابرين أجرهم بغير حساب، من تصدق من كسب طيب قبلها منه سبحانه بيمينه، ورباها له كما يربي العبد فلوه، حتى تصبح كجبل أحد[(٣)].

جاء أعرابي بناقة مخطومة، قال: خذها يا رسول الله في سبيل الله. فقال له: «**لك عند الله يوم القيامة سبعئمة ناقة مخطومة**»[(٤)].

---

(١) كما جاء ذلك في صحيح مسلم (١ / ١١٧) (٢٠٤ / ١٢٨) في كتاب الإيمان، باب: إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب. عن أبي هريرة مرفوعاً: قال الله عز وجل: «**إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة، فإن علمها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف. وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة**».

(٢) كما جاء ذلك في صحيح مسلم (١ / ١١٨) (٢٠٥ / ١٢٩) في كتاب الإيمان. باب: إذا هم العبد بحسنة.... عن أبي هريرة مرفوعاً: «**قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة (وهو أبصر به) فقال: ارقُبُوه. فإن عملها فاكتبوها له بمثلها. وإن تركها فاكتبوها له حسنة. إنما تركها من جَرَّاي**». قوله: من جَرَّاي: أي من «أجلي».

(٣) كما ثبت ذلك عند البخاري (الفتح ٣ / ٢٧٨) (١٤١٠) في كتاب الزكاة ـ باب: «لا يقبل الله صدقة من غلول...» ومسلم (٢ / ٧٠٢) (٦٣ / ١٠١٤) في كتاب الزكاة. باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً. «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب. ولا يقبل الله إلا الطيب. فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل**». وهذا لفظ البخاري.

(٤) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٣ / ١٥٠٥) (١٣٢ / ١٨٩٢) في كتاب الإمارة. باب: فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها. عن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجل بناقة مخطومة. فقال: هذه في سبيل الله فقال رسول الله ﷺ: «**لك بها يوم القيامة سبعمئة ناقة كلها مخطومة**».

جهز عثمان ـ رضي الله عنه جيش تبوك فقال له: «**ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم**»(١).

هو جميل سبحانه يفعل الجميل، ويحب الجميل، ويكافئ على الجميل، يقولﷺ لأهل بدر: «**إن الله اطّلع عليكم فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»(٢) داوم أحد الصحابة على قراءة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في الصلاة، فقالﷺ: «**أخبروه أن الله يحبه**»(٣).

ولما تفنن أبو بكر -رضي الله عنه- في فعل الخيرات، ونوع في كسب

---

(١) حديث حسن: أخرجه الترمذي (٥ / ٦٢٦) (٣٧٠) في كتاب المناقب. باب: في مناقب عثمان بن عفان عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمره عن عبدالرحمن بن سمره: «جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار ـ ثم قال: قال عبدالرحمن فرأيت النبي ص يقلبها في حجره ويقول: **ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم مرتين**». وعن أحمد في المسند (٥ / ٦٣): عن كثير مولى عبدالرحمن عن عبد الرحمن قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة قال فصبّها...... الحديث» قال الشيخ الألباني: إسناده حسن. المشكاة (٦٠٦٤).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٧ / ٣٠٥) (٣٩٨٣) في كتاب المغازي، باب: فضل من شهد بدراً، ومسلم (٤ / ١٩٤١) (١٦١ / ٢٤٩٤) في كتاب فضائل الصحابة. باب: من فضائل أهل بدر. عن علي مرفوعاً أوله «**بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد والزبير...**» والحديث طويل وهو في قصة حاطب، ومحل الشاهد قوله مرفوعاً: «**لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ـ أو فقد غفرت لكم ....**».

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١٣ / ٣٤٧) (٧٣٧٥) في كتاب التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى. ومسلم (١ / ٥٥٧) (٢٦٣ / ٨١٣) في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها. باب: فضل قراءة قل هو الله أحد كلاهما عن عائشة: «**أن رسول اللهﷺ بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بقل هو الله أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه. فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: أخبروه أن الله يحبه**». وهذا لفظ البخاري ومسلم. راجع شرح المصنف في الترجمان (٦٩) فضائل القرآن.

الحسنات، كان الجزاء عند ربه أن يدعوه من أبواب الجنة الثمانية[١] وقال له: ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾.

جعل أرواح شهداء أحد في حواصل طير خضر ترد الجنة، فتشرب من أنهارها، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش[٢] ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾.

(١) كما جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٦ / ٤٨) (٢٨٤١) في كتاب الجهاد. باب: فضل النفقة في سبيل الله. ومسلم (٢ / ٧١٢) (٨٥ /٨٦ / ١٠٢٨) في كتاب الزكاة. باب: من جمع الصدقة وأعمال البر عن أبي هريرة أوله مرفوعاً. « **من انفق زوجين في سبيل الله ...** » الحديث ذكره البخارى مختصراً ولفظ المصنف عند مسلم في إحدى الروايتين في الأبواب ولفظه: «**قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله ما على أحد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة. فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: رسول الله ﷺ: نعم، وأرجو أن تكون منهم**».

(٢) جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم (٣ / ١٥٠٢، ١٥٠٣) (١٢١ / ١٨٨٧) في كتاب الإمارة. باب: بيان أن أرواح الشهداء في الجنة. وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون. عن عبدالله بن مسعود مرفوعاً وأوله: «**أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة........ الحديث**».
وهذا شاهد المصنف ويأتي كاملاً إن شاء الله.

أوصافهُ الجميلة وأفعاله الجليلة تدعو الخليقة لعبوديته وتنادي البريَّة لطاعته

لما اكتسى إبراهيم الخليل عليه السلام بلباس التوحيد؛ كان أول من يكسى يوم القيامة على رؤوس الخلائق(١)، ولما خَرَّ موسى عليه السلام صعقاً من خشيته؛ كان أول من يفيق إذا صعق الناس يوم الحشر(٢).

استتر عمر بلباس التقوى فرآهﷺ يجرُ قميصه في المنام(٣)، ولما تفقه الفاروق في

(١) جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٦ / ٣٨٦) (٣٣٤٩) في كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]. وراجع أطرافه. ومسلم (٤ / ٢١٩٤، ٢١٩٥) حديث (٥٨ / ٢٨٦٠) في كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها. باب: فناء الدنيا، وبيان الحشر يوم القيامة. كلاهما عن ابن عباس مرفوعاً: « **يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً. ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾** [الأنبياء: ١٠٤]، **ألا وإن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام.... الحديث**». وهذا لفظ مسلم والبخاري فيه بعض الاختصار.

(٢) كما جاء ذلك في صحيح البخاري (الفتح٦ / ٤٤١) (٣٤٠٧) في كتاب أحاديث الأنبياء. باب: وفاة موسى، وذكره بعد. ومسلم (٤ / ١٨٤٤) (١٥٩، ١٦٠ / ٢٣٧٣) كتاب الفضائل. باب (من فضائل موسى عليه السلام). كلاهما عن أبي هريرة ضمن قصة ومحل الشاهد المرفوع قوله: «**لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق، أو كان ممن استثنى الله**». واللفظ للبخاري ومسلم مثله بزيادة «**فأفاق قبلي**».

(٣) جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٧ / ٤٣) (٣٦٩١) في كتاب فضائل الصحابة. باب: مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي - رضي الله عنه -. ومسلم (٤ / ١٨٥٩)(١٥ / ٢٣٩٠) كتاب فضائل الصحابة. باب: من فضائل عمر - رضي الله تعالى عنه وكلاهما عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «**بينا أنا نائم رأيت الناس عرضوا علي وعليهم قمص، فمنها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك، وعرض عليَّ عمر وعليه قميص اجتره. قالوا: فما أوّلته يا رسول الله؟ قال: الدين**». وهذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم «**يعرضون**» «**يجره**». «**ماذا أولت ذلك يا ...**»؟.

ميراث النبوة أعطاه ﷺ فضل اللبن في الرؤيا(١)، كل ذلك من كرم المولى، وحسن مكافأته، وجميل عائدته، وسعة جوده، وعظيم بره، وتميز لطفه، وعلو قدره، وعموم خيره، كلما قَرُبت من أحد أمنته إلا الله، فكلما تعرفت على أسمائه وصفاته وأفعاله خفته، وكلما تعلمت كلامه وأيامه هبته، وكلما أمعنت في آياته ومخلوقاته خشيته ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

حقق إبراهيم عليه السلام التوحيد ثم خاف وقال: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

يقول للأنبياء يوم القيامة: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ فلخوف المشهد يقولون: ﴿لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ كل نبي يقول من شدة الهول نفسي نفسي إلا صاحب الشفاعة ﷺ(٢).

ولما قُرئ عليه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾. ذرفت عيناه ﷺ(٣).

---

(١) ورد ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (٧ / ٤٠ ، ٤١) (٣٦٨١) ومسلم (٤/ ١٨٥٩، ١٨٦٠) (١٦ / ٢٣٩١).. أنظر الكتاب والباب في المصدر السابق. كلاهما عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «**بينا أنا نائم شربت - يعني - اللبن - حتى أنظر إلى الرِّي يجري في ظفري، أو في أظفاري - ثم ناولت عمر» قالوا: يا رسول الله فما أولته؟ قال: العلم**». وهذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم فيه زيادة.

(٢) كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٦ / ٣٧١) (٣٣٤٠) في كتاب الأنبياء - باب: قول الله عز وجل «ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه». ومسلم (١ / ٨٤) (٣٢٧ / ١٩٤) في كتاب الإيمان. باب: أدنى أهل الجنة منزلة، كلاهما عن أبي هريرة أوله مرفوعاً: «**أنا سيد الناس يوم القيامة ... الحديث**». وهو طويل ويعرف بحديث الشفاعة.

(٣) كما جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٩ / ٩٤) (٥٠٥٠) في كتاب فضائل القرآن. باب: قول المقرئ للقارئ: حسبك ومسلم (١ / ٥٥١) (٢٤٧ / ٨٠٠) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب: فضل استماع القرآن، وطلب القراءة من حافظ للاستماع، والبكاء عند القراءة والتدبر. كلاهما عن عبدالله بن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ: «**اقرأ عليَّ**»، **قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك، وعليك أنزل؟! قال «نعم». فقرأت سورة النساء حتى أتيت على هذه الآية** ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. **قال: «حسبك الآن». فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان**. راجع شرح المصنف في الترجمان (٤٥) فضائل القرآن .

من خشيته سبحانه تكاد السموات يتفطرن من فوقهن، يقول جل اسمه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾. وقال عن عظم فرية من نسب إليه الولد: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾.

شكره على النعم نعمة أخرى، وسؤاله من فضله مرتبة عظمى، كلما سُئل رضي، ومن لا يسأله يغضب عليه، يستحيي أن يرد السائل صفرا، لا شيء أكرم عليه من الدعاء، أمر به ووعد بالإجابة، عطاؤه إحسان، ومنعه لطف، واختياره للعبد خير من اختيار العبد لنفسه، كل قضائه رحمة، وكل آثاره جميلة، شكر نعمته عباده، والاستغفار من معصيته قُربة، والصبر على أحكامه طاعة، يأخذ الأسماع والأبصار، ويقلب الليل والنهار، ويطبع على القلوب ويقطع الدابر، ويحق الحق، ويبطل الباطل، ويمحو ما يشاء ويثبت، ويبني ويحكم وينسخ.

ليس لسنته تبديل، وليس لعادته تحويل، لا يُغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، من شكره زاده، ومن توكل عليه كفاه، ومن اتّقاه جعل له مخرجاً.

يبسط الرزق، ويضاعف القرض، ويسمع من يشاء، ويبعث من في القبور، ويحي الأرض بعد موتها، ما فرط في الكتاب من شيء، ولا تغيب عنه غائبة، ولا تخفى عليه ذرة، ولا يعجزه مطلب، من يشأ يُضلله، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم، دعوته عامة إلى دار السلام، وهدايته خاصة لمن أناب إليه، يهدي السبيل، ويكفر السيئات، ويتقبل الحسن، ويجبر الكسر، ويصلح الفاسد، ويستر الخلل.

يأخذ بالبأساء والضرَّاء، يبتلي بالشدة والرخاء، يغير النعمة والنقمة، يقدر العطية والبلية، يفتح أبواب كل شيء، لأن عنده مفاتيح الغيب، يعلم كل مكنون، ويحيط بكل حاضر وغائب.

يفصِّل الآيات، يقيم الحجة، يوضح المحجة، يرسل الرسل، وينزل الملائكة، يصطفي من الملائكة ومن الناس رسلاً، يميز الخبيث من الطيب.

بره عظيم، أخذه أليم، يأتي عذابه بغتة أوجهرة، يأخذ القرى بياتاً أو نهاراً، يرسل المرسلين مبشرين ومنذرين، ينزل الكتاب بالحق والميزان، أنزل الحديد فيه بأس شديد، ينزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة، يقص أحسن القصص، يقسم المعيشة، يرفع بعض الناس على بعض وهو على كل شيء قدير، خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، والظل والحرور، والموت والحياة، ليس من دونه ولي ولا شفيع، وليس له صاحبة ولا ولد، ولا مثيل ولا شبيه، ولا ند ولا وكيل، فتن بعضهم ببعض، وسلط بعضهم على بعض، وفضل بعضهم على بعض، كتب على نفسه الرحمة، وكتب على أعدائه الدائرة، ووعد أولياءه الجنة.

إن الحكم إلا لله، وما الصبر إلا بالله، وما التوكل إلا على الله، وما الحب إلا في الله، وما الهداية إلا من الله.

يقص الحق وهو خير الفاصلين، ويبدع الخلق وهو أحسن الخالقين، ويعدل في الحكم وهو أحكم الحاكمين، ويلطف بالخلق وهو أرحم الراحمين،الله خير حافظاً وأعظم سنداً، وأكبر ولياً، وأعز نصيراً﴿ **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾.

هو أعلم بالظالمين، وهو من وراء الكائدين، وهو ملك يوم الدين.

يتوفى الأنفس بالليل، ويعلم ما جرحت بالنهار، منه المبدأ وإليه المعاد، عليه التوكل وإليه الإنابة، يُرد إليه علم الساعة، وترجع إليه الخليقة، ويقصده البشر.

هو القاهر فوق عباده، المهيمن على خلقه، المستوي على عرشه، القاهر لأعدائه، الناصر لأوليائه.

ما يفتح من رحمةٍ فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، من يهدي فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له، من يكرم فلا مهين له، ومن يهن فلا مكرم له.

لبيه حقاً حقاً، ولا إله إلا هو صدقاً صدقاً، وتبارك ما أعظمه خلقاً ورزقاً.

هو الولي الحق، ورب الخلق، وصاحب الأمر، بيده الملك، وإليه المآب، وإليه المشتكى، وبه المستغاث، وعليه التكلان.

هو أسرع الحاسبين، وأكرم المعطين، وإله الأولين والآخرين.

ينجي من ظلمات البر والبحر، ويلطف من شدة البرد والحر، ويُنادى إذا اشتد الأمر، لأنه رفيع القدر، قوي القهر، منه النفع والضر.

يُدعى تضرعاً وخفية، ويُذكر تمسكناً وخيفة، وينادى سراً وجهراً، ويطلب ليلاً ونهاراً.

قادر على بعث العذاب من فوق الرؤوس، ومن تحت الأرجل، إذا شاء خسف ومسخ، وكبت وأذل وأهان، وختم وطبع، وأعمى وأصم، وأخزى وأفقر،

لا إله إلا هو، يُلبس من شاء شيعاً، ويمزق من شاء كل ممزق، ويدمر من أراد تدميراً، وينسف الجبال نسفاً، ويسجر البحار تسجيراً، ويكور الشمس تكويراً، ويكدر النجوم تكديراً، يشق السماء، ويبدل الأرض غير الأرض، ويبعث من في القبور، ويحصل ما في الصدور، ويعطل العشار، ويحشر الوجود، ويزوج النفوس﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

يُنجي من كل كرب، ويفرج من كل هم، ويكشف كل سوء، يجيب المضطر، وينجد المستغيث، وينقذ الملهوف، وهداه هو الهدى، لا أحسن منه صبغة، ولا أصدق منه قيلاً، ولا حديثاً، ولا أحكم منه حكماً، ولا أهدى منه سبيلاً.

إليه عاقبة الأمور، وإليه يُرد علم الساعة، ومنه يُطلب الخير كله، قوله الحق، وكلامه الصدق، وفعله المتقن، وصنعه الأحسن، وأمره النافذ، وقضاؤه المبرم، وحكمه العدل، ولقاؤه الفصل.

له الملك، وله الحمد، وله الثناء الحسن، في السماء ملكه، وفي الأرض سلطانه، وفي الجنة رحمته، وفي النار سطوته، وفي البحر عظمته وفي الكائنات حكمته.

حكيم خبير، علي كبير، بارئ مصور، جبار متكبر، ملك قدوس، مهيمن قوي، عزيز حكيم، غفور رحيم، علي عظيم، ملك كريم.

الكائنات علامات على قدرة رب الأرض والسموات

فطر السموات والأرض، وفلق الحب والنوى، وأخرج الحي من الميت، والميت من الحي، وفلق الإصباح، وجعل الليل سكناً، والشمس والقمر حسباناً، أنشأ الخليقة من نفس واحدة، وبدأ خلق الإنسان من طين، وركبه من نطفة وأبدع الكون بكلمة ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾.

جعل الشمس سراجاً، والقمر نوراً، والنجوم هداية، والليل لباساً، والنهار معاشاً، والسماء سقفاً محفوظاً، والأرض قراراً، والجبال أوتاداً، والماء حياة، جعل البحر أمواجاً، وأنزل من المعصرات ماءً ثجاجاً، وأنشأ الخليقة قروناً وأفواجاً. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

أنزل من السماء ماءً، وأخرج من الأرض نباتاً، وجعل منه حباً متراكباً، وأنشأ زيتوناً ونخلاً، وحدائق غلباً، وفاكهة وأباً، وعنباً وقضباً. ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾.

كسى العظام لحماً، واللحم جلوداً، وألبس البهائم صوفاً ووبراً، حمى العيون بالحواجب، والآذان بالصماخ، وخلق الإنسان في أحسن تقويم. جعل له عينين، ولساناً وشفتين، وهداه النجدين. ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.

خلق الماء حياةً، وأهلك به قوم نوح عليه السلام، وأوجد النار منفعة، وأحرق بها أعداءه، وكوّنَ البحر رزقاً، وأغرق فيه فرعون وجنوده، وأرسل الرياح لواقح، ودمر بها عاداً. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾.

يحب المدح جل في علاه(١)، ويستحق الثناء لا نعبد إلا إياه، من مدحه فإنما زكّى نفسه، وشرف ذاته، أكرم مكانته، ومن أثنى عليه فإنما اعترف بالجميل، وأقر بالإحسان، وقام بأقل الواجب.

تبّاً لمن مدح البشر وغفل عن مدح مولاه، وسحقاً لمن أثنى على الناس وترك الثناء على خالقه.

الاعتراف بألوهيته احترام للعقل، وموافقة للفطرة، واتساق مع الناموس، واتباع للمنهج، وإكرام للمصير، وإنقاذ للروح، وإسعاد للمثوى، وتصديق للنقل، واتباع للمعصوم.

لو كانت الأشجار أقلاماً، والبحار مداداً، والسموات ألواحاً، والخلائق يُملون الثناء، ويكتبون المديح، لكانوا فيما يستحقه مقصرين وفيما يجب له منقطعين، وبالعجز عن القيام بشكره معترفين. ذلك بأن كل نعمة جلت أو دقت، كبرت أو صغرت، ظهرت أو خفيت، فهي منه سبحانه لا إله إلا هو.

ترنيمات التسبيح بحمده تيجان على رؤوس المسبحين، وزجل التهليل أوسمة خلود على جباه الموحدين.

أثنى على نفسه؛ فإذا مدح الشعراء في غيره زيف.

ومدح ذاته؛ فإذا مقامات الإطراء في سواه هراء.

---

(١) كما جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (١٣ / ٣٩٩) (٧٤١٦) في كتاب التوحيد. باب: قول النبيﷺ لا شخص أغير من الله، ومسلم (٢ / ١١٣٦) (٧٧ / ١٤٩٩) في كتاب اللعان؛ كلاهما عن المغيرة مرفوعاً «.... **ولا أحد أحب إليه العذر من الله ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المِدحَة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة**» وهذا جزء من حديث، واللفظ للبخاري.

أين إلياذات التبجيل، حتى تُنظم في علاه؟! أين ملاحم التقديس حتى تسطر في حمده؟! أين الخطب الغراء، والقصائد العصماء لتلقى في بساط وحدانيته؟!.

أف لمن كتب ولم يجعل رضاه مطلباً، وتباً لمن أنشد ولم يجعل شكره مقصداً.

يا حسرة على العيون إذا لم تدمع من خشيته، وعلى القلوب إذا لم توجل من عظمته.

يحار العقل في خلق الإنسان كيف خلقه وسواه وعدله؟! في أي صورة ما شاء ركبه؟! أسمعه وبصره؟! وأنطقه وعلمه؟! أحياه وأماته؟! أنامه وأيقظه؟! عافاه وأمرضه؟! أشبعه وأجاعه؟! أسقاه وأظماه؟! أغناه وأفقره؟! هداه وأضله، أسعده وأشقاه؟! أفرحه وأحزنه؟! أعطاه ومنعه؟! لا إله إلا هو.

عَالَم النبات: آية من الآيات، نجم وباسق، حلو وحامض، صنوان وغير صنوان، أحمر وأخضر، أبيض وأسود، لين وقاسٍ، أجرد وشائك، طويل وقصير، مثمر وغير مثمر، حار وبارد ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾.

عالَم الحيوان: دليل على عظمة الرحمن، منها من يمشي على بطنه، وعلى رجلين، وعلى أربع، طائر وزاحف، أليف ومتوحش، مسالم ومحارب، بحري وبري، ذو خف وظفر، وذو ريش وجناح، وذو وبر وصوف ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾.

حكم الزمان والمكان، خلق الإنسان والحيوان، داول الليالي والأيام، غاير بين القرون والأعوام، سقى بكأس الموت أرباب النعيم، أذاق طعم الهلاك الهرم والفطيم، أشاب النواصي، أخذ الراتعين في المعاصي.

كم من مترفٍ في عهد ربيع، وفي أمن وديع، طرقه بالدمار في الأسحار، وزلزله بالنقمة في بغتة.

ملأ الدور حبوراً، والصدور سروراً، ثم ملأ أجفانها عبرات، وأذاقها ويلات.

أعطى الحدائق زخرفها، والبساتين زينتها، ثم جعلها هشيماً تذروه الرياح.

أخرج المرعى، ثم جعله غثاءً أحوى، هو الأسمى والأعلى والأقوى.

الله: القوة القاهرة، والقدرة النافذة، والحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

حقِّق توحيده، وأخلِص عبادته، أقِم شرعه، تدَبَّر أسماءه وصفاته، اقرأ قدرته في مخلوقاته، انظر حكمته في آياته.

هل عرفته بآلائه؟ هل ذكرته بأوصافه وأسمائه؟ هل شكرته على نعمائه؟

هل حمدته على حسن بلائه؟.

الله: يهيج الموج على أهل السفينة فينادون: يا الله. يضل الأعرابي في الصحراء ويهتف: يا الله. تدور دائرة الحرب فيردد المجاهدون: يا الله. يتململ المريض على فراشه، فيصرخ: يا الله. يصيب الناس الجدب المهلك والقحط المتلف، فيستغيثون: يا الله.

ناداه أولياؤه في بدر فأنزل النصر، ودعوه في أحد: يا أحد يا صمد، يا من لم يلد ولم يولد، فأنزل المدد وأخزى من كفر وألحد.

دعوا في الأحزاب فأنزل الملائكة كالسحاب، واقتلع بالريح خيام المشركين والقباب[١].

أشار محمد بن واسع بسبابته يوم كابل فنصر المسلمين، وفتح على الموحدين، وأعز الدين، فكانت سبابته بقدرة مولاه أبلى من جيش.

ضاقت بسارية السبل فنادى عمرُ - رضي الله عنه - يا سارية الجبل، فأسمعه الله الصوت ونجاه من الموت[٢] ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

---

(١) قلت: وقد ثبت على لسانه ﷺ: أن الله نصر نبيه في غزوة الخندق بالريح. كما أخرج البخاري (٧ / ٣٩٩) (٤١٠٥) في كتاب المغازي. باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب. ومسلم (٢ / ٦١٧) (/١٧ ٩٠٠) في كتاب صلاة الاستسقاء. باب: في ريح الصبا والدبور. عن ابن عباس مرفوعاً: **«نُصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»**.

(٢) أخرجها أبو نعيم في الدلائل (٢ / ٥٧٩) (٥٢٦) من طريق ابن وهب أنا يحيى بن أيوب عن محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر: أن عمر بعث جيشاً، وأمر عليه رجلاً يدعى سارية، قال: فقام عمر يخطب الناس يوم الجمعة؟ فأقبل يصيح وهو على المنبر: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، فقدم رسول الجيش فسأله، فقال: يا أمير المؤمنين لقينا عدونا فهزمونا (فإذا صائح يصيح يا سارية الجبل، فاستندنا بأظهرنا إلى الجبل، فهزمهم الله، فقيل: إنك كنت تصيح بذلك. قال ابن حجر في الإصابة (٣١٢) ترجمة سارية وأخرجها البيهقي في الدلائل واللالكائي في شرح السنة والدير عاقولى في فوائده وابن الأعرابي في كرامات الأولياء من طريق ابن وهب عن يحيى بن أيوب عن ابن عجلان عن نافع عن ابن عمر القصة - ثم قال: وهكذا ذكره حرملة في جمعه لحديث ابن وهب وهو إسناد حسن. أ هـ. قلت: نقل كلامه كاملاً تلميذه السخاوي في المقاصد (ص٤٧٤ / رقم (١٣٣) وقال: وهو كما قال شيخنا إسناد حسن. أ هـ. وراجع القصة في تهذيب تاريخ دمشق (٦ / ٤٦)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢ / ٢٤٩) وابن الجوزي في مناقب عمر (ص١٧٢ - ١٧٣)، والسيوطي في تاريخ الخلفاء (ص ١٢٥).

دعاه صلاح الدين في حطين، فأنزل النصر المبين، وسحق أهل الصليب المارقين، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

برز خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ إلى الصعيد، فلقيه من الروم جيش عتيد، ذو بأس شديد، فدعى مولاه لا إله إلا إياه، ولا نعبد سواه فنصره، وهزم جيش الروم ودحره[١]، وأحق الحق وأظهره، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

في عين جالوت، كادت الرسالة تموت، فهتف قطز: واإسلاماه فهتفت الحناجر يا الله؛ فأعلى الله كلمته، ونصر دعوته، وهزم التتار، وأنزل عليهم صنوف الدمار، وللكافرين العار.

إذا جعت أطعمك، وإذا ظمئت أسقاك، وإذا مرضت شفاك، وإذا ابتلاك عافاك. ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ حقّق توحيده، خف وعيده، صدق أقواله، تدبر أفعاله، أكثر ذكره، أدم شكره ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

---

(١) ثبت بسند صحيح، ووقع ذلك في غزوة مؤتة وكان جيش المسلمين ثلاثة آلاف، والروم مئتي ألف، وقد تولى الراية على التوالي بأمر نبوي زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبدالله بن رواحة، ثم اصطلحوا على خالد بن الوليد بعد مقتل الثلاثة. قال خالد بن الوليد: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية». أخرجه البخاري (الفتح ٧ / ٥١٥) (٤٢٦٤). كتاب المغازي. باب: عزوة مؤتة من أرض الشام.

الآيات البينات والبراهين الواضحات توجب على النفوس محبته وتعظيمه

أقرب ما تكون منه إذا سجدت، أسعد ما تكون إذا أخلصت، أشرح ما تكون إذا ذكرت، أرجى ما تكون إذا دعوت ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أوجد الماء أجاجاً وعذباً، خلق النار منفعة وعذاباً، أجرى الريح رخاء ودماراً، أنزل الحديد نفعاً وبأساً ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

الله: إبداع وإتقان وعظمة وإحكام، حكمة ونظام ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. قائم على كل نفس بما كسبت، مطلع على كل خافية ولو صغرت، عليم بكل كائنة ولو دقّت ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾.

الله: نتق الجبل، فجر الحجر، ظلل الغمام، فلق البحر، أنزل الحديد، أرسل الرياح، أنشأ البرق، شق القمر، قدح النار في الشجر ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

أولٌ لا شيء قبله، آخر لا شيء بعده، ظاهر لا شيء فوقه، باطن لا شيء دونه، غني لا يعدم، قوي لا يضعف، يدعى في الملمات، يُنادى للمهمات، يطلب في الخطب، يُسأل للكرب، كاشف الغمرات، مفرج المشكلات، قريب النوال، مجيب السؤال ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾.

من حاربه خذله، ومن ناده أذله، ومن نازعه أخزاه، ومن نسيه أشقاه ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾.

من جاهد فيه هداه، ومن زاغ عنه أزاغ قلبه، من أتاه يمشي أتاه هرولة، من تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً[١].

من عادى له ولياً فقد بارزه بالمحاربة، وما تقرب إليه أحد بأحب مما افترضه، ولا يزال عبده يتقرب إليه بالنوافل حتى يحبه، فإذا أحبه كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، إذا سأله أعطاه، وإن استغاثه أغاثه [٢] ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ولا يضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يحذرون، ولا يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون، لا يأخذ الأمم حتى يقيم عليهم الحجة، ولا يبطش بالمعرضين حتى يبين لهم المحجة ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾.

---

(١) كما في الصحيحين. البخاري (الفتح ١٣ / ٥١٢) (٧٥٣٧) في كتاب التوحيد. باب: ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه. ومسلم (٤/٢٠٦١) (٣،٢ / ٢٦٧٥) في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب: الحث على ذكر الله تعالى. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً أوله: «**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبد بي....الحديث**»، ومحل شاهد المصنف: «**وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً ، تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة**». أخرجه مسلم مطولاً، وهذا لفظه، والبخاري مختصراً جداً. ولكن شاهد المصنف أخرجه البخاري (٧٥٣٦) عن أنس بلفظ مسلم المذكور باختلاف بعض الكلمات.

(٢) صحيح: كما في البخاري (الفتح ١١ / ٣٤٠ ، ٣٤١) (٦٥٠٢) كتاب الرقاق، باب: التواضع. عن أبي هريرة مرفوعاً : «**إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضه عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته**».

ما من شيء إلا يسبح بحمده، كل حي يصمد إليه، كل مؤمن يتوكل عليه، كل كبير متعالٍ حقير لديه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

تفقس البيضة فيخرج منها بقدرته طائر سميع بصير دليل على حكمة اللطيف الخبير، وورقة التوت تأكلها النحلة فتخرج عسلاً، والغزال فتخرج مسكاً، والدودة فتخرج حريراً.

تشرف الحية في الصحراء على الهلاك، وتكاد تتلف من الجوع، فتنصب نصف جسمها على الأرض يظنها الطائر عوداً فإذا هوى عليها التقمته ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

تدخر النملة قوتها في الصيف للشتاء فإذا خشيت أن تنبت كَسَرَتْها نصفين ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

نقل أهل السير أن حية عمياء كانت في رأس نخلة فكان يأتيها عصفور برزقها فإذا اقترب من فمها صفر فتفتح فاها فيضع فيه الطعام ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

نثر النجوم، أضاء الكواكب، بلج الفجر، أسدل الظلام، أجرى الماء، سيّر الهواء، محا آية الليل، وجعل آية النهار مبصرة.

في الصحراء نبات شائك لا يذبل وإن تأخر عنه الماء.

فى أغوار البحار أسماك تصلها هناك نسائم الهواء.

الحيوان في القطبين له لبد من الوبر تقيه شدة البرد.

حامض الثمر يُدافع بحموضته الحشرات.

النبات الشائك يذب بشوكه عن ثماره.

الثور يكافح عدوه بقرنيه، والصقر يفترس بأظفاره، لما صبر الجمل على الجوع والعطش، زوده خالقه بسنام ضخم يكتنز الشحم، لما ضعف الطائر عن جذب لقمته زوده بمنقار، ولما عجز العصفور عن الهرب علمه كيف يطير ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

غاير بين الحيوان: فمنهم من يذب عن نفسه بأسنانه أو بمخلبه ومنقاره، أو بقرنه أو بسمِّه، فإن ضعف عن هذا كله سهل له الإسراع، وقدره على الطيران، وعلمه الاختباء.

هو الذي دل الحمامة أن تنبي عشها، والحمرة أن تشيد وكرها، والعنكبوت أن تنسج بيتها، والنملة أن تهيء مسكنها، والضب أن يحفر جحره، والوحش أن يعمر كناسه، والأسد أن يبني عرينه ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾.

اذكر جلاله، تدبر كماله، شاهد أفعاله، اشكر أفضاله، أكثر سؤاله. ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

حي قيوم، قامت به السموات والأرض، وصلح به أمر الدنيا والآخرة، وأذعن له الرطب واليابس.

مقاليد الملك بيده، مقادير الأشياء عنده، مفاتيح الأمور لديه، مصير العباد إليه، جل اسمه، تقدَّس ذكره، سما قدره، عز شأنه، دام سلطانه.

العزة له جميعاً، الملك له كله، لا مانع لما أعطى، لا معطي لما منع، لا واضع لما رفع، لا رافع لما وضع، لا معز لمن أذل، لا مذل لمن أعز، لا مقدم لما أخّر، لا مؤخر لما قدَّم، لا ينفع ذا الجد منه الجد، له الحمد والمجد.

أولياؤه فائزون، عُبَّادُه مفلحون، جنده غالبون، رسله منصورون، أعداؤه مكبوتون.

المهدي من هداه، المكفي من كفاه، الفائز من تولاه، المخذول من عاداه ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾.

خَلْقُه حسن، صُنْعُه بديع، رحمته قريبة، شِرْعَته قويمة.

لمن تلهج الألسنة إذا لم تلهج بذكره، لمن تخفق القلوب إذا لم تخفق بشكره، لمن تعنو الوجوه إذا لم تَعنُ لوجهه، لمن تسجد الرؤوس إذا لم تسجد له.

لا تقل بالغت في أوصافه
فهو من قولك أعلى وأجل
هو مطلوب إذا طاغٍ عتا
وهو مقصود إذا خطب نزل

حاربه فرعون فغمس أنفه في الطين، عصاه قارون فخسف به والناس ينظرون، تطاول عليه النمرود ففجر دماغه فصار كالمجنون ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾.

كل أسمائه حسنى وكل صفاته عُليا وكل أفعاله حكمة وكل شريعته رحمة

والله يضرب الأمثال، يفصل الأقوال، يغيِّر الأحوال، وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال.

رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، مشرّف رسله بالتنزيل.

مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، مستغنٍ عن عباده، متفرِّد بربوبيته وألوهيته، واحد في أسمائه وصفاته وأفعاله، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، القول في صفاته كالقول في ذاته، والقول في بعضها كالقول في جملتها، تثبت بلا تشبيه، ولا تمثيل، وتقرأ بلا تأويل ولا تعطيل، تمر كما جاءت، الكيف مجهول، والإيمان بها واجب، وصرفها عن ظاهرها اعتداء، وتعطيلها جناية، لا يشبه المخلوق، ولا يشبهه المخلوق، صفاته كمال وجلال وجمال، لا نقص فيها ولا عيب، لا سنة ولا نوم، لا ضعف ولا فناء، لا زوال ولا انتهاء، لا حاجة ولا فقر (*) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

(*) هذه عقيدة أهل السنة والجماعة بلا خلاف بينهم (تعرض المصنف هنا لعدة مسائل وهي من أصول أهل السنة والجماعة. منها الاستواء على العرش، والفوقية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وإثبات الأسماء كما هي، والصفات كما هي (دون تشبيه) أو تمثيل. وقد فصل المؤلف في كتابه (ترجمان السنة) كتاب (الإيمان) باب: أسماء الله وصفاته عقيدة أهل السنة بالدليل الصحيح فراجعه فهو مهم.

لا تراه الأبصار في الدنيا(*) ويراه المؤمنون في الآخرة [1] كلم موسى عليه السلام تكليماً، واتخذ إبراهيم خليلاً، وفهم سليمان عليه السلام تفهيماً، وعلّم محمداً ﷺ تعليماً ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾.

تكلم بالقرآن، وعلّم البيان، إليه يصمد الثقلان ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

لا أصبر منه على الأذى، لا أغير منه على المحارم، لا أكرم منه في العطاء، لا أقوى منه في الأخذ، لا أرأف منه في الملك، لا أرحم منه بالخلق ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

تقدست ذاته، جلت صفاته، ظهرت آياته، شهدت بحكمته مخلوقاته.

سبغت نعمه، عم كرمه، سما قدراً، عظم قهراً ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

أول بلا ابتداء، آخر بلا انتهاء (**)، خالق بلا أعوان، متفرد عن الأنداد، منزه عن الأضداد.

(*) وهذه عقيد أهل السنة والجماعة بلا خلاف، وقد فصل المؤلف هذا باختصار مفيد، وبدليل سديد في كتابه الترجمان كتاب (الإيمان)، باب: رؤية المؤمنين ربهم في الجنة.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١١ / ٤٤٤ ، ٤٤٥) (٦٥٧٣) في كتاب الرقاق، باب: الصراط جسر جهنم ، ومسلم (١ / ١٦٣) (٢٩٩ / ١١٨٢) في كتاب الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية كلاهما عن أبي هريرة قال أناس يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «**هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك....**» الحديث طويل وما ذكر محل الشاهد». واللفظ للبخاري ومسلم وأخرجاه البخاري (٤٥٨١) ومسلم (٣٠٢ / ١٨٣) عن أبي سعيد الخدري وراجع مزيداً من الأدلة في الترجمان (٨٩) (٩٠) (٩١) كتاب الإيمان.

(**) معتقد أهل السنة والجماعة، انظر متن الطحاوية ص ١٩ بشرح وتعليق العلامة الألباني وله تعليق نفيس على هذه القاعدة فراجعه فهو مهم.

الكبرياء رداؤه، والعظمة إزاره[١]، حجابه النور، دعوته الحق، كلمته الصدق، إليه المعاد، عليه يتوكل العباد.

لا يشغله شأن عن شأن، لا تعجزه سؤالات الإنس والجان.

أغنى وأقنى، أضحك وأبكى، لم يخلق سدى، ولم يوجدهم عبثاً، ولم يخلق السموات والأرض لعباً.

هو الحق، وعده حق، جنته وناره حق، أنبياؤه حق، كتبه حق، محمد ﷺ حق ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾.

له أسلمنا به آمنا، عليه توكلنا، إليه أنبنا، فيه أحببنا وأبغضنا، به خاصمنا، وإليه حاكمنا ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

اهجر التعلق بسواه، لا تدع إلا إياه، لا تستغث بغيره، لا ترجُ إلا هو، لا تخف إلا منه ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

«إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»[٢] **«تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة»**[٢] ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

---

(١) كما جاء في الحديث القدسي الصحيح «المتفق عليه»، وسبق تخريجه ص١٧ .

(٢)(٣) جزء من حديث حسن: أخرجه الترمذي (٤ / ٦٦٧) (٢٥١٦) كتاب صفة القيامة، باب: ٥٩، وأحمد في مسنده (١ / ٢٩٣) ، وأبو يعلى في مسنده (٢٥٥٦) ثلاثتهم عن الليث بن سعد عن قيس به الحجاج عن حنش بن عبدالله الصنعاني عن ابن عباس مرفوعاً: **«ياغلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا ستعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك،**

=

توحيده أعظم سبب، ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب، مالنا دونه من ولي ولا شفيع، وليس لنا سواه حافظ ولا نصير ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ والذِينَ ءامَنُوا فَإِنَّ حِزبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ ﴾.

في القلوب حاجة ماسة ووله عجيب، وانكسار غريب، واحتراق مذهل لا يُطفئه إلا التأله والعبودية لله رب العالمين. ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

كل صفة مدح في المخلوق فالله أولى بها على أكمل وجه في هذه الصفة لأنه سبحانه الكامل في صفاته الجليل في أسمائه ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ يقول عليه الصلاة والسلام فيما صرح عنه **«إن لله تسعاً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»** (١) وفي حديث صحيح آخر يقولﷺ **«أسألك بكل اسم هو لك سميت**

= **رفعت الأقلام وجفت الصحف»**. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قلت: وإسناده حسن رجاله ثقات سوى قيس بن الحجاج صدوق، ونقل ابن رجب الحنبلي عن ابن مندة وغيره أن هذا الإسناد أصح الطرق. ثم نقل عن العقيلي كما في الضعفاء (٣ / ٥٤): إن أسانيد الحديث لينة، وبعضها أصلح من بعض. ثم قال ابن رجب: وبكل حال، فطريق حَنَش التي خرجها الترمذي حسنة جيدة. أ هـ جامع الأحكام تحت الحديث التاسع عشر. وراجع الترجمان (٩٤) الإيمان.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١١ / ٢١٤) (٦٤١٠) في كتاب الدعوات، باب: لله مئة اسم غير واحد ومسلم (٤ / ٢٠٦٢ ، ٢٠٦٣) (٦،٥ / ٢٦٧٧) في كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى، وفضل من أحصاها. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً وفيهما ثلاث روايات:

الأولى: **«لله تسعة وتسعون اسماً . مائة إلا واحد . لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر، يحب الوتر»** لفظ البخاري.

الثانية: **«لله تسعة وتسعون اسماً، من حفظها دخل الجنة، وإن الله وتر، يحب الوتر»**. وفي رواية ابن أبي عمر «شيخ مسلم»، «من أحصاها». ولفظ مسلم (٥).

الثالثة: **«إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً، ومن أحصاها دخل الجنة»**. وفي رواية زاد: **«إنه وتر، يحب الوتر»**. مسلم (٦) راجع الترجمان (٥٤) الإيمان.

به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء همي، وذهاب حزني»[١].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في مسنده (١ / ٣٩١ ، ٤٥٢)، وأبو يعلى في مسنده (٥٢٩٧)، والبزار (٣١٢٢) والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢)، وابن حبان في صحيحة (٩٧٢)، والحاكم (١ / ٥٠٩) كلهم من طريق فضيل بن مرزوق ثنا أبو سلمة الجهني عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن عبدالله مرفوعاً: «**ما أصاب أحداً قط هَمٌّ ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك ، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو انزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، ان تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي إلا أذهب الله همه وجزعه، وابدله مكانه فرجاً. قال: فقيل يا رسول الله الا نتعلمها. فقال: بلى، ينبغي لمن سمعها ان يتعلمها**» والحديث صححه العلامة الألباني في صحيحه (١٩٩) بعد بحث ماتع جداً جداً رداً على من ضعفه . فراجعه فهو مهم. وكذلك قد أجاد محقق مسند أبي يعلى ببحث نفيس. فراجعه.

الرحمن الرحيم يفتح باب الرحمة على مصراعيه ويدعو عباده بالإقبال إليه

سعة رحمته سبحانه؛ وعظيم لطفه؛ وجزيل كرمه؛ ووافر جوده وحلمه؛ قضية معلومة لكل ذي عقل؛ ولا أدل على ذلك من إمهال الله لأعدائه على كفرهم، فهو يغذوهم ويكسوهم ويكلؤهم بالليل والنهار، ويسهل لهم أغراضهم الدنيوية، وييسر لهم مطالبهم المعيشية، وأكثرهم محاربون له ولرسله، مكذبون لرسالاته وكتبه، معتدون على حرماته وحدوده.

وتأمل فعل النصارى في قولهم: إن الله ثالث ثلاثة. وبعدها دعاهم سبحانه إلى التوبة فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾؛ بل دعا المسرفين في الخطأ إلى المراجعة، ونهاهم عن القنوط، وأخبرهم أن الله يغفر الذنوب جميعاً، وهو يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها[1] ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وهو ينادي في الثلث الأخير من الليل: **«هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من تائب فأتوب عليه»**[2] ويقول: **«يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني إلا غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أتيني**

---

(١) كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم (٤ / ٢١١٣) (/٣١ ٢٧٥٩) في كتاب التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب، وإن تكررت الذنوب والتوبة عن أبي موسى: مرفوعاً: **«إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»**.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٣ / ٢٩) (١١٤٥) في كتاب التهجد. باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل وكرره (٦٣٢١) (٧٤٩٤)، ومسلم (١ / ٥٢١، ٥٢٢) (١٦٨: ١٧٢ / ٧٥٨) في كتاب صلاة المسافرين. باب: الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً: **«ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر=**

بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»(١) وغفر للمرأة البغي من بني إسرائيل لما سقت كلباً يهلث من شدة العطش(٢) وغفر لمن تاب بعدما قتل مئة نفس بغير حق(٣) وتجاوز عن رجل مسرف لأنه كان يتجاوز عن الناس في الدنيا في البيع والشراء(٤) وشكر لرجل وغفر؛ لأنه أزاح غصن شجرة عن طريق الناس (٥) وعفا عن رجل أتى بتسعة وتسعين

= يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟» واللفظ للبخاري، ومسلم.

(١) حديث صحيح: «وسبق تخريجه ص ١٨».

(٢) كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٦ / ٥١١) (٣٤٦٧) في كتاب: أحاديث الأنبياء. باب: ٥٤ مسلم (٤ / ١٧٦١) (١٥٤، ١٥٥ / ٢٢٤٥) في كتاب: السلام. باب: فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً: «**بينما كلب يُطيف بركية كاد يقتلة العطش، إذ رأته بَغِيٌ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها فسقته، فغفر لها به**» واللفظ للبخاري. والموق: الخف.

(٣) كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري: (الفتح (٦ / ٥١٢) (٣٤٧) في كتاب: أحاديث الأنبياء. باب: ٥٤ . ومسلم (/٤ ٢١١٨) (٤٦، ٤٧، ٤٨ / ٢٧٦٦) في كتاب: التوبة. باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، كلاهما عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «**كان في بني إسرائيل.... الحديث**» وهو طويل، وأوله هذا في البخاري أما مسلم «**كان فيمن كان قبلكم ....**».

(٤) كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٦ / ٥١٤)(٣٤٨١) في كتاب أحاديث الأنبياء. باب: ٥٤ . ومسلم (٣ / ١١٩٦) (٣١ / ١٥٦٢) في كتاب المساقاة. باب: فضل إنظار المعسر. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً: «**كان رجل يداين الناس، فكان يقول لفتاه: إن أتيت معسراً، فتجاوز عنه، لعل الله يتجاوز عنا قال: فلقي الله فتجاوز عنه**» واللفظ للبخاري ومسلم مثله دون «قال» وأخرجه مسلم (١٥٦١) عن أبي مسعود البدري مرفوعاً: «**حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء. إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسراً. فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر. قال: قال الله عزوجل: نحن أحق بذلك منه. تجاوزوا عنه**».

(٥) كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٢ / ١٣٩) (٦٥٢) كتاب الأذان. باب: فضل التهجير إلى الظهر ومسلم (٣ / ١٥٢١) (١٦٤ / ١٩١٤) في كتاب الإمارة. باب: بيان الشهداء. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً: «**بينما رجل يمشي بطريق وجد غُصن شوك على الطريق، فأخرَه فشكر الله له، فغفر له**». واللفظ لهما، وكرره البخاري (٢٤٧٢) «فأخذه» دون «فأخره» ولمسلم في رواية: «**مر رجلٌ بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأُنَحين**=

سجلاً مملوءة بالخطايا لأنه عادلها ببطاقة مكتوب فيها: لا إله إلا الله [(١)] وهو سبحانه أشد فرحاً بتوبة عبده من فرح صاحب الناقة التي ضلت منه عليها طعامه وشرابه وقد أيس منها ثم وجدها [(٢)] وهو القائل سبحانه: (**يا عبادي إنكم تذنبون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم**)[(٣)] ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

= **هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة**». مسلم (٤ / ٢٠٢١) (١٢٨ / ١٩١٤) كتاب: البر والصلة والأدب. باب: فضل إزالة الأذى عن الطريق.

(١) كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه الترمذي (٥ / ٢٤، ٢٥) (٢٦٣٩) في كتاب الإيمان. باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله وابن ماجه (٢ / ١٤٣٧) (٤٣٠٠) في كتاب الزهد. باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة. وأحمد في مسنده (٢ / ٢١٣)، والحاكم (١ / ٦، ٥٢٩)، وابن حبان في الموارد (٢٥٢٤) كلهم عن الليث بن سعد حدثني عامر بن يحيى عن أبي عبدالرحمن الحبلي قال: سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يارب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقول: احضر وزنك. فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء**». واللفظ للترمذي وقال: حسن غريب، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٣٥)، وراجع شرح الحديث في ترجمان السنة (٥٢) الإيمان.

(٢) كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (١١ / ١٠٢) (٦٣٠٩) في كتاب الدعوات. باب: التوبة، ومسلم (٤ / ٢١٠٤) (٢٧٤٧ ٨/،٧) في كتاب التوبة. باب: الحض على التوبة والفرح بها. كلاهما عن أنس مرفوعاً: «**الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة**» واللفظ مختصر للبخاري، والحديث أخرجه بطوله مسلم. وأخرجه البخاري بطوله (٦٣٠٨) عن ابن مسعود مرفوعاً.

(٣) حديث صحيح: وهو جزء من حديث أخرجه مسلم (٤ / ١٩٩٤، ١٩٩٥) (٥٥ / ٢٥٧٧) في كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، عن أبي ذر مرفوعاً: محل شاهد المصنف: «..... **يا عبادي: إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم .... الحديث**».

وأخبر سبحانه: أن رحمته وسعت كل شيء، وأنه واسع المغفرة، وأنه لا يتعاظمه شيء أن يغفره، وبين سبحانه أنه لا ييأس من روحه إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمته إلا القوم الخاسرون.

وذكرﷺ أن رجلاً أذنب ذنباً فقال: «**اللهم إني أذنبت ذنباً فاغفره لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم أذنب فقال مثل ذلك، ثم أذنب فقال مثل ذلك، فقال سبحانه: علم عبدي أن له رباً يأخذ بالذنب ويعفو عن الذنب، إني قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء**».(١) والمعنى ما دام أنه يستغفر كلما أذنب فإنه يغفر له.

وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أن الله أرحم بعبده من الوالدة بولدها(٢). وأنه سبحانه خلق الرحمة مئة جزء، أنزل جزءاً واحداً في الدنيا

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١٣ / ٤٦٦) (٧٥٠٧) في كتاب: التوحيد. باب: قول الله تعالى «يريدون أن يبدلوا كلام الله» ومسلم (٤ / ٢١١٢) (٢٩ / ٢٧٥٨) في كتاب التوبة: باب: قبول التوبة من الذنوب، وإن تكررت الذنوب والتوبة كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً: «**أن عبداً أصاب ذنباً ـ وربما قال: أذنب ذنباً ـ فقال: رب أذنبت ذنباً ـ وربما قال: أصبت ـ فاغفر، فقال ربه: أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي: ثم مكث ما شاء، ثم أصاب ذنباً ـ أو أذنب ذنباً ـ فقال: رب أذنبت أو أصبت ـ آخر فاغفره، فقال: أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً ـ وربما قال: أصاب ذنباً ـ فقال: ربِّ أصبت ـ أو أذنبت ـ آخر فاغفره لي، فقال: أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي ثلاثاً فليعمل ما شاء**».

(٢) كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ١٠ / ٤٢٦) (٥٩٩٩) في كتاب الأدب. باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ومسلم (٤ / ٢١٠٩) (٢٢ / ٢٧٥٤) في كتاب: التوبة. باب: في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه كلاهما عن عمر بن الخطاب قال: «**قدم على النبيﷺ سَبيٌ، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي، إذ وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا النبيﷺ: أترون هذه طارحة ولدها في النار؟. قلنا: لا. وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها**». واللفظ للبخاري، والجزء المرفوع مثل مسلم بالضبط.

وأبقى عنده تسعة وتسعين جزءاً ادخرها لعباده في الآخرة[(١)] وصح أن رحمته سبحانه سبقت غضبه[(٢)]، ولما أمر الرجل من بني إسرائيل أبناءه بإحراقه بعد موته وذكر أنه يخاف لقاء الله ويخشى ذنوبه غفر له [(٣)]، ووعد من فعل فاحشة أو ظلم نفسه ثم استغفره: بالمغفرة وجنات تجري من تحتها الأنهار وتبديل سيئات التائبين حسنات[(*)]، وورد أن الندم على فعل الخطيئة توبة [(٤)]، وأن

(١) كما جاء بذلك الحديث الصحيح وهو عند البخاري ومسلم ، وشاهد المصنف هنا، إحدى روايات مسلم (٤ / ٢١٠٨) (١٩ / ٢٧٥٢) في كتاب: التوبة. باب: في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه. عن أبي هريرة مرفوعاً: «**إن لله مئة رحمة. أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام. فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة. يرحم بها عباده يوم القيامة**».

(٢) في حديث صحيح عند البخاري ومسلم عن أبي هريرة تقدم تخريجه ص١٦ .

(٣) كما جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (٦ / ٥١٥) (٣٤٨١) في كتاب أحاديث الأنبياء. باب: ٥٤ وكرره (٧٥٠٦). مسلم (٤ / ٢١٠٩) (٢٥،٢٤ / ٢٧٥٦) في كتاب: التوبة. باب: في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً: «**كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فو الله لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً. فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض. فقال: اجمعي ما فيك منه ففعلت، فإذا هو قائم. فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك. فغفر له**». واللفظ للبخاري.

(*) لقوله تعالى ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ١٣٥]. وقوله: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [النساء: ١١٠].

(٤) كما جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه ابن ماجه (٢ / ١٤٢٠) (٤٢٥٢) في كتاب: الزهد. باب: ذكر التوبة، والحاكم في المستدرك (٤ / ٢٤٣) كلاهما عن عبدالله بن مسعود مرفوعاً: «**الندم توبة**». صححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٢)، وصحيح ابن ماجه (٣٤٢٩ / ٤٢٥٢) وراجع العلل لابن أبي حاتم (١٨١٦) (١٩١٨)، وسكت عنه ابن حجر في الفتح (١١ / ١٠٣).

الإسلام يهدم ما قبله،[1] بل أخبر أن من ظلم نفسه وأساء ثم استغفر الله غفر له(*).

وقال بعضهم: لو لم تكن التوبة أحب شيء إليه ما ابتلي بالذنب أحب الخلق عليه، يعني: آدم. وذكر سبحانه عن آدم بعد الخطيئة أن الله اجتباه وتاب عليه وهداه، وغفر لموسى خطيئته، ويونس بن متى مغاضبته.

فمن أعظم المنازل عنده سبحانه منزلة التائبين، وقد امتن الله بها على النبي والمهاجرين والأنصار، ومن رحمته بعباده أنه أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، وأقام لهم الحجة، وبين لهم المحجة، وأعذر لهم بالبلاغ، وأمهل عاصيهم حتى يتوب، وحلم عن ضالهم حتى ينيب، وانظر إلى قوم سبوه وشتموه وألحدوا في أسمائه وحاروا في صفاته، وعطلوا شريعته، وتعدوا حدوده وعصوا أمره، وارتكبوا نهيه، ومع ذلك خاطبهم بأرق خطاب، ووعد بالتوبة لمن تاب، وبشر بالمغفرة لمن أناب، بل يطعم من عصاه، ويجيب المضطر حتى ممن حاربه إذا ناداه: يا الله يا الله.

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي

جعلت الرجا ربي لعفوك سلما

تعاظمني ذنبي فلما قرنته

بعفوك ربي صار عفوك أعظما

(1) كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم (1 / 112) (192 / 121) في كتاب الإيمان. باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج. ضمن حديث طويل عن عمرو بن العاص مرفوعاً وشاهد المصنف قوله: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله**».

(*) لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 110].

فسبحان من عظم حلمه وجل كرمه، وما أوسع رحمته، وأحسن مغفرته وأكبر ستره ولطفه، فحقيق بالعبد أن يلتمس رضاه، ويسعى في فكاك رقبته من عذاب ربه بطاعته، وأن يبادر إلى التوبة النصوح كلما زل، وأن يكثر من الاستغفار والندم على ما فرط منه، وإبدال السيئة بالحسنة، وتجديد العودة إلى الله بصدق اللجأ، وإخلاص الإنابة، وتجريد التوكل، والطمع في فضله سبحانه، وحسن الظن به، ورجاء ما عنده، والله أعلم.

نعم الله تغمرنا وفضله ينهمر علينا وجودُه يصل إلينا

كثرة نعم الله عز وجل، وسعة فضله، وعظيم امتنانه على عباده، وتتابع أياديه على الخليقة، وكبير جوده على الناس، وعموم فضله على الكائنات.

إن على كل عبد أن يلمح نعم الله عز وجل، وهي تغمره من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله، نِعم تفوق العد، ولا يأتي عليها الحصر، ولا يقيدها الحساب، نعم تتدافع وتتواصل، وتتهمر صباح مساء، وفي كل وقت وآن، نعم يهبها المنعم الجزيل دون حاجة لهذا المخلوق، ودون خوف منه، أو رجاء فيه، بل تفضل وكرم وبر وإحسان وجود وامتنان، ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ ونعم الله عز وجل يجدها العبد في كل شيء يراه ويلمسه، ويسمعه، ويحسه ويذوقه ويشمه، في لسانه وبيانه وجنانه وأركانه، في عينيه وأذنيه، ويديه ورجليه، في بصره وسمعه ونطقه وفكره وفؤاده، ومعرفته ومواهبه، في قوته ومقدرته، وذكائه ونبوغه وإدراكه، في غذائه وكسائه، وشرابه ومركوبه، وسكنه وفراشه، في أهله وولده وزوجته وأقاربه وأصحابه، في يقظته ونومه، ووقوفه وقعوده، ومشيه وذهابه وغيابه، وعمله وصناعته ومهنته ومزاولته لكل شيء.

نعم الله في الماء والهواء، والغذاء والضياء، في المال والجمال والعيال، والحشم والخدم، والأحفاد والذرية، عين بصيرة، وأذن سميعة، وعقل مفكر، وقلب واع، ويد باطشة، ورِجْل ماشية، ولسان ناطق، وصورة حسنة، وتركيب

جميل، وتناسق في البنية، صوَّركم فأحسن صوركم، رأس قائم، ويد ممتدة، وساعد قوي، وجفن يرمش، وعين تتحرك، وأنف قائم، وأسنان مرصوصة، وشفتان لينتان، وأصابع بديعة الصنع، ماء في العينين مالح لغسلها من الأوساخ، ولعاب في الفم سائغ لتسهيل المضغ، وسائل مخاطي في الأنف لحبس الأدران، وصمغ لين في الأذن لحجب الداخل إليها. سبحان الخالق ملأ بطنك بالطعام ، ورئتك بالهواء، ورأسك بالمعرفة.

خلقك ورزقك، أحياك وأماتك، حباك وأعطاك، أمرضك وشفاك، أجاعك وأشبعك، أظمأك وسقاك، أضحكك وأبكاك، علمك ما لم تكن تعلم، وعرفك ما كنت تجهل، أقامك وأقعدك، أنامك وأيقظك، حسَّن خلقك، هيأ رزقك، سهل طريقك، أجاب دعاك ، لبى نداك، وأجاب مسألتك، قهر عدوك، أرسل لك رسولاً وعلمك كتاباً وهداك منهجاً، وبعد هذا تقول أين الله !!؟ بل أين أنت منه يا مسكين؟! أوجدك من العدم ثم شككت في وجوده!

وأعطاك بلا حق لك عنده ثم أنكرت حقوقه!

وحباك بلا معروف لك لديه ثم جحدت معروفه!

من مشاش رأسك إلى أخمص قدميك، قد غمرك إحسانه وجميله وعطاؤه ومعروفه وتفضله فهل شكرت؟ هل آمنت؟ وهل أطعت؟وهل عبدت؟

﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾.

وقد بيّن سبحانه وتعالى أن مابنا من نعمة فمنه وحده، قال جل في علاه: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ وذكر أنه هو الخالق الرازق المحيي المميت.

فنعم الله تترى على العبد منذ كان نطفة في بطن أمه، ثم صور سمعه وبصره ونفخ فيه الروح، ثم غذاه وسقاه وكساه وآواه وكفاه، ومن كل ما سأل أعطاه. والله يقول للعبد: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾. ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فانظر نعمه سبحانه وتعالى كيف صورك فأحسن صورتك، ومنحك العقل، ورزقك الفهم، وحذرك من الردى، وأرسل لك الرسول، وأنزل عليك الكتاب، وجعل في قلبك واعظاً، فإن سألت أعطاك، وإن دعوت أجابك، وإن استغفرت غفر لك، وإن استعنت به أعانك، فكل نعمة في قديم أو حديث جلت أو دقت، كبرت أو صغرت، ظهرت أو خفيت فهي من الله وحده ليس إلا. فإن العبد قد يستغني عن كل الناس قريبهم وبعيدهم، كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، ملكهم ومملوكهم، لكنه لا يستغني عن ربه وخالقه طرفة عين.

والناس إذا فعلوا بالعبد خيراً فإنما يفعلونه لمقابل، إما لثناء أو دعاء أو جلب منفعة أو دفع مضرة، لكنهم لا يفعلون بالعبد خيراً مهما قل بلا مقابل، فإن العبد شحيح مقتر محاسب شديد لحب الخير.

أما الله فإنه يعطي عباده عطاءً لا يخشى معه الفقر، لا يرجو نفع الناس ولا يخاف ضرهم؛ بل يعطي فضلاً منه وكرماً وجوداً ولطفاً، يعطي البر والفاجر، والمؤمن والكافر، والمحب والمبغض، فغناه مطلق، وجوده محقق، وقوله مصدق، وفضله عظيم، وخيره عميم، وعطاؤه جسيم، وهو العلي الحكيم.

والعجيب أن شكره على نعمه تعالى نعمة أخرى تستوجب شكراً، لأنه هو الموفق للشكر وحده، ثم إنه وعد بزيادة الشاكرين فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

حتى قال بعض العلماء: إن الأحياء ما أدوا شكر نعمة الماء، فكيف بالنعم التي هي ملء الأرض والسماء، فلو رزق العبد عمر نوح وكان له بكل شعرة لسان لما استطاع أن يحصي نعم الرحمن، ولذلك لما ذكر الله نعمه قرر الخليقة بها فقال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. لذلك قال بعض الحكماء لبعض الفقراء الذي شكوا البأساء: هل تريد في بصرك ألف ألف دينار؟ قال: لا. قال: هل تريد في سمعك ألف ألف دينار؟ قال: لا. فأخذ يعدد عليه أعضاءه ومواهب الله عليه، فلما انتهي قال له: فهل شكرت ربك على ذلك؟ فقال: لا. فقال: يا هذا عندك ديون محفوظة، وحقوق مثبتة، وأنت ما أديتها وتطلب الزيادة؟! وفي الحديث: **«يد الله ملآى سحاء الليل والنهار. أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يديه»**[1] ويقول سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ولذلك لا يعرف النعمة إلا من فقدها، فنعمة العافية منسية عند الصحيح، مذكورة عند المريض، ونعمة البصر مغفلة لدى المبصر؛ جليلة عند الأعمى، وهل هو سهل أن تعيش معافى مشافى مرزوقاً مكفيّاً، تشرب الماء وتستنشق الهواء تسير على قدميك، وتنظر بعينك وتسمع بأذنيك.

وقد ذكر أن أحد قادة الجيوش غرقت سفينته في البحر فبقي تحت الماء ثلاثة عشر يوماً، فلما خرج سألوه عن تجربته في هذه الأيام، فقال: لقد

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١٣ / ٣٩٣) (٧٤١١) في كتاب التوحيد. باب: قول الله تعالى: «لما خلقت بيدي». ومسلم (٢ / ٦٩١) (٣٦، ٣٧ / ٩٩٣) في كتاب: الزكاة. باب: الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً: **«يد الله ملآى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار. وقال: أرأيتم ما انفق منذ خلق الله السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يده»** واللفظ للبخاري، أما مسلم: « **يمين الله ملآى....**» وراجع شرح الحديث في ترجمان السنة (٦١) الإيمان.

أدركت أن الحياة خبز دافئ، وماء بارد، وكسوة للجسم، وقد قال بعض العارفين.

خبز وماء وظل
ذاك النعيم الأجل
كفرت نعمة ربي
إن قلت إني مقل

فلله الحمد أولاً وآخراً، باطناً وظاهراً، سراً وجهراً، ملء السموات والأرض وملء ما شاء ربنا من شيء بعد.

اللطيف الخبير يسهل علينا شرعه وييسر علينا دينه ويفيض علينا لطفه أينما اتجهنا وحيثما حللنا وأينما ارتحلنا

يسَّر الله عز وجل شريعته على عباده وجعلها سمحة، ونفى الحرج عنها، ووضع الآصار والأغلال عن الأمة رحمة بهم، وأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يحملها ما لا طاقة لها به، فضلاً منه وكرماً.

يُسر الشريعة من سماتها وواضح علاماتها، وأدل آياتها، فهي سهلة ميسرة لأنها من رؤوف رحيم، جاءت لسعادة الإنسان وأمنه وسكينته وطمأنينته، فلذلك كانت يسيرة جاءت لإنقاذه من الردى، ونجاته من الهلاك، وإبعاده من الدمار، وإخراجه من الظلام، وعتقه من رق الطاغوت؛ فلذلك كانت يسيرة.

جاءت لتنظيم حياته، وطهارة نفسه، وزكاة قلبه، ونقاء ضميره، وشرف أخلاقه، وسمو مقصده، وكرم طباعه، فلذلك كانت يسيرة، جاءت لحفظ روحه، وحماية دمه، وتهذيب سيرته، وبيان منهجه، وتوضيح سبيله، فلذلك كانت يسيرة، شريعة يسيرة في فهمها، فلا ألغاز ولا رموز ولا أحاجي ولا أغلوطات، ولا صعوبات ولا عسر، بل سماحة وسهولة، ويُسر ورحمة، ورأفة ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾.

شريعة لم تكلف العبد فوق طاقته، ولم تحمله فوق استطاعته، ولم تشق عليه، فلا عنت ولا التواء، ولا إجحاف ولا حرج، لأنها أتت قصداً لإدخال الرَّوْح والسعادة على العبد، والأمن والأمان والسكينة والاطمئنان، لأن من

صفاتها أنها تشرح الصدر، وتضع الوزر، وترفع الذكر، وتزيل الكدر، وتذهب الهم، وتزيح الغم، وتنفي الحزن، وتجلب السرور، وتستدعي الحبور، وتدخل النور، وتسهل الأمور.

شريعة أنزلها الله لإنقاذ البشرية من ورطة الأخطاء، ولعتق الإنسانية من عبودية الوثن، ولإصلاح العالم لتشرق شمس سعادته، ويطلع فجر فلاحه.

شريعة أنزلها لوضع الآصار والأغلال عن رقاب الخليقة، ولخلع القيود الثقيلة عن أعناق البرية، ولسلخ أودية الضلال عن عقول الأحرار، ولبعث الأرواح المدفونة تحت أنقاض الكفر، ولإزهاق الباطل العاصف بالأرواح العابث بالقيم، المدمر للإرادة، الفتاك بالأخلاق، ثم لقهر الشيطان وأعوانه وأحزابه، وأتباعه أهل الغواية، ورواد الخطيئة وصانعي الإجرام، وحملة الأفكار الشنيعة والخواطر الآثمة.

وقد دل الكتاب والسنة على هذا المفهوم. قال سبحانه معلماً عباده سؤال ذلك فقال: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

وقال: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

وقال: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾.

وقال: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾.

وقال: ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾.

وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

وقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾.

وقال: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

وفي الحديث: أن رجلاً أصابته شجة وقد أجنب، فسأل هل له من رخصة في ترك الغسل؟ فأفتاه بعضهم بعدم الجواز، فاغتسل فمات، فَأُخْبِرَ الرسولﷺ فقال: «**قتلوه قتلهم الله. ألا سألوا فإنما شفاء العي السؤال**»[(١)] ثم بين الحكم، وهذا من تسهيل الله لعباده على لسان رسولهﷺ لأحكام الدين.

ومثله إقرارهﷺ لعمرو بن العاص لما صلى بأصحابه في سفر وهو جنب بالتيمم وتأول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾. فضحكﷺ وأقره[(٢)] وقال: «**يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا**»[(٣)].

---

(١) الحديث حسن لغيره: باللفظ المذكور فقط دون أي زيادة، راجع ضعيف ابن ماجه للألباني (١٢٦ / ٥٧٢) أخرجه أبو داود (١ / ٢٤٠) (٣٣٧) في كتاب الطهارة. باب: الجنب يتيمم. وابن ماجه (١ / ١٨٩) (٥٧٢) في كتاب: الطهارة وسننها. باب: في التيمم ضربتين. عن جابر مرفوعاً: «**قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال**».

(٢) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (١ / ٢٣٨) (٣٣٢) في كتاب الطهارة. باب: إذا خاف الجنب البرد تيمم وأحمد في مسنده (٤ / ٢٠٣، ٢٠٤)، والدارقطني (١٧٨)، والحاكم (١ / ١٧٧). كلهم عن عمرو بن العاص وفيه القصة المذكورة وفيه قوله مرفوعاً: «**ياعمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فضحك رسول اللهﷺ ولم يقل شيئاً**». وصححه العلامة الألباني في الإرواء (١٥٤).

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١ / ١٦٣) (٦٩) في كتاب العلم. باب: ما كان النبيﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا. ومسلم (٣ / ١٣٥٨) (٨ / ١٧٣٤) في كتاب: الجهاد. باب: في الأمر بالتيسير وترك التنفير. كلاهما عن أنس مرفوعاً واللفظ المذكور للبخاري، وفي بعض الألفاظ عند مسلم «وسكنوا» بدل «بشروا».

وقال: «**قاربوا وسددوا واعلموا أنه لا ينجو أحد منكم بعمله**»، قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟ قال: «**حتى أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»(١).

وقال: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»(٢).

وقال: «**إن الدين يسر**»(٣).

وقال: «**عليكم هدياً قاصداً، فإنه من يغالب هذا الدين يغلبه**»(٤).

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١٠ / ١٢٧) (٥٦٧٣) في كتاب المرضى. باب: تمني المريض الموت. ومسلم (٤ / ٢١٧٠) (٧٦ / ٢٨١٦) في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ المصنف في آخره: «... **برحمة منه وفضل**» عند مسلم وعند البخاري «......... **الله بفضل ورحمة**».

(٢) الحديث حسن لغيره: أخرجه أحمد في مسنده (٥ / ٢٦٦) من حديث أبى أمامة مطولاً: «**إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة**» وفيه (٦ / ١١٦) عن عائشة مرفوعاً: «**ليعلم يهود أن من ديننا فسحة، إنى ارسلت بحنيفية سمحة**» وحسن إسنادها ابن حجر في التعليق (٢ / ٤٣)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٨٧) عن ابن عباس قال: سئل النبي ﷺ أي الأديان أحب إلى الله عز وجل؟ قال: «**الحنيفية السمحة**» وقد قال الحافظ العلائي فيما نقله عنه المناوي في فيض القدير (١ / ١٧٠): «له طرق لا ينزل عن درجة الحسن بانضمامها». وقال أيضاً ـ كما في الفيض (٣ / ٢٠٣): «له طرق ثلاث ليس يبعد أن لا ينزل بسببها عن درجة الحسن». وانظر الصحيحة للعلامة الألباني (١٨٨١): وقال في صحيح الأدب المفرد (٢٢٠ / ٢٨٧): حسن لغيره. أ هـ.

(٣) الحديث إسناده جيد: أخرجه أحمد (٥ / ٣٢ ، ٢٦٦)، قال صاحب كشف الخفا رقم (٦٥٨): رواه أحمد بإسناد جيد. أ هـ. وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (١ / ٩٤).

(٤) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٥ / ٣٥٠)، والحاكم (١ / ٣١٢)، والبيهقي (٣ / ١٨) والطحاوي في المشكل (٢ / ٨٦) والخطيب في تاريخ بغداد(٨ / ٩١) ، وابن أبي عاصم في السنة (٩٥). كلهم عن بريدة الأسلمي مرفوعاً. وصحح إسناده العلامة الألباني في ظلال الجنة (٩٥) (٩٦) (٩٧). وراجع الصحيحة (١٧٠٩) (١٧٦٠).

وصح أنه ﷺ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً[١].

ولما طول معاذ ـ رضي الله عنه ـ الصلاة بقومه قال: «**أفتان أنت يا معاذ. ثلاثاً. من أمَّ منكم بالناس فليخفف فإن فيهم الكبير والضعيف والمريض وذا الحاجة**»[٢].

وأنكر على الثلاثة الذين شددوا على أنفسهم بترك الزواج، وقيام الليل كله، وسرد الصيام، فقال: «**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[٣].

---

(١) كما جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٦ / ٥٦٦) (٣٥٦٠) في كتاب المناقب. باب: صفة النبي ﷺ ومسلم (٤ / ١٨١٣) (٧٧ / ٢٣٢٧) في كتاب: الفضائل، باب: مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله، وانتقامه لله عند انتهاك حرماته. كلاهما عن عائشة قالت: ما خُير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه ، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها». واللفظ للبخاري، ومسلم «منه» بدل «عنه» و«حرمه الله عز وجل».

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٢ / ٣٠٠) (٧٠٥) في كتاب الأذان. باب: من شكا إمامه إذا طول. ومسلم (١ / ٣٣٩) (١٧٨: ١٨١ / ٤٦٥) في كتاب الصلاة ـ باب: القراءة في العشاء. كلاهما عن جابر مرفوعاً: «**يا معاذ، أفتان أنت ـ أو أفاتن ـ (ثلاث مرات)، فلولا صليت بسبح اسم ربك والشمس وضحاها والليل إذا يغشى، فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة**». واللفظ للبخاري. وأخرج البخاري (٧٠٤) ومسلم (/١٨٢ ٤٦٦) عن أبي مسعود الأنصاري مرفوعاً. «**يا أيها الناس؟ إن منكم منفرين، فمن أم الناس فليتجوز، فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة**». واللفظ للبخاري وما ذكره المصنف بالمعنى.

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٩ / ١٠٤) (٥٠٦٣) في كتاب: النكاح. باب: الترغيب في النكاح، ومسلم (٢ / ١٠٢٠) (٥ / ١٤٠) في كتاب النكاح. باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم. كلاهما عن أنس مرفوعاً: «....، **فقال: انتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»... واللفظ للبخاري.

ولما أنكر عمر - رضي الله عنه - على الحبشة لعبهم بالحراب في مسجدهﷺ قال: «**دعهم يا عمر**»[1]، وقال: «**ليعلموا أن في ديننا فسحة**»[2]، وقال: «**لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً**»[3]. وقال: «**إني أدخل في الصلاة فأريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي**»[4].

وأفطرﷺ في رمضان في سفره[5].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٦ / ١٩٢) (٢٩٠) في كتاب الجهاد. باب: اللهو بالحراب ونحوها. ومسلم (٢ / ٦١٠) (٢٢ / ٨٩٣) في كتاب صلاة العيدين. باب: الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد. كلاهما عن أبي هريرة قال: «**بينا الحبشة يلعبون عند النبيﷺ بحرابهم، دخل عمر فأهوى إلى الحصى فحصبهم بها. فقال: دعهم يا عمر**». واللفظ لهما.

(٢) حديث حسن: أخرجه أحمد (٦ / ١١٦) وحسن إسناده ابن حجر في التعليق (٢ / ٣٢) وهو جزء من حديث سبق تخريجه ص ٩٩ «**بعثت بالحنيفية السمحة**» فراجعه.

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١٢ / ١٨٧) (٦٨٦٢). كتاب الديات. باب: قول الله تعالى: ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم**﴾. عن ابن عمر مرفوعاً فذكر بلفظه.

(٤) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٢ / ٢٠٢) (٧٠٩ / ٧١٠) في كتاب الأذان. باب: من أخف الصلاة عند بكاء الصبي ومسلم (١ / ٣٤٣) (١٩١، ١٩٢ / ٤٧٠) كتاب الصلاة. باب: أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام كلاهما عن أنس مرفوعاً: «**إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فاتجوَّز في صلاتي، مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه**». واللفظ للبخاري.

(٥) أخرج ذلك البخاري (الفتح ٤ / ١٨٦ ، ١٨٧) (١٩٤٨) في كتاب الصوم. باب: من أفطر في السفر ليراه الناس. وكرره بألفاظ متقاربة (١٩٤٤) (٢٩٥٣) (٤٢٧٥) (٤٢٧٦) (٤٢٧٧) (٤٢٧٨) (٤٢٩٥) ومسلم (٢ / ٧٨٥) (٨٨ / ١١٣) في كتاب الصيام. باب: جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية إذا كان سفره مرحلتين فأكثر وأن الأفضل لمن أطاقه بلا ضرر أن يصوم ولمن يشق عليه أن يفطر. كلاهما عن ابن عباس قال: «خرج رسول اللهﷺ من المدينة إلى مكة فصام حتى بلغ عسفان، ثم دعا بماء فرفعه إلى يده ليراه الناس فأفطر حتى قدم مكة، وذلك في رمضان ، فكان ابن عباس يقول: قد صام رسول اللهﷺ وأفطر ، فمن شاء صام، ومن شاء أفطر». واللفظ للبخاري، وعند مسلم التصريح بأن شربه كان نهاراً، بلفظ متقارب.

وقصر الصلاة الرباعية[(١)]، وجمع بين صلاتي الظهر والعصر والمغرب والعشاء في السفر [(٢)].

وقال: «**هلك المتنطعون والمتفيقهون والمتشدقون**» [(٣)].

ونهى عن لعن شارب الخمر بعدما أقام عليه الحد[(٤)]، ولم يعنف على من جامع أهله في رمضان؛ بل أفتاه فحسب[(٥)].

---

(١) أخرج ذلك مسلم في صحيحه (١ / ٤٧٩) (٥ ، ٦ / ٦٨٧) في كتاب صلاة المسافر وقصرها. باب: صلاة المسافرين وقصرها عن ابن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة.

(٢) ثبت ذلك في صحيح مسلم (١ / ٤٩٠) (٥١ / ٧٠٥) في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها. باب: الجمع بين الصلاة في الحضر عن سعيد بن جبير ثنا ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جمع بين الصلاة في سفر سافرها، في غزوة تبوك فجمع بين الظهر والعصر. والمغرب والعشاء. قال سعيد: فقلت لابن عباس: ما حمله على ذلك؟ قال: أراد أن لا يحرج أمته. وفي رواية (٤٩): عن ابن عباس: قال: صلى رسول الله ﷺ الظهر والعصر جميعاً. والمغرب والعشاء جميعاً. في غير خوفٍ ولا سفر.

(٣) كما أخرج ذلك الترمذي (٤ / ٣٧٠) (٢٠١٨) في صحيحه كتاب البر والصلة. باب: ما جاء في معالي الأخلاق عن جابر مرفوعاً: «**إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون**». قال أبو عيسى : وفي الباب عن أبي هريرة. وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. قلت: «وهلك المتنطعون» أخرجها مسلم (٤/ ٢٠٥٥) (٢٦٧٠) في كتاب العلم، باب: هلك المتنطعون. عن عبدالله ـ قلت: أي ابن مسعود ـ مرفوعاً «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً.

(٤) كما ثبت بذلك الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ١٢ / ٧٥) (٦٧٨٠) في كتاب: الحدود. باب: ما يكره من لعن شارب الخمر، وأنه ليس بخارج من الملة. عن عمر بن الخطاب: «أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبدالله، وكان يُلقب حماراً، وكان يضحك رسول الله ﷺ وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يوماً فأمر به فجلد. فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به. فقال النبي ﷺ : «**لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله**».

(٥) جاء ذلك في صحيح البخاري (الفتح ٤ / ١٦٣) (١٩٣٦) في كتاب الصوم. باب: إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر. ومسلم (٢ / ٧٨١) (٨١ / ١١١١) في كتاب الصيام. باب: تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم كلاهما عن أبي هريرة =

وقال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»(١) «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف. وما لا يعطي على ما سواه»(٢).

وذكر أن خطبة الرجل يوم الجمعة وقصرها مئنة من فقهه(٣). وأنكر على

= قال: «بينما نحن جلوس عند النبيﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكت. قال: ما لك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم. فقال رسول اللهﷺ هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا . قال فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين قال: لا. قال : فهل تجد إطعام ستين مسكيناً؟ قال: لا. قال : فمكث النبيﷺ ، فبينا نحن على ذلك أتى النبيﷺ بعرق فيها تمر. والعرق المكتل . قال: أين السائل؟ فقال: أنا. قال: خذ هذا فتصدق به. فقال الرجل: على أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله مابين لابتيها . يريد الحرتين. أهل بيت أفقر من أهل بيتى. فضحك النبيﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال: أطعمه أهلك». واللفظ للبخاري. قلت: وذكرت الحديث بطوله لعظمه وفوائده الجمة للعالم والمتعلم، والمفتي والمستفتي فالحديث تجسيد لمفهوم الدين الحقيقي من قبل معلم البشريةﷺ فافهمه.

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٤ / ٢٠٠٤) (٧٨ / ٢٥٩٤) في كتاب البر والصلة والآداب. باب: فضل الرفق عن عائشة مرفوعاً باللفظ المذكور.

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٤ / ٢٠٠٤) (٧٧ / ٢٥٩٣)، عن عائشة مرفوعاً: «يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق. ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف. وما لا يُعطي على ما سواه».

(٣) جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم (٢ / ٥٩٤) (٤٧ / ٩٦٩) في كتاب الجمعة. باب: تخفيف الصلاة والخطبة عن أبي وائل قال: خطبنا عمار فأوجز وأبلغ. فلما نزل قلنا: يا أبا اليقظان، لقد أبلغت وأوجزت. فلو كنت تنفست. فقال: إنى سمعت رسول اللهﷺ يقول: «إن طول صلاة الرجل، وقصر خطبته، مئنة من فقهه، فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة، وإن من البيان سحراً».

المَئِنَّة: العلامة أي علامة دالة على فقهه. ترتيب القاموس (٤ / ١٩٨). ومعنى قوله تنفست أي: أطلت.

عبدالله بن عمرو بن العاص إرهاق نفسه بالعبادة[١] وتقريره لسلمان الفارسي«صدق سلمان» وقوله لأبي ذر: «**إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه**»[٢] ونهى عن الوصال[٣]، وعن قيام الليل كله، وختم القرآن كل يوم[*] وزجر من قيام في الشمس، ونهى عن الصمت إلى الليل[٤].

(١) ورد في هذا أحاديث كثيرة عند البخاري في مواضع متفرقة وهي: كتاب الصوم. باب صوم الدهر، وباب حق الضيف في الصوم، وباب: حق الجسم في الصوم، وباب حق الأهل في الصوم ، وباب: صوم يوم وإفطار يوم، وباب: صوم داود، وكتاب: التهجد، باب: من نام عند السحر، وباب: ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه. وكتاب الأنبياء. باب: قول الله تعالى «وآتينا داود زبوراً» وكتاب فضائل القرآن: باب: في كم يقرأ القرآن وفي النكاح: باب: إن لزوجك عليك حقاً، ومسلم (٢ / ٨١٢ : ٨١٨) (١٨١ : ١٩٣ / ١١٥٩) في كتاب الصيام. باب: النهى عن صوم الدهر..... إلخ وراجع مجمل الروايات في رياض الصالحين (١٥٠) باب الاقتصاد في الطاعة. وأول اللفظ المرفوع: «أنت الذي تقول ذلك».

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٤ / ٢٠٩) (١٩٦٨) كتاب الصوم. باب: من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له. عن أبي جُحيفة وذكر قصة سلمان مع أبي الدرداء عندما رأي سلمان - رضي الله عنه - أمّ الدرداء متبذلة فسألها ما شأنك قالت أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا وذكر فيها قول سلمان كما ذكره المصنف ..... وفي آخره مرفوعاً: «**صدق سلمان**».

(٣) الأثر صحيح: والأحاديث فيه كثيرة منها ما: أخرجه البخاري (الفتح ٤ / ٢٠٢) (٩٦١) في كتاب الصوم. باب: الوصال. ومسلم (٢ / ٧٧٤) (٥٥، ٥٦ / ١١٠٢) في كتاب الصيام. باب: النهي عن الوصال في الصوم. كلاهما عن ابن عمر : أن النبيﷺ نهى عن الوصال. قالوا: إنك تواصل. قال: «**إني لست مثلكم إني أطعم وأسقى**». واللفظ لهما ومسلم «**كهيئتكم**» بدل «**مثلكم**».

(*) راجع روايات حديث ابن عمرو هامش رقم (١) ص١٠٤ .

(٤) جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح /١١ ٥٨٦) (٦٧٠٤) في كتاب الأيمان والنذور. باب: النذر فيما لا يملك وفي معصية. عن ابن عباس قال: بينا النبيﷺ يخطب إذا هو برجل قائم. فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبيﷺ: «**مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه**».

وسن التيمم عند فقد الماء، أو العذر من استعماله، ورخص في المسح على الخفين رحمة بالأمة[١]، وقد ثبت أن الرسولﷺ بال واقفاً في سباطة قوم[٢] وشرب من زمزم قائماً للحاجة[٣] وهذا من اليسر.

وكان يقول: «**وإياكم والغلو**»[٤].

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: نهينا عن التكلف[٥].

ومن التيسير الذي أنزله في هذه الشريعة تسهيل أمر التوبة على من أذنب.

---

(١) وأحاديث التيمم والمسح على الخفين ثابتة في الصحيحين وغيرهما وهي مشهورة، وهي من عقيدة أهل السنة والجماعة المتفق عليها خلافاً لبعض الطوائف المبتدعة الذين ينكرون المسح على الخفين.

(٢) جاء ذلك في صحيح البخاري (الفتح ١ / ٣٢٨) (٢٢٤) في كتاب الوضوء. باب: البول قائماً وقاعداً. ومسلم (١ / ٢٢٨) (٧٣، ٧٤ / ٢٧٣) كتاب الطهارة. باب: المسح على الخفين كلاهما عن حذيفة قال: «أتى النبيﷺ سُباطة قوم فبال قائماً، ثم دعا بماءٍ، فجئته بماء فتوضأ» واللفظ للبخاري.

(٣) كما ثبت في صحيح البخاري (الفتح ٣ / ٤٩٢) (١٦٣٧) في كتاب الحج. باب: ما جاء في زمزم. ومسلم (٣ / ١٦٠) (١١٧: ١٢٠ / ٢٠٢٧) في كتاب الأشربة. باب: في الشرب من زمزم قائماً. كلاهما عن ابن عباس قال: (سقيت رسول اللهﷺ من زمزم فشرب وهو قائم). واللفظ لهما.

(٤) حديث صحيح: أخرجه النسائي في الكبرى (٢ / ٤٣٥) (٤٠٦٣) في كتاب الحج. باب: التقاط الحصى وابن ماجه (٢ / ١٠٠٨) (٣٠٢٩) في كتاب المناسك باب: قدر حصى الرمي. كلاهما عن ابن عباس مرفوعاً وفيه محل شاهد المصنف قوله: «**إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من قبلكم الغلو في الدين**». واللفظ لهما وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٢٨٣)، وظلال الجنة (٩٨) ونقل تصحيح كل من: ابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم ، والذهبي، والنووي، وابن تيمية.

(٥) الأثر صحيح أخرجه البخاري (الفتح ١٣ / ٢٦٤، ٢٦٥) (٧٢٩٣) في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب: ما يكره من كثرة السؤال، ومن تكلف ما لا يعنيه. عن أنس قال: كنا عند عمر فقال: فذكره.

ومن يُسر الله على الأمة أن جعل كفارة ذنوبها بالتوبة وليس بقتل النفس كما في بني إسرائيل(*)، وستره سبحانه على مذنبي هذه الأمة بخلاف بني إسرائيل، فكان من أذنب منهم وجد ذنبه مكتوباً على جبهته أو بابه.

وفي الحديث: «**أمتي أمة مرحومة**». [١] وخفف الله عليها الصلاة من خمسين إلى خمس، وأبقى أجر الخمسين[٢]، وأحلت لهم الغنائم، وجعلت لها الأرض مسجداً وطهوراً[٣]، وكانﷺ يكره التشديد على الناس، وكان يتخولهم بالموعظة كراهة السآمة عليهم [٤]. وقال: «**إذا قام أحدكم يصلي فنعس**

(*) كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة: ٥٤].

(١) الحدث حسن بطرقه: أخرجه أبو داود (٤ / ٤٦٨) (٤٢٧٨) في كتاب الفتن والملاحم. باب: ما يرجى في القتل. وأحمد في مسنده (٤ / ٤١٠، ٤١٨)، والحاكم (٤ / ٤٤٤)، كلهم عن أبي موسي مرفوعاً: «**أمتي هذه أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة، عذابها في الدنيا الفتن، والزلازل والقتل**». وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٩٥٩).

(٢) كما ثبت بذلك الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ١ / ٤٥٨، ٤٥٩) (٣٤٩) في كتاب الإسراء. باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء ومسلم (١ / ٤٨/ ١٤٩) (٢٦٣ / ١٦٣) كتاب الإيمان. باب: الإسراء برسول اللهﷺ إلى السماوات، وفرض الصلوات. كلاهما عن أبي ذر مرفوعاً بطوله. وفيه شاهد المصنف.

(٣) كما ثبت بذلك الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ١ / ٥٣٣) (٥٣٨) في كتاب الصلاة. باب: قول النبيﷺ «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**» ومسلم (١ / ٣٧٠) (٣ / ٥٢١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة. عن جابر بن عبدالله مرفوعاً: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة**» واللفظ للبخاري.

(٤) كما ثبت بذلك الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ١ / ١٦٢)، ١٦٣) (٦٨ / ٧٠) في كتاب العلم. باب: ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا. وباب: من جعل لأهل العلم أياماً معلومةً. ومسلم (٤ / ٢١٧٢) (٨٢ / ٢٨٢١) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم. باب: الاقتصاد في الموعظة. كلاهما عن ابن مسعود قال: «وكان النبيﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا». واللفظ لهما. وفي مسلم «**مخافة**» ورواية: «**كراهية**».

فليرقد، لعله يستغفر فيسب نفسه»[(١)]. وقال: «**اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به**»[(٢)] ولم ينتهر من بال في المسجد، بل تركه حتى أنهاه، ثم نهاه بلطف وبيّن له برفق[(٣)] وقرصﷺ المني اليابس الذي أصاب ثوبه فحسب ولم يغسله[(٤)]، وكان يصلي في ثوبه الذي ينام فيه.

---

(١) الحديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١ / ٣١٣) (٢١٢) في كتاب الوضوء. باب: الوضوء من النوم ، ومن لم ير من النعسة والنعستين أو الخفقه وضوءاً. ومسلم (١ / ٥٤٣) (٢٢٢ / ٧٨٦) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب: أمر من نعس في صلاته، أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك. كلاهما عن عائشة مرفوعاً: «**إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه**». واللفظ للبخاري.

(٢) الحديث صحيح: أخرجه مسلم (٦/ ١٧٢٨) (٣ / ١١٥٩) في كتاب الإمارة، باب: الإمام العادل، وعقوبة الجائر أو الحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم عن عائشة مرفوعاً ضمن حديث وآخره الشاهد بلفظ المصنف.

(٣) كما ثبت بذلك الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ١ / ٣٢٢) (٢١٩) في كتاب الوضوء. باب: ترك النبيﷺ والناس الأعرابي حتى فرغ من بوله في المسجد. وكرره (٢٢١). ومسلم (١ / ٢٣٧) (١٠٠ / ٢٨٥) كتاب الطهارة. باب: وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، وأن الأرض تطهر بالماء من غير حاجة إلى حفرها. كلاهما عن إسحاق حدثني أنس قال: «بينما نحن في المسجد مع رسول اللهﷺ إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد. فقال أصحاب رسول اللهﷺ مه مه. قال: فقال رسول اللهﷺ : «**لا تزرموه. دعوه**». فتركوه حتى بال. ثم إن رسول اللهﷺ دعاه فقال له: «**إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة، وقراءة القرآن**». أو كما قال رسول اللهﷺ قال فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من الماء فشنه عليه. وهذا لفظ مسلم بتمام، وذكره البخاري مختصراً جداً.

(٤) أخرج مسلم (١ / ٢٤٠) (١٠٩ / ٢٩٠) في صحيحه في كتاب الطهارة. باب: حكم المني. عن عبدالله بن شهاب الخولاني. قال: كنت نازلاً على عائشة. فاحتلمتُ في ثوبيَّ فغمستهما في الماء فرأتني جارية لعائشة فأخبرتها. فبعثت إليّ عائشة فقالت: ما حملك على ما صنعت بثوبيك؟ قال: قلت: رأيت ما يرى النائم في منامه. قالت: هل رأيت فيهما شيئاً؟ قلت: لا. قالت: فلو رأيت شيئاً غسلته. لقد رأيتني وإني لأحكه من ثوب رسول اللهﷺ يابساً بظفري.

وقرأ القرآن وهو متكئ في حجر عائشة رضي الله عنها[١]، وكان يواكل الحائض، وترجله عائشة وهي حائض[٢]. وكانﷺ يقول: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»[٣]، وكانﷺ يصلي النافلة أحياناً وهو قاعد[٤]، ويتنفل على راحلته[٥]، ويقول: «**رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما**

(١) كما ثبت بذلك الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ١ / ٤٠١) (٢٩٧) في كتاب الحيض. باب: قراءة الرجل في حجر امرأته وهي حائض ومسلم (١ / ٢٤٦) (١٥ / ٣٠١) في كتاب الحيض. باب جواز غسل الحائض رأس زوجها، وترجيله وطهارة سؤرها، والاتكاء في حجرها، وقراءة القرآن فيه. كلاهما عن عائشة قالت: «**أن النبيﷺ كان يتكئ في حجري، وأنا حائض ثم يقرأ القرآن**» واللفظ للبخاري ومسلم، ولكن مسلم بدون «ثم».

(٢) ثبت ذلك عند البخاري (الفتح ١ / ٤٠١) (٢٩٥) في كتاب الحيض. باب: غسل الحائض رأس زوجها وترجيله. ومسلم (١ / ٢٤٤) (٦ : ١٠ / ٢٩٧) في الكتاب والباب السابق. كلاهما عن عائشة: كنت أرجل رأس رسول اللهﷺ وأنا حائض واللفظ للبخاري.

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح /١٣ ٢٥١) (٧٢٨٨) في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. باب: الاقتداء بسنن رسول اللهﷺ، ومسلم (٢ / ٩٧٥) (٤١٢ / ١٣٣٧) في كتاب الحج. باب: فرض الحج مرة كل عام. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً واللفظ المذكور لفظ البخاري ضمن حديث أما مسلم فلفظه «**أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا**». فقال رجل : أكل عام؟ يا رسول الله. فسكت . حتى قالها ثلاثاً. فقال رسول اللهﷺ : «**لو قلت نعم لوجبت. ولما استطعتم**». ثم قال: «**ذروني ما تركتكم. فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أخبرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**».

(٤) كما ثبت ذلك بسند صحيح عند البخاري (الفتح ٢ / ٥٨٩) (١١١٨) في كتب تقصير الصلاة. باب: إذا صلى قاعداً ثم صَحَّ أو وجد خفة، تمم ما بقي، ومسلم (١ / ٥٥) (١١١ / ٧٣١) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب: جواز النافلة قائماً أو قاعداً. عن عائشة: أنها لم تر رسول اللهﷺ يصلي صلاة الليل قاعداً قط حتى أسن، فكان يقرأ قاعداً حتى إذا أراد أن يركع قام فقرأ نحواً من ثلاثين آية أو أربعين آية ثم ركع». واللفظ للبخاري.

(٥) كما ثبت ذلك بسند صحيح عند البخاري (الفتح ٢ / ٥٧٣) (١٠٩٣) في كتاب تقصير الصلاة. باب: صلاة التطوع على الدواب، وحيثما توجهت به. ومسلم (١ / ٤٨٨) (٤٠ / ٧٠١) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب: جواز صلاة النافلة على الدابة في السفر حيث توجهت. كلاهما عن عبدالله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال: «رأيت النبيﷺ يصلي على راحلته حيث توجهت به». وهذا لفظ البخاري. وعند البخاري في لفظ آخر وفيه زيادة (١٠٩٧): « ... ولم يكن رسول اللهﷺ يصنع ذلك في الصلاة المكتوبة».

استكرهوا عليه»[١]، ويقول: «**رفع القلم عن ثلاث: النائم حتى يستيقظ، والصغير حتى يكبر، والمجنون حتى يفيق**»[٢]. ويقولﷺ: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**»[٣]، وترك صلاة التراويح خشية أن تكتب على الأمة[٤].

وكان ربما ترك بعض العمل خشية أن يكتب على أمته شفقة بهم[٥].

---

(١) قال الشيخ الألباني: صحيح. الإرواء (٨٢).

والحديث: أخرجه. ابن ماجه (١ / ٦٥٩) (٤٥ ـ ٢) في كتاب الطلاق. باب: طلاق المكره والناس عن ابن عباس مرفوعاً «**إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**» قلت: والحديث له طرق كلها ضعيفة جداً. وضعفه أكثر من واحد من المتقدمين وانظر التفصيل في جامع العلوم الحديث التاسع والثلاثون.

ولكن هناك ما صح عند مسلم (١٢٦) عن ابن عباس ضمن حديث قال: «... فأنزل الله تعالى: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾. **قال: أي الله: قد فعلت... الحديث**».

(٢) الحديث حسن بمجموع الطرق: أخرجه أبو داود (٤ / ٥٥٨) (٤٣٩٨) في كتاب الحدود. باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً والنسائي في الكبرى (٣ / ٣٦٠) (٥٦٢٥) في كتاب الطلاق. باب: من لا يقع طلاقه من الأزواج. كلاهما عن عائشة مرفوعاً لفظ المصنف ولكن «ثلاثة» «عن النائم» «وعن المجنون» وصححه العلامة الألباني في الإرواء (٢٩٧).

(٣) الحديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٢ / ٣٧٤) (٨٨٧) في كتاب الجمعة. باب: السواك يوم الجمعة ومسلم (١ / ٢٢٠) (٤٢ / ٢٥٢) كتاب الطهارة. باب: السواك. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً. ولفظ المصنف عند مسلم، والبخاري لفظ «مع كل صلاة».

(٤) كما ثبت بذلك الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٣ / ١٠) (١١٢٩) في كتاب التهجد. باب: تحريض النبيﷺ على قيام الليل والنوافل من غير إيجاب.

ومسلم (١ / ٥٤٠) (٢١٥ / ٧٨٢) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره.

كلاهما عن عائشة في حديث عدم خروجهﷺ لقيام رمضان وفي آخره عند البخاري: «**قال: قد رأيت الذي صنعتم، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم**». «وذلك في رمضان».

(٥) كما ثبت بذلك الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٣ / ١٠) (١١٢٨) في الكتاب والباب السابقين. عن عائشة قالت: «إن كان رسول اللهﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم، وما سبح رسول اللهﷺ سبحة الضحى قط، وإني لأسبحها».

وقال ﷺ: «**ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك الذين من قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم**»(١).

وقوله للرجل لما قال: «والله لا أزيد على هذا ولا أنقص: «**أفلح إن صدق ودخل الجنة إن صدق**»(٢)، وحمل أمامة بنت بنته في الصلاة فكان إذا سجد وضعها وإذا قام رفعها (٣). وصلى في نعليه (٤) وكان إذا رأى بهما أذى مسحهما بالتراب وصلى فيهما(٥).

---

(١) الحديث صحيح: متفق عليه، واللفظ المذكور عند مسلم وتقدم قريباً جداً ص١٠٨ .

(٢) الحديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١ / ١٠٦) (٤٦) في كتاب الإيمان. باب: الزكاة من الإسلام. ومسلم (١ / ٤٠ ، ٤١) (٨، ٩ ١١/) في كتاب الإيمان. باب: بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام كلاهما عن طلحة بن عبيد الله قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يُسمع دويّ صوته ولا يُفقه ما يقول، حتى دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: **خمس صلوات في اليوم والليلة**. فقال : هل عليّ غيرها؟ قال: **لا، إلا ان تطوع** قال رسول الله ﷺ: **وصيام رمضان**. قال: هل عليّ غيره؟ قال: **لا، إلا ان تطوع**. قال وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، هل عليّ غيرها؟ قال: **لا، إلا ان تطوع**، قال: فأدبر الرجل وهو يقول والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. قال رسول الله ﷺ: **أفلح إن صدق**» وهذا لفظ البخاري. وعند البخاري في لفظ (١٨٩١): قال: والذي أكرمك بالحق، لا أتطوع شيئاً ولا أنقص مما فرض الله عليّ شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: **أفلح إن صدق**. أو دخل الجنة إن صدق». وما ذكره المصنف جمع بين الروايتين.

(٣) ثبت ذلك بسند صحيح عند البخاري (الفتح ١ / ٥٩٠) (٥١٦) في كتاب الصلاة. باب: إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة ومسلم (١ / ٣٨٥) (٤١: ٤٣ / ٥٤٣) في كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب: جواز حمل الصبيان في الصلاة كلاهما عن أبي قتادة الأنصاري: أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل بنت زينب بنت رسول الله ﷺ ولأبي العاص بن ربيعة بن عبدشمس، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها» وهذا لفظ البخاري. وعند البخاري (٥٩٩٦) موضع حملها بلفظ: «على عاتقه فصلى» وعند مسلم (٤٢) على عنقه.

(٤) ثبت ذلك بسند صحيح عند البخاري (الفتح ١ / ٤٩٤) (٣٨٦) في كتاب الصلاة. باب: الصلاة في النعال، ومسلم (١ / ٣٩١) (٦٠ / ٥٥٥) في كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب: جواز الصلاة في النعلين كلاهما عن سعيد بن يزيد الأزدي قال: سألت أنس بن مالك: أكان النبيّ ﷺ يصلي في نعليه؟ قال: نعم. واللفظ للبخاري، ولفظ مسلم «النعلين».

(٥) ثبت ذلك بسند صحيح عن أبي داود (١ / ٤٢٧) (٦٥٠) في كتاب الصلاة. باب: الصلاة في =

وقال ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته**»[1].

وكل هذه الأحاديث والآثار وغيرها من النصوص تدخل في رحمة الله بعباده، وتيسيره عليهم ورفع الحرج عنهم، فسبحانه من رب رؤوف رحيم، رفيق يحب الرفق، فالواجب علينا شكره سبحانه على هذه النعم العظيمة والآلاء الجسيمة من التسهيل والتيسير، وأن نقوم بما أمرنا به، وننتهي عما نهينا عنه. والله المستعان.

= النعل، وأحمد في المسند (٣ / ٢٠ ، ٩٢) وأبو داود الطيالسي في مسنده (ص٢٨٦ / ٢١٥٤)، والحاكم في المستدرك (١ / ٢٦٠) وغيرهم. عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً ضمن حديث وفي آخره: «... **فإذا جاء أحدكم المسجد فليقلب نعليه فلينظر فيهما خبث فإن وجد فيهما خبثاً فليمسحهما بالأرض ثم ليصل فيهما**». وهذا لفظ الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال الذهبي على شرطهما وصححه العلامة الألباني في الإرواء (٢٨٤).

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٣ / ١٥٤٨) (٥٧ / ١٩٥٥) في كتاب الصيد والذبائح. باب: الأمر بإحسان الذبح والقتل، وتحديد الشفرة، والترمذي (٤ / ٢٣) (١٤٠٨) في كتاب الديات. باب: ما جاء في النهي عن المثلة. وغيرهما عن شداد بن أوس مرفوعاً فذكره بلفظ المصنف وعند مسلم «فليرح».

صلة الحب بين الله وعبده تصبح قصة من أجمل القصص في الرعاية والولاية والحفظ والنصر والتأييد من الله والإخلاص والصدق والتضحية والوفاء من عبده

الله يحب أولياءه. وعلى العبد وجوب حبه سبحانه لكمال جلاله وتمام جماله وغاية كماله، وحسن أسمائه وصفاته وأفعاله، وأنه محبوب لإحسانه وبره وامتنانه وأياديه وجميل معروفه عز وجل.

الحب ماء الحياة، وغذاء الروح، وقوت النفس، تعطف الناقة على حوارها بالحب، ويرضع الطفل ثدي أمه بالحب، وتبني الحمَّرة عشها بالحب، بالحب تشرق الوجوه، وتبتسم الشفاه، وتتألق العيون، بالحب يقع العناق والضم والوصال والحنان والعطف، الحب قاضٍ في محكمة الدنيا، يحكم للأحباب ولو جاروا، ويفصل في القضايا لمصلحة المحبين ولو ظلموا، بالحب وحده تقع جماجم المحاربين على الأرض كأنها الدنانير لأنهم أحبوا مبدأهم، وتسيل نفوسهم على شفرات السيوف لأنهم أحبوا رسالتهم، أحب الصحابة المنهج وصاحبه، والرسالة وحاملها، والوحي ومنزله، فتقطعوا على رؤوس الرماح طلباً للرضا في بدر وأحد وحنين، وهجروا الطعام والشراب والشهوات في هواجر مكة والمدينة، وتجافوا عن المضاجع في ثلث الليل الغابر، وأنفقوا النفائس طلباً لمرضاة الحبيب، بالحب صاح حرام بن ملحان مقتولاً: فزت ورب الكعبة[(١)].

---

(١) ثبت ذلك بسند صحيح عند البخاري (الفتح ٧ / ٢٨٦) (٤٠٩٢) كتاب المغازي. باب: غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة عن أنس يقول: لما طعن حرام بن ملحان ـ وكان خاله ـ يوم بئر معونة ـ قال بالدم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه ثم قال: «فزت ورب الكعبة».

بالحب نادى عمير بن الحمام إلى الجنة مستعجلاً: إنها لحياة طويلة إذا بقيت حتى آكل هذه التمرات[١]، بالحب صرخ عبدالله بن عمرو الأنصاري: اللهم خذ من دمي هذا اليوم حتى ترضى؟.

لما أحب الخليل صارت له النار برداً وسلاماً[*]، ولما أحب الكليم انفلق له البحر[**]، ولما أحب خاتمهم حن له الجذع[٣]، وانشق له القمر[٤]، المحب عذابه عذب، واستشهاده شهد لأنه مُحب.

أحـــــبك لا تســـــأل لماذا لأنني

أحـــبك هذا الحب رأيي ومـــذهبي

---

(١) ثبت ذلك بسندصحيح عند مسلم (٣ / ١٥٠٩، ١٥١٠) (١٤٥ / ١٩٠١) في كتاب: الإمارة. باب: ثبوت الجنة للشهيد. عن أنس بن مالك مرفوعاً في حديث طويل في غزوة بدر، ومحل الشاهد. « ... فقال رسول الله ﷺ: **«قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»** قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟. قال : **«نعم»**. قال: بخ بخ. فقال رسول الله ﷺ: **«ما يحملك على قولك «بخ بخ»**. قال: لا. والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال **«فإنك من أهلها»**. فأخرج تمرات من قرنه. فجعل يأكل منهن. ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل».

(*) لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

(**) لقوله تعالى: **﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]**.

(٣) ثبت ذلك بسند صحيح عند البخاري (الفتح ٦ / ٦٠) (٣٥٨٣) في كتاب: المناقب. باب: علامات النبوة في الإسلام عن ابن عمر رضي الله عنه: **«كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه، فحن الجذع، فأتاه فمسح يده عليه»**.

(٤) ثبت ذلك بسند صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٨ / ٦١٧) (٤٨٦٥) في كتاب التفسير. باب: «وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا» ومسلم (٤ / ٢١٥٨) (٤٣: ٤٥ / ٢٨٠٠) في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم. باب: انشقاق القمر. كلاهما عن عبدالله قال: انشق القمر ونحن مع النبي ﷺ فصار فرقتين، فقال لنا : **اشهدوا، اشهدوا»**.

بالحب تتألف المجرة، وبالحب تدوم المسرة، بالحب ترتسم على الثغر البسمة، وتنطلق من الفجر النسمة، وتشدو الطيور بالنغمة، أرض بلا حب صحراء، وحديقة بلا حب جرداء، ومُقلة بلا حب عمياء، وأذن بلا حب صماء.

ويوم ينتهي الحب يقع الهجر والقطيعة في العالم، وسوء الظن والريبة في الأنفس والانقباض والعبوس في الوجوه.

يوم ينتهي الحب لا يفهم الطالب كلام معلمه العربي المبين، ولا تذعن المرأة لزوجها ولو سألها شربة ماء، ولا يحنو الأب على ابنه ولو كان في شدق الأسد، يوم ينتهي الحب تهجر النحلة الزهر، والعصفور الروض، والحمام الغدير، يوم ينتهي الحب تقوم الحروب ويشتعل القتال وتدمر القلاع وتدك الحصون وتذهب الأنفس والأموال، ويوم ينتهي الحب تصبح الدنيا قاعاً صفصفاً، والوثائق صحفاً فارغة، والبراهين أساطير، والمثل تراهات، لا حياة إلا بحب، لا بقاء إلا بحب، إذا أحببت شممت عطر الزهر، ولمست لين الحرير، وذقت حلاوة العسل، ووجدت برد العافية، وحصلت أشرف العلوم، وعرفت أسرار الأشياء، وإذا كرهت صارت كل كلمة عندك جارحة، وكل تصرف مشبوه، وكل حركة مشكوك فيها، وكل إحسان إساءة، المحب هجره وصال، وغضبه رضا، وخطيئته إحسان، وخطؤه صواب.

ويقبح من سواك الفعل عندي

وتفعله فيحسن منك ذاك

والرب عز وجل يحب أصنافاً من العباد وأنواعاً من الأقوال والأحوال، فهو يحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب الصابرين، ويحب الذين يقاتلون

في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، ويحب أتباع رسولهﷺ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾. وذكر عن عباده الصالحين أنه يحبهم ويحبونه. وقد صح أن الرسولﷺ قال في خيبر: «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**»، فأعطاها علياً رضي الله عنه[(١)].

ولما جلد شارب الخمر في عهده لعنه أحد الناس، فقال: «**لا تلعنه، فإني ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله**»[(٢)] فأثبت له أصل الحب مع وجود المخالفة.

فالله عز وجل يُحِب ويُحَب، فمن فعل مراضيه واجتنب مساخطه، واتبع رسله، وآمن بكتبه، وجاهد في سبيله، وعمل ابتغاء مرضاته، وأخلص له السعي، وناصره، وعظم حرماته، ووقر شرائعه، واحترم شعائره، أحبه وقربه، وتولاه وأسعده، ورفع درجته، وأعلا منزلته، وأكرم مثواه، وأصلح باله، وعظم أجره، وشرح صدره، ووضع عنه وزره، ورفع ذكره.

فالواجب على العبد الفقير الضعيف الفاني أن يحب ربه الغني القوي الباقي، ولذلك بلغ حب الصالحين لربهم أعلى المنازل، فسيد الصالحين وصفوة الأولياء يقول: «**والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أُقتل ثم أَحيا ثم أُقتل**»[(٣)].

---

(١) حديث صحيح: وتقدم ص٤٦ .

(٢) حديث صحيح : وتقدم ص١٠٢ .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري برقم (٦٧٩٩) في باب ما جاء في التمني، ومن تمنى الشهادة ومسلم في باب فضل الشهادة والخروج في سبيل الله كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال وهو في سكرات الموت: «**بل الرفيق الأعلى**»[(١)]، وهذه أصعب المنازل وأشق المواقف ومع ذلك جرد الحب كله لمولاه وخالقه.

ويقولﷺ: «**لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت ابن أبى قحافة خليلاً. ولكن صاحبكم خليل الله**»[(٢)].

وطُعن أحد الصحابة بالرمح في ظهره حتى خرج من صدره فصاح: فزت ورب الكعبة[(٣)]. وهذا لكمال حبه.

وكان أنس بن النضر - رضي الله عنه - يقول يوم أحد لسعد: إليك عني يا سعد، فوالذي نفسي بيده إني لأجد ريح الجنة من دون أحد. فقاتل حتى قتل شهيداً وبه أكثر من ثمانين ضربة وطعنة[(٤)].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٨ / ١٥٠) (٤٤٦٣) في كتاب: المغازي. باب: آخر ما تكلم به النبيﷺ ، ومسلم (٤ / ١٨٩٤) (٨٧ / ٢٤٤٣) في كتاب: فضائل الصحابة. باب: فضل عائشة رضي الله عنها. كلاهما عن عائشة ضمن حديث أوله: «**أنه لم يقبض نبي حتى يرى**..... » الحديث وفي آخره. قوله: «**اللهم الرفيق الأعلى**». وكرره البخاري في مواضع (٤٤٣٧) (٦٥٠٩) واللفظ لهما.

(٢) ثبت ذلك بسند صحيح عند البخاري (الفتح ٧ / ١٧) (٣٦٥٦) (٣٦٥٧) (٣٦٥٨) في كتاب: فضائل الصحابة. باب: قول النبيﷺ: «**لو كنت متخذاً خليلاً**». بألفاظ متقاربة جداً. وعن عدد من الصحابة. ولكن اللفظ الذي ذكره المصنف أخرجه مسلم (٤ / ١٨٥٥) (٦ / ٢٣٨٣) في كتاب: فضائل الصحابة. باب: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه. عن عبد الله مرفوعاً.

(٣) صحيح: تقدم ص١١٢ .

(٤) ثبت ذلك بسند صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٦ / ٢١) (٢٨٠٥) في كتاب الجهاد. باب: قول الله عز وجل: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ [**الأحزاب**: ٢٣]. ومسلم (٣ / ١٥١٢) (١٤٨ / ١٩٠٣) في كتاب: الإمارة. باب: ثبوت الجنة للشهيد كلاهما عن أنس. الحديث ومحل شاهد المصنف. «... يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد. ثم قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثَّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه» واللفظ للبخاري.

وسأل عبدالله بن جحش ربه في أحد أن يلاقي بينه وبين كافر شديد حرده قوي بأسه، فيقتل عبدالله ويبقر بطنه، ويجدع أنفه، ويفقأ عينه، ويقطع أذنيه، فإذا سأله الله يوم القيامة: لِمَ صنعَ بك يا عبدالله هذا؟ فيقول: يا رب فيك هذا فوقع كما تمنى من القتل والتمثيل [١]، وكما قيل:

إن كان سركم ما قال حاسدنا

فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وجاء عبدالله بن عمرو الأنصاري طالباً القتل في سبيل الله يوم أحد فأعطاه الله ما تمنى ، فحزن عليه ابنه جابر، فقال له ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعته**» ثم قال: «**أتدري يا جابر ماذا قال الله لأبيك لما قُتِلَ؟**» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**إن الله قال له: تمن يا عبدي فقال: أتمنى أن تعيدني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية**». قال «**إني كتبت على نفسي أنهم إليها لا يرجعون، فتمن، قال: أن ترضى عني فإني قد رضيت عنك. قال: فإني أحللت عليك رضواني لا أسخط عليك أبداً**» [٢] .

ثم جعل الله روحه وأرواح إخوانه الذي قتلوا معه في حواصل طير خضر ترد الجنة فتأكل من ثمارها، وتشرب من أنهارها، وتأوي إلى قناديل معلقة

---

(١) قال الذهبي: مرسل صحيح: أخرجه الحاكم (٣ / ١٩٩ ـ ٢٠٠) في كتاب معرفة الصحابة. باب: مناقب عبدالله بن جحش. عن سعيد بن المسيب قال: قال عبدالله بن جحش : «اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو غداً فيقتلوني ثم يبقروا بطني ويجدع أنفي وأذني ثم تسألني بما ذاك؟ فأقول: فيك. قال سعيد بن المسيب: إني لأرجو أن يبر الله آخر قسمه كما بر أوله. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه. أ هـ وقلت: وله شاهد غير البخاري في التاريخ (١ / ٣٨٧)، وفي الإصابة (٤٥٨٦) وفي أسد الغابة (٢٨٥٦)، وذكره ابن قيم في الزاد (٣ / ٢٠٨).

(٢) حديث صحيح وتقدم ص٤٦ .

بالعرش، حتى يرث الله الأرض ومن عليها [١]، وأنزل الله مصداق ذلك: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وكان البراء بن مالك الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ عظيم المحبة لربه فيقسم عليه فيبر قسمه [٢]، وقد أقسم على الله يوم تستر أن يكون أول قتيل وأن ينصر المسلمين، فوقع ذلك [٣] بل إن من الصحابة من إذا وقعت منه معصية طلب التطهير بالحد، ولو كان ذلك فيه ذهاب النفس.

فقل لي بربك من منا يذهب إلى الموت نشيطاً كما ذهب إليه ماعز والغامدية، فهذا ماعز يعترف على نفسه بالزنا ويطلب إقامة الحد، ويعلم أن

---

(١) ثبت ذلك بسندصحيح عند مسلم (٣ / ١٥٠٢ ، ١٥٠٣) (١٢١ / ١٨٨٧) في كتاب: الإمارة. باب: بيان أن أرواح الشهداء في الجنة. وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون. عن ابن مسعود مرفوعاً: «**أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم إطلاعه. فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا. ففعل ذلك بهم ثلاث مرات. فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا**» تقدم ص ٦١ مختصراً.

(٢) ثبت ذلك بسند حسن عند الترمذي (٥ / ٦٩٢ ، ٦٩٣) (٣٨٥٤) في كتاب: المناقب. باب: مناقب البراء بن مالك عن أنس مرفوعاً: «**كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك**». لا يؤبه له : أي لا يُبَالى به ولا يلتفت إليه، والحاكم من طريق آخر فيه ضعف عن أنس (٣ / ٢٩٢).

(٣) وذلك يوم اليمامة، أخرجه الحاكم في المستدرك (٣ / ٢٩٢) بإسناد حسن عن أنس بن مالك وراجع الاستيعاب (ت ١٧٢) والإصابة (ت ٦٢٠)، وأسد الغابة (ت ٣٩١).

فيه ذهاب روحه، ويستمر على إقراراه، ويثبت على اعترافه، ويصابر الحجارة حتى يهلك تحتها، فكان جزاؤه أن ينغمس في أنهار الجنة [١].

وهذه امرأة تقر على نفسها بالزنا فيعيدهاﷺ حتى تضع حملها ثم ترضعه حتى تفطمه، وهي باقية على الإقرار، طالبة لإقامة الحد، ساعية في تطهير نفسها، قد باعت روحها من ربها، وجلة من ذنبها، خائفة من لقاء مولاها، غير مبالية بالناس، مستهينة بفضيحة الدنيا، بجانب عذاب الآخرة، فلما أقيم عليها الحد ثبتت تحت الحجارة، حتى ذهبت نفسها، فكان ثوابها أن يقول فيهاﷺ: «**والذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مَكْس لغفر له**»[٢]. وفي رواية: «**لو وزعت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل رأيت أعظم من أن جادت بنفسها**»[٣].

ولذلك لما قام أهل بدر بواجب النصرة لله ولرسولهﷺ وبذلوا النفس

---

(١) ثبت ذلك بسند صحيح عند البخاري (الفتح ١٢ / ١٢٩) (٦٨٢٠) في كتاب: الحدود. باب: الرجم بالمصلى، ومسلم (٣ / ٣١٩) (١٧ / ١٦٩٢) في كتاب: الحدود. باب: من اعترف على نفسه بالزنا عن جابر مرفوعاً في قصة ماعز، ومسلم (٣ / ١٣٢٢) (٢٢ / ١٦٩٥) في كتاب: الحدود. باب: من اعترف على نفسه بالزنا. عن بريدة بن الحصيب مرفوعاً في قصة رجم ماعز بطولها وفي آخره قال مرفوعاً. «**استغفروا لماعز بن مالك**» قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. قال: فقال رسول اللهﷺ «**لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم**».
وقد فصل العلامة الألباني طرق الحديث وألفاظُ في الإرواء (٢٣٢٢).

(٢) الحديث صحيح: أخرجه مسلم (٣ / ١٣٢٤) (٢٣ / ١٦٩٥) عن بريدة بن الحصيب مرفوعاً قصة رجم الغامدية وفى آخر الحديث: «..... فتنضح الدم على وجه خالد. فسبها فسمع نبي اللهﷺ سبه إياها. فقال: «**مهلا يا خالد. فو الذي نفسي بيده، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مَكْس لغفر له**».

(٣) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٣ / ١٣٢٤) (٢٤ / ١٦٩٦) عن عمران بن حصين مرفوعاً بطوله وفي الحديث «... ثم أمر بها فرجمت، ثم صلى عليها. فقال له عمر: تصلي عليها يا نبي الله!! وقد زنت. فقال: «**لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى؟**». وهذا الحديث في امرأة من جهينة.

والنفيس والغالي والرخيص، في سبيل مرضاة ربهم ومولاهم، اطلع عليهم فقال: **«اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**[١].

وخاطبهمﷺ قبل الوقعة فقال: **«والذي نفسي بيده ما بينكم وبين الجنة إلا أن يقتلكم هؤلاء فتدخلون الجنة»**[٢]. فتسابقوا إليها زرافات ووحدانا، ولما صدق بلال بن رباح في المتابعة سمعﷺ دفي نعليه في الجنة[٣].

وكذلك من هو أفضل منه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رأى قصرهﷺ في الجنة، فأراد أن يدخله فذكر غيرة عمر فلم يدخله، فلما أخبر عمر بكى، وقال: أعليك أغار يا رسول الله[٤] وهذا الجزاء لتمام حبه لربه سبحانه ومتابعته لرسولهﷺ.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٧ / ٣٠٤ ، ٣٠٥) (٣٩٨٣) في كتاب المغازي. باب: فضل من شهد بدراً، ومسلم (٤ / ١٩٤) (١٦١ / ٢٤٩٤) في كتاب: فضائل الصحابة. باب: من فضائل أهل بدر.. كلاهما عن على مرفوعاً ضمن حديث طويل قصة حاطب وفي آخره مرفوعاً: **«إنه قد شهد بدراً. وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال:** فذكره بلفظ المصنف».

(٢) تقدم، وهو إحدى روايات حديث **«قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»** في غزوة بدر.

(٣) كما جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٣ / ٣٤) (١١٤٩) في كتاب: التهجد. باب: فضل الطهور بالليل والنهار، وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار. ومسلم (٤ / ١٩١٠) (١٠٨ / ٢٤٥٨) في كتاب فضائل الصحابة. باب: من فضائل بلال - رضي الله عنه - كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً. **«يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة، قال: ما عملت عملاً أرجى عندي أني لم اتطهر طهوراً في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي ان اصلي»**. وهذا لفظ البخاري، وزاد مسلم: **«عملته عندك في الإسلام منفعة»**، **«خشف»** بدل **«دف»**.

(٤) كما جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٧ / ٤٠) (٣٦٨٠) كتاب فضائل الصحابة. باب: مناقب عمر ابن الخطاب أبي حفص القرشى العدوي - رضي الله عنه - ومسلم (٤ / ١٨٦٣) (٢١ / ٢٣٩٥) في كتاب: فضائل الصحابة. باب: من فضائل عمر - رضي الله تعالى عنه -، كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً: **«بينا أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر، فذكرت غيرته فوليت مدبراً. فبكى عمر. وقال: أعليك أغار يا رسول الله»**؟ واللفظ للبخاري.

وقد رأىﷺ في المنام كأنه يشرب لبناً، حتى كأن الريَّ يخرج من أظفاره ثم أعطى فضلته عمر بن الخطاب، وأولهﷺ بالعلم [١] ورأى كأن الناس يعرضون عليه، عليهم قمص منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما دون ذلك، وعرض عليه عمر وعليه قميص يجره، فأول ذلكﷺ بالدين[٢].

ولما عظمت منزلة عمر في حبه لله ولرسوله سأل الله في آخر أيامه قرب القدوم على ربه، فقال: اللهم رق عظمي، وضاعت رعيتي، وشاب رأسي، فاقبضني إليك غير مفرط ولا مفتون، اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك وموتاً في بلد رسولك. فكان ما تمنى[٣].

ولما وفى أُبي بن كعب سيد القراء محبته لربه، وطاعته لمولاه، أتاهﷺ وأخبره أن الله أمره أن يقرأ عليه سورة البينة.

قال أُبي: وسماني في الملأ الأعلى؟

قال: نعم، فبكى أُبي [٤] وهو بكاء الفرح والغبطة والسرور. كما قيل:

طفح السرور عليَّ حتى إنني ... من عظم ما قد سرني أبكاني

(١) صحيح: متفق عليه وتقدم ص٦٣ .

(٢) صحيح: متفق عليه وتقدم ص ٦٢ .

(٣) الشق الثاني اللهم إني أسألك شهادة. أخرجها البخاري (الفتح ٤ / ١٠٠) (١٨٩٠) في كتاب فضائل المدينة. باب: ١٢ . عن عمر قال: اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولكﷺ. وأخرجها ابن سعد في الطبقات (٣ / ٣٣٥) بإسناد حسن عن عثمان بن أبي العاص عن عمر بن الخطاب قال: اللهم كبرت سني ورق عظمي وخشيت الانتشار من رعيتي فاقبضني إليك غير عاجز ولا ملوم. وأخرجها أبو نعيم في الحلية (١ / ٥٤)، وابن الأثير في الأسد (٣ / ٦٧٠) . عن يزيد بن هارون أخبرنا يحيى بن سعيد الأنصاري أنه سمع سعيد بن المسيب يذكر أن عمر بن الخطاب كوم كومة من بطحاء ثم ألقى عليها طرف ثوبه ثم استلقى عليها فرفع يديه إلى السماء ثم قال: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط. قلت: وإسناده صحيح ومتصل وسعيد عن عمر حجة كما قال ابن حنبل في التهذيب في ترجمة سعيد.

(٤) صحيح: وتقدم ص٤٥ .

ولمّا سأله عن أعظم آية في القرآن؟ قال: الله ورسوله أعلم، ثم سأله قال: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فضرب في صدره وقال: «**والله ليهنك العلم أبا المنذر**» [١] ولم يحصل على هذه المنح والمراتب إلا لحبه لربه، فإن الله يحجب عن أعدائه ومعاديه الحق والهدى والنور.

وهذا معاذ بن جبل لما أحب المتابعة والتفقه في الدين قال عنهﷺ: «**إنه يأتي يوم القيامة أمام العلماء برتوة**» [٢] أي: برمية حجر، لفضله وتقدمه.

وأخبرﷺ معاذاً أنه يحبه، ولا يحب الرسولﷺ إلا من أحب الله عز وجل ثم علم معاذاً دعاء: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ويقوله عقب كل صلاة[٣].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١ / ٥٥٦) (٢٥٨ / ٨١٠) في كتاب: صلاة المسافرين. باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي. عن أبيّ بن كعب مرفوعاً: «**يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟** قال: قلت: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. قال: فضرب في صدري. وقال: **والله ليهنك العلم أبا المنذر**».

(٢) حديث حسن بمجموع طرقه: أخرجه أبو نعيم في الحلية (١ / ٢٢٨)، وابن سعد في الطبقات (٢ / ٣٤٨) (٣ / ٥٩٠) عن عمر بن الخطاب مرفوعاً بلفظ «**إن العلماء إذا حضروا ربهم عز وجل، كان معاذ بين أيديهم رتوة بحجر**».

والحديث له طرق لا ينزل به - إن شاء الله - عن الحسن والله أعلم. ذكرها العلامة الألباني في الصحيحة (١٠٩١) في بحث نفيس.

(٣) ثبت ذلك بسند صحيح: عند أبي داود (٢ / ١٨١) (١٥٢٢) في كتاب: الصلاة. باب: ما يقول الرجل إذا سلم. والنسائي في الكبرى (٦ / ٣٢) (٩٩٣٧) كتاب عمل اليوم والليلة. باب: الحث على قول: رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك دبر الصلوات، وأحمد (٥ / ٢٤٥، ٢٤٧)، وأبو نعيم (١ / ٢٤١) والحاكم في المستدرك (١ / ٢٧٣) (٣/ ٢٧٣) وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٩ / ٣٠٦٣).

ولما حضرت معاذاً الوفاة قال بكل شوق لمولاه: مرحباً بالموت، حبيباً جاء على فاقة، لا أفلح من ندم(*).

وهذا عثمان ـ رضي الله عنه ـ لما أنفق أمواله في سبيل الله؛ حباً فيما عند الله، وطمعاً في مرضاته، كان جزاؤه قولهﷺ: «**اللهم ارض عن عثمان فإني قد رضيت عنه. ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم**»[1] فإنه جهز جيش العسرة وابتاع بئر رومة، ووقفها على المسلمين وجعل دلوه مع الدلاء وكان سباقاً لفعل الخيرات وعمل الصالحات.

وكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أفضل الجميع بعد رسول اللهﷺ. أنفق ماله كله في سبيل الله، وكان أولهم في كل خير، وسابقهم في كل فضل، وإمامهم في كل عمل صالح، محبة وجهاداً، ونصرة وولاية، وعبادة وطاعة، وصدقاً وإخلاصاً ومتابعة حتى نزل فيه: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

وهذا باب واسع في محبة الصحابة لربهم سبحانه وتعالى، ولرسولهﷺ حتى كان الموت في سبيله عندهم غاية المنى، وأحلى المطالب، وأعظم المقاصد.

فهذا زيد بن حارثة حِبُّ رسول اللهﷺ قاتل في مؤتة قتالاً عظيماً حتى

(*) ذكرها صاحب أسد الغابة (٤ / ٤٢٠) قال: وقال عمرو بن قيس: إن معاذ بن جبل لما حضره الموت قال: انظروا، أصبحنا؟ فقيل: لم تصبح. حتى أُتي فقيل: أصبحنا. فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحباً بالموت، مرحباً زائراً حبيباً جاء على فاقة، اللهم إنك تعلم إني كنت أخافك، وأنا اليوم أرجوك إني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري ـ أي حفر ـ الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر.

(١) صحيح: وتقدم ص٦٠.

قتل شهيداً، ثم تبعه جعفر بن أبي طالب يبحث عن الموت مظانه ويطلب الشهادة، فقاتل حتى قتل[1] وهو ينشد:

يا حبذا الجنة واقترابها

طيبة وبارد شرابها

وحبيب بن زيد قال له مسليمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: لا أسمع شيئاً، فأخذ يقطع جسمه بالسيف ولم يغير كلامه ولم يبدل خطابه[2].

فجزاهم الله خير الجزاء على عظيم حبهم لله رب العالمين ولرسوله ﷺ.

وانظر إلى الصحابي الذي داوم على قراءة ﴿قل هو الله أحد﴾ في كل ركعة بأصحابه حباً في السورة لأن فيها صفة الرحمن. «**أخبروه أن الله يحبه**»[3].

إذا كان حب الهائمين من الورى

بليلى وسلمى يسلب اللب والعقلا

فماذا عسى أن يصنع الهائم الذي

سرى قلبه شوقاً إلى العالم الأعلى

---

(١) جاء في صحيح البخاري (الفتح ٧ / ٥١٠) (٤٢٦١) في كتاب المغازي. باب: غزوة مؤته من أرض الشام. عن عبدالله بن عمر قال: أمر رسول الله ﷺ في غزوة مؤته زيد بن حارثة فقال رسول الله ﷺ: «**إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة، قال عبدالله: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية**».

(٢) راجع الاستيعاب (ت ٤٧٢) (ت ١٠٤٩).

(٣) حديث صحيح وتقدم ص٦٠ .

وورد في الحديث: «المرء يحشر مع من أحب»[(١)]. فمن أحب الله ورسوله ﷺ وأحب أصحابه استلزم ذلك العمل بأعمالهم والتشبه بأحوالهم. وتأمل في قوله تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ وليس العجب من قوله: يحبونه فإنه محسن إليهم، والمحسن يُحَب، لكن العجب من قوله: يحبهم، هو الذي خلقهم ورزقهم وهداهم واجتباهم ووفقهم للعمل الصالح، وسهل لهم سبيل الطاعة وطريق المتابعة، ثم أحبهم سبحانه؟! فما أعظم تفضله على عباده، وما أجل معروفه عليهم، وما أحسن جميله وأكبر امتنانه. اللهم اجعلنا ممن تحبهم ويحبونك.

ومن الأسباب الموجبة لمحبته سبحانه دوام ذكره في كل آن وفي كل زمان ومكان وتلاوة كتابه بتدبر، ومجالسة الصالحين وكثرة دعائه وصدق اللجأ إليه، وحب رسوله ﷺ، ومدارسة حديثه، وتعلم سنته، والعمل بها، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمجاهدة في سبيله، وتقديم محبته على محبة النفس والأهل والابن والمال والمسكن، والرضا بحكمه، والصبر على أقداره المؤلمة، وشكره على نعمه، وحسن الظن به، ودوام الرجاء فيه، وطلب مراضيه بأنواع البر، من صلاة وصدقة وصيام وحج ومحبة أوليائه وبغض أعدائه، وموافقة مراده، وتجنب مساخطه، وحفظ حدوده، وحب لقائه، والشوق إلى جناته والخوف من ناره، والحذر من مكره، والفرار من عذابه ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١٠ / ٥٥٧) (٦١٦٨) (٦١٦٩) في كتاب الأدب. باب: علامة الحب في الله، ومسلم (٤ / ٢٠٣٤) (/١٦٥ ٢٦٤٠) في كتاب: البر والصلة والآداب. باب: المرء مع من أحب كلاهما عن ابن مسعود: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب» واللفظ لهما.

والله جواد كريم في إجابته سبحانه دعاء من دعاه وسماعه سؤال من سأله وتلبيته لحاجات الخليقة وتسهيله لأمورهم، وتيسيره لمطالبهم وتحقيقه وعده لهم

فقد أخبر سبحانه عن ذلك فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾.

وقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

وأخبر عن أنبيائه أنهم يدعونه يبتغون إليه الوسيلة(*) وأن أولياءه يدعونه رغباً ورهباً(**).

وشأن الدعاء عظيم، وأمره جليل، فإنه هو العبادة، كما صح في الحديث[1].

(*) كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

(**) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

(١) في الحديث الصحيح عند ابن ماجة (٢ / ١٢٥٨) كتاب: الدعاء. باب: فضل الدعاء. والترمذي (٥ / ٣٧٤) (٣٢٤٧) في كتاب: تفسير القرآن. باب: ومن سورة المؤمن.. وأبو داود (٢ / ١٦١) (١٤٧٩) في كتاب الصلاة. باب: الدعاء، والبخاري في الأدب (٧١٤) كلهم عن النعمان بن بشير مرفوعاً: «الدعاء هو العبادة». ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٧).

وقد قال ﷺ لابن العباس: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»(١).

ولن يهلك مع الدعاء أحد. وورد: «**أن من لم يسأل الله يغضب عليه**»(٢).

وورد: «**إذا سأل أحدكم فليعظم المسألة، فإن الله لا يتعاظمه شيء**»(٣) «**ويستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت ثم دعوت فلم يستجب لي، فيترك الدعاء**»(٤) «**ولا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت، فإن الله لا مكره له، ولكن ليعزم المسألة**»(٥).

---

(١) حديث حسن: وتقدم تخريجه ص٨١ .

(٢) حديث حسن: قاله الألباني. أخرجه الترمذي (٥ / ٤٥٦) (٣٣٧٣) في كتاب: الدعاء. باب: ٢، والبخاري في الأدب (٦٥٨) وابن ماجه (٢ / ١٢٥٨) (٣٨٢٧) وغيرهم. عن أبي هريرة بلفظ المصنف مرفوعاً. وعند ابن ماجه «يدع» بدل «يسأل». وقد حسنه العلامة الألباني بعد بحث طويل (٢٦٥٤)، قلت: وقد استنكر هذا الحديث ابن عدي في الكامل (٧ / ٢٧٤٩)، والذهبي في الميزان (٤ / ٥٣٨) في ترجمة أبي صالح الخوزي فليراجع. والله أعلم.

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١١ / ١٣٩) (٦٣٣٩) في كتاب: الدعوات. باب: ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، ومسلم (٤ / ٢٠٦٣) (٨ ، ٩ / ٢٦٧٩) في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب: العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً: «**إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت. ولكن ليعزم المسألة. وليعظم الرغبة. فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**». وهذا لفظ مسلم ورواية البخاري: «**لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مستكره له**».

(٤) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١١ / ١٤٠) (٦٣٤٠) في كتاب: الدعوات. باب: يستجاب ما لم يعجل ومسلم (٤ / ٢٠٩٥، ٢٠٩٦) (٩٠، ٩١، ٩٢ / ٢٧٣٥) في كتاب: الذكر والدعاء. باب: بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لي. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً: «**لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم. ما لم يستعجل**». قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: «**يقول: قد دعوت وقد دعوت، فلم أر يستجيب لي. فيستحسر عند ذلك، ويدع الدعاء**». وهذا لفظ مسلم (٩٢)، ولفظ البخاري مختصر جداً.

(٥) صحيح: متفق عليه، وتقدم في هامش رقم (٣).

وقد قال عمر رضي الله عنه: إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن أحمل هم الدعاء، والمعنى أن من سهل له الدعاء فقد حصلت له الإجابة، لكن المصيبة من حرم المسألة، ومنع من الطلب، وصرف عن الدعاء، والله يحب الملحين عليه في الدعاء، والمكثرين في السؤال، والمداومين على الطلب، فإن ذلك من تمام العبودية، وكمال الطاعة، وحسن الانقياد، فلا أعظم من الانكسار بين يديه سبحانه وتعالى، والتذلل له ، والتضرع إليه، والافتقار له، والإلحاح عليه، وطلب الحاجات منه، ومداومة دعائه، وكل شر لا يصرفه إلا هو. وقد أخبرنا سبحانه في كتابه بإجابة دعاء أوليائه من الرسل والصالحين.

فآدم أجاب دعوته فتاب عليه وغفر له وهداه واجتباه بعد الخطيئة.

ونوح دعاه فلبّاه ونجّاه وأهلك خصومه.

وإبراهيم استجار ربه ودعاه فأنجاه من النار، وجعلها عليه برداً وسلاماً، وأهلك عدوه، واستجاب دعاءه عندما ترك أهله عند البيت المحرم؛ فجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، ورزقهم من الطيبات.

ونجى يونس بن متى من الكرب العظيم من الظلمات الثلاث، لما هتف بالكلمة العظيمة القويمة الثمينة التي ينبغي لكل عبد أن يداوم عليها: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

ورد الله يوسف على يعقوب وجمع شملهم، وألف بينهم، ورد بصر يعقوب عليه بعدما سأله ودعاه وألح عليه، ولم ييأس من روحه.

ولبى الله دعوة موسى فغفر له، ومكن له، وانتقم من عدوه، فأغرقه، ومزق جيوشه، ودمر دولته، وأباد قوته، وكسر عنفوان ذاك الطاغية، وجعله عبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين، وآية للسائلين، وقصة للسمار، ومثلاً لنقله الأخبار.

ورسولناﷺ سأل ربه ومولاه، وخليله وحافظه، في المواقف العظيمة، التي تشيب منها الرؤوس، والتي بلغت فيها القلوب الحناجر وظُن بالله الظنون، فكانﷺ منطرحاً بحاله على عتبات الربوبية، مسلماً أمره لخالقه، ملحاً على الله، متضرعاً إليه، هاتفاً باسمه، متوكلاً عليه، متبرئاً من الحول والقوة إلا من حوله وقوته سبحانه، مفتقراً إلى الحي القيوم غاية الفقر، ذليلاً بين يديه، منكساً رأسه، وجل منه القلب، ودمعت منه العينان، واهتز منه الكيان، وذلت منه النفس، واشتدت الحالة، وعظمت الرغبة، وكثر التضرع، ودامت المطالبة، واستمرت المناشدة، فأعطاه الله ما تمنى، فأنجز له وعده، وحقق له مراده، وأعلى كلمته، ورفع منزلته، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وأظهر الحق، وقمع الباطل، وجعل العاقبة لعباده، والدائرة على أعدائه، وفتح على رسولهﷺ الفتوح، وطوع له القلوب، وسهل عليه كل صعيب، ويسر عليه كل عسير، وكمل له الدين، وأتم عليه النعمة، وشرح له صدره، ووضع عنه وزره ورفع له ذكره، وما ذاك إلا لتمام عبوديته، ودوام مسألته ودعائه.

فالدعاء مفتاح لكل خير، وباب لكل فضل، وطريق لكل صلاح، فمن رزق حسن المسألة فقد أعطي السعادة، ونجي من الشقاوة.

وهذه سنة الله في أوليائه، فكلما صدقوا في الطلب مع تحقيق العبودية فتح عليهم، وأجيب دعاؤهم وحصلت لهم مسألتهم، والأمثلة أكثر من أن تحصى وتحصر. فهذا رسولناﷺ دعا لخادمه أنس بن مالك بسعة الرزق، وطول العمر، وكثرة الولد، وغفران الذنب، فحقق الله له ذلك [(١)].

ودعا لأبي قتادة بالحفظ[(٢)]، فلا زال محفوظاً هو وذريته، ودعا بالبركة في تمر جابر بن عبدالله فوفى أهل الدين[(٣)]، وبقي بحاله.

ودعا بالبركة في قليل من الماء صب عليه، فأخذ الماء يخرج من بين

(١) كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ١١ / ١٣٦ / ٦٣٣٤) في كتاب: الدعوات. باب: قول الله تبارك وتعالى: ﴿**وصَلِّ عليهم**﴾ ومن خص أخاه بالدعاء دون نفسه. ومسلم (٤ / ١٩٢٨) (١٤١ / ٢٤٨٠) في كتاب: فضائل الصحابة. باب: من فضائل أنس بن مالك، كلاهما عن شعبة عن قتادة قال: سمعت أنساً قال: قالت أم سليم للنبيﷺ: أنس خادمك. قال: «**اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته**». واللفظ لهما.

(٢) كما ثبت ذلك في صحيح مسلم (١ / ٤٧٤) (٣١١ / ٦٨١) في كتاب: المساجد. باب: قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، عن أبي قتادة مرفوعاً أوله: «**إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم**».. والحديث طويل جداً ومحل الشاهد (مرفوعاً) قوله «**حفظك الله بما حفظت به نبيه**».

(٣) كما ثبت ذلك عند البخاري (٦ / ٥٨٧) (٣٥٨٠) في كتاب: المناقب. باب علامات النبوة في الإسلام عن عامر قال حدثني جابر - رضي الله عنه - إن إباه توفى وعليه دين فأتيت النبيﷺ فقلت: إن أبي ترك عليه ديناً، وليس عندى إلا ما يخرج نخله، ولا يبلغ ما يخرجة سنين ما عليه، فانطلق معى لكى لايُفحش على الغرماء فمشى حول بيدر من بيادر التمر فدعا، ثم آخر ثم جلس عليه فقال: «**انزعوه**» فأوفاهم الذي لهم، وبقى مثل ما أعطاهم».

أصابعه كالعيون حتى كفى سبعمئة رجل[١]، ودعا في عين تبوك فأصبحت غزيرة كثيرة الماء[٢].

ودعا في الطعام بخيبر فبارك الله فيه أعظم البركة، حتى كفى الجيش كله[٣].

ودعا على المنبر في الاستسقاء يوم الجمعة فما نزل من على المنبر حتى نزل الغيث بإذن الله، وبقي أسبوعاً كاملاً لا يرى الناس شمساً من شدة المطر ونزول الرحمة وعموم البركة[٤].

ودعا على عامر بن الطفيل[٥] وأربد بن قيس، فأصيب الأول بغدة كغدة البعير فهلك، ونزل على الثاني صاعقة فأحرقته وأحرقت جمله.

---

(١) كما ثبت ذلك عند البخاري (الفتح ٦ / ٥٨٠) (٣٥٨٣) في كتاب: المناقب. باب: علامات النبوة في الإسلام، ومسلم (٤ / ١٧٨٣) (٤ ، ٥، ٦، ٧ / ٢٢٧٩) في كتاب: الفضائل. باب: في معجزات النبي ﷺ، كلاهما عن أنس: أتي النبي ﷺ - بإناء وهو بالزوراء، فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم. قال قتادة قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاثمئة، أو زهاء ثلاثمئة» واللفظ للبخاري. والزوراء: موضع بالسوق في المدينة.

(٢) جاء بذلك الأثر الصحيح عند مسلم (٤ / ١٧٨٤) (١٠ / ٧٠٦) في كتاب: الفضائل. باب: في معجزات النبي ﷺ عن معاذ بن جبل والحديث في غزوة تبوك وهو طويل وأوله (مرفوعاً): «**إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك**... الحديث» وفيه «فجرت العين بماء منهمر». وهو محل الشاهد. وفي آخر مرفوعاً: «**يوشك ، يا معاذ، إن طالت بك حياة، أن ترى ما هاهنا قد ملئ جناناً**».

(٣) كما جاء في الأثر الصحيح عند البخاري، الفتح (٧ / ٣٩٥ ، ٣٩٦) (٤١٠١) (٤١٠٢) في كتاب المغازي. باب: غزوة الخندق عن جابر بن عبدالله والحديث طويل فيه «... فأخرجت له عجينا - أي زوجة جابر - فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك، ثم قال: **ادع خابزة فلتخبز معي. واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها** ؟ وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليُخبز كما هو».

(٤) أثر صحيح: وتقدم (٣٩).

(٥) كما ثبت ذلك في صحيح البخاري (الفتح ٧ / ٣٨٦) (٤٠٩١) في كتاب: المغازي. باب: غزوة الرجيع، ورعل وذكوان، وبئر معونة عن أنس ضمن حديث بئر معونة.

ودعا لابن العباس بالفقه في الدين وعلم التأويل، فكان عجباً في هذا [(١)].

وباب إجابة الله لأوليائه باب واسع يفوق الحصر، لكن المقصود ثقة العبد بما عند ربه، ودوام مسألته لمولاه والتوكل عليه دائماً وأبداً وطلب الخير منه ودفع الضر. يقول تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

فمن أحب الخير لنفسه، وأراد نجاتها وفلاحها وسعادتها ونيل مرادها من الحق والهدى والصلاح، فواجب عليه سؤال ربه آناء الليل وأطراف النهار، فإن الله بيده كل شيء. القلب يهديه، والعمل يصلحه، والولد يعطيه، والخير يمنحه، والشر يكفيك إياه، والصعب يسهله، والعسير ييسره، والذنب يغفره، والخطأ يستره، والسعي يشكره، والكسر يجبره، والمصيبة يثيب عليها، والعمل الصالح يرفعه إليه، فما سعد من سعد إلا بقربه من ربه وحسن سؤاله ودوام طلبه، وكثرة الإلحاح عليه، ومناشدته والتضرع والرغبة إليه تعالى وتقديسه.

---

(١) كما ثبت ذلك عند البخاري (الفتح ١ / ٢٤٤) (١٤٣) في كتاب الوضوء، باب: وضع الماء عند الخلاء. ومسلم (٤ / ١٩٢٧) (١٣٨ / ٢٤٧٧) في كتاب: فضائل الصحابة. باب: فضائل عبدالله بن عباس، كلاهما عن ابن عباس أن النبيﷺ دخل الخلاء فوضعت له وضوءاً قال: **من وضع هذا؟** فأخبر. فقال: «**اللهم فقهه في الدين**» واللفظ للبخاري. ومسلم دون «**في الدين**». وعند البخاري بلفظ آخر (٧٥) عن ابن عباس: ضمني رسول اللهﷺ وقال: «**اللهم علمه الكتاب**».

وله لفظ آخر عند أحمد في مسنده (١ / ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (١ / ٤٩٣، ٤٩٤) والطبراني (١٠ / ٢٩٣) (١٠٥٨)، وابن حبان (٧٠٥٥). كلهم عن عبدالله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل حديث البخاري الأول في قصة الخلاء واللفظ المرفوع: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**».

قلت: وإسناده صحيح متصل إن شاء الله.

هذه بشرى للداعين في تسهيل أمورهم وتيسير شؤونهم، وهو كلام مصدق ووعد محقق من رب العالمين.

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾.

فهذه السورة كلها مفصحة بإذكار الله عز وجل رسولهﷺ منته عليه في شرح صدره بعد الغم والضيق ووضع وزره عنه وهو الإثم، بعد انقضاض الظهر، وهو الإثقال، أي أثقله فنقض العظم، كما ينتقض البيت إذا آل للوقوع.

ورفع جل جلاله ذكره، بعد أن لم يكن، بحيث جعله الله مذكوراً معه، والبشارة له في نفسه عليه الصلاة والسلام وفي أمته؛ بأن مع العسر الواحد يسرين، إذا رغبوا إلى الله تعالى ربهم، وأخلصوا له طاعتهم ونياتهم. وهذا وعد لا يتخلف، وميثاق لا يختلف، إنه كلما ضاقت الحيل، وأظلمت السبل، وحارت الأفكار، وأعيت البصائر، جاء اليسر، سنَّة ماضية، وقاعدة مطردة، كائنة مجرية.

فاليسر بعد العسر محسوس، ومعدود في السنن الكونية، وملموس في الآيات المعروضة، في الأنفس، والآفاق، والخليقة.

فالليل الدامس بعده صبح سافر، والظلمة العاتية بعدها نور مشرق، والجدب القاحل يعقبه غيث مريع، والجوع إثره شبع، والظمأ يتلوه ري، والمرض يعقبه شفاء، والفقر يكشفه الغنى، فكل عسر بعده يسر، ولن يغلب عسر يسرين، فلله الحمد والمنة.

وقال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وهذا وعد من أصدق القائلين وعهد من أكرم المعطين، أن يكشف الشدة بفرج، ويبدل العسر بيسرين، والله لا يخلف الميعاد.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ فالمخرج عنده سبحانه لمن اتقاه مضمون، والفرج لمن خافه ورجاه موعود، والكفاية والرعاية لمن توكل عليه حاصلة، فما على العبد إلا أن يتقِّ الله في موعد ربه، ولا يضجر من قضائه، ولا يمل من انتظار فرجه، بل يعلم أنه سوف يكشف الغمة، وييسر الأمور المهمة، ويسهل الصعاب المدلهمة.

وقال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فأخبر تعالى: أن الذي مر على قرية، استبعد أن يبعث الله تعالى هذه القرية وأهلها بعدما حل بهم الفناء، وأصبحت أرضهم خلاء، وآثارهم حواء، فلا شدة أشد من الموت والخراب، ولا فرج أفرج من الحياة والعمار، فأعلمه الله عز وجل بما فعله، وأنه لا يجب أن يستبعد فرجاً من الله وصنعاً، كما عمل به، وأنه قادر على إحياء القرية وأهلها كمال الحياه، فأراه بذلك آياته ومواقع صنعه.

وهذا غاية اللطف، ونهاية الرحمة، وكما القدرة، فالذي يقدر على أن يحيي العظام وهي رميم، قادر على أن يفرج الكرب، ويكشف السوء، ويجيب دعوة المضطر، ويسهل ما صعب وييسر ما عسر، فما على العبد إلا أن يلتجئ إلي ربه وخالقه في الأزمات، ويدعوه في الملمات، ويفزع إليه في الكربات، ليجد الروح والروحانية، والسكينة والأمن والعافية.

وإن الشقي من غفل عن دعائه، وأعرض عن ذكره، وترك مسألته؛ قال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فسبحان من تصمد إليه الكائنات، في الحوادث والكوارث والحاجات، وتلتجئ إليه المخلوقات إذا أصابها الضر وحل بها الشر، فإذا عونه وفتحه وبركته وخيره وفضله.

قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. فكم أنجى من غريق، وكم أنقذ من حريق، وكم دل على طريق، إنه الملاذ الآمن، والركن القوي؛ في الساعة الحالكة الحاسمة السوداء، وإنه المدد الذي لا ينتهي؛ يوم لا ناصر ولا معين ولا مساعد ولا عضيد، فمن قصده وطلبه وتوجه إليه، وترك من دونه، وأعرض عمن سواه جاءته ألطاف ربه، ورحمات مولاه، وفتوحات خالقه، تزيل عنه كل ما أهمه، وتبعد عنه كل ما أغمه، وتزيح عنه كل

ما أحزنه، فإن الله أجلّ من أن يرد السائل، وأكرم من أن يحرم الراغب، وأحلم من أن يعرض عن الطالب، لأنه ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ فالله وحده هو الذي ينجي من كل كرب لاغيره، والله وحده هو الذي ينقذ من كل مهلكة لا سواه، والله هو المدعو المرجو وقت الشدائد، وزمن المحنة وساعة الكارثة، فالنفوس لا تتجه إلا إليه بالفطرة، والقلوب لا تصمد إلا له بالضرورة؛ لأن ما سواه لا شيء عند الاضطرار؛ بل كل ما عداه فقير حقير ضعيف محتاج.

فقل لي بربك إلى متى تبقى القلوب شاردة مشتتة، لا تعرف حق هذا الرب المعبود، ولا الواجب لهذا الصمد الودود، فهو أحق من عبد ، وأجل من قصد، وأكرم من حمد، وأرحم من ملك، وأعز من حكم وأحكم من صنع، وأحسن من خلق، وأجود من أعطى، جل في علاه، لا إله إلا إياه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

فكان كما وعد سبحانه وتعالى، وتحقق ما قال، ووقع ما أخبر، فكانت العاقبة لرسله، والدائرة على أعدائه، وظهرت كلمة الحق، وزهق الباطل، فانظر كيف أهلك الظالمين، وجعلهم أثراً بعد عين، فهذا أغرقه، وهذا مزقه،

وهذا أحرقه، وهذا خسف به، وهذا نكل به. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ فحصلت إرادة الله، وتمت مشيئته، وانتصر المستضعفون لما اعتصموا بربهم، وفاز الصادقون لما التجؤوا إلى خالقهم، فصاروا ورثة للحق، ممكنين في الأرض، أهل الملك، وأصحاب الشأن، وأصبح أعداؤهم عبرة للمعتبرين: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وإجابة المضطر ليست لأحد إلا لله تعالى، فليس هناك من وال ولا سلطان ولا وزير ولا رئيس له هذا الشأن، أفلا يستحق من هذا شأنه العبادة؟!

إن عليك أيها العبد أن تسأل فحسب، وأن تطلب لنفسك لترى المدد من عند من لا تنفذ خزائنه.

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

إذا سألك الناس عن ربهم وخالقهم ومليكهم، فأخبرهم أنه قريب سميع مجيب، ومن دعاه لباه، ومن سأله أعطاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن ركن إليه قواه، ومن اعتز به قربه واجتباه، وهو سبحانه معروف بالإحسان القديم، معهود عنه الجميل، منتظر منه كل فضل عند الخليقة عظيم.

الأعرابي عرفه في فلاته وهو يتلمظ تلمظ الحية للماء، ويسأله أن يغيثه ماءً غدقاً في لمحة البصر، وعرفه البحارة وهم يصارعون الأمواج العاتية، وتلعب بسفينتهم الرياح، ويضطرب بهم المركب في ظلمات البحر اللجي، وموج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، فإذا عونه ومدده وفرجه وفتحه وحده.

وعرفه السجين في زنزانته، مكبل بالحديد، مغلول بالقيود، ينادي: يا الله يا الله فإذا الأبواب تفتح بقدرة القادر، وإذا القيود تحل، والفرج يحصل.

وعرفه المريض على فراشه، وهو يصارع الأمراض التي تنهشه من كل جانب، فإذا العافية تدلف من لدنه سبحانه، وإذا الشفاء ينزل من عنده تعالى.

وعرفه الفقير الذي لا يملك قطميراً، يتنهد من البؤس، ويصيح من الفاقة: يا الله يا الله، فإذا رفع الحاجة، وكشف الضائقة من عنده وحده سبحانه.

وعرفه الجائع يتضور جوعاً، ويتولى من الضر، ينادي: يا الله يا الله، فإذا رزقه سبحانه يغمره، وعطاؤه تعالى ينهمر عليه.

وعرفه المظلوم يمسح دمعته الحارة، ويخفي أنينه الساخن يهتف: يا الله يا الله، فإذا النصر الأكيد، والعاقبة الحميدة من لدن لطيف خبير.

وعرفه الغريب المنقطع، والضال التائه في البيداء ضاعت حيلته، وأضاع طريقه، فصاح: يا الله يا الله، فدلَّه السميع العليم على السبيل، وأنقذه من الهلاك.

وعرفه سبحانه الطائرُ في عشه، والدودة في الطين، والحوت في الماء، والليث في عرينه، والنملة في مسكنها، والنحلة في خليتها، يسأله الكل،

ويناديه الجميع، وتصمد إليه الكائنات. ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

روي عن الحسن البصري أنه قال: عجباً لمكروب غفل عن خمس، وقد عرف ما جعل الله لمن قالهن. قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

فهذا جزاء من صبر، وعاقبة من احتسب، ورضي بقضاء ربه، وسلم لحكم مولاه، حينها يجد رحمته وثوابه وصلاته وهدايته، فسبحان مثيب من صبر، ومزيد من شكر، والمتجاوز عن من استغفر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾.

وحسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم لما ألقي في النار، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وقالها محمد ﷺ وأصحابه في أحد فكفاهم الله ما أهمهم، ونصرهم على عدوهم(١).

وقال سبحانه ـ عن مؤمن آل فرعون ـ: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

---

(١) أنظر ص٥٦ .

فاعتمد هذا الرجل على معرفة ربه، وتوكل عليه، وفوض الأمر إليه، وأقبل عليه بكليته، وتبرأ من حوله وقوته، والتجأ إلى القوي العزيز، فكفاه الله ووقاه، ونصره وحماه، وأيده وقوّاه.

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فانظر ليونس بن متى عليه السلام لما جمع بين التوحيد الذي منه إثبات كمال الخالق، ونفي النقص عنه، وصدق الالتجاء إليه، وبين الاستغفار الذي هو براءة من كل قوة وحول إلا من قوة الله سبحانه وتعالى وحوله، وكيف أن الله أنقذه وأنجاه، وأخرجه من تلك المهالك، ودفع عنه ذلك المكروه، ثم أخبر سبحانه أن هذا ليس ليونس فحسب؛ بل سنة ماضية لا تتغير، وعادة الله لا تتبدل مع أوليائه المؤمنين، فهو ينجيهم إذا استغاثوا به، ويعطيهم إذا دعوه، ويلبي نداءهم إذا رجوه.

ومتى حقق العبد التوحيد، وتاب من ذنوبه، واستغفر من خطاياه، جاءه الفتح، وحصل له النصر، وفاجأه الفرج، فما أجمل إخلاص العمل له، الذي هو سر التوحيد، وما أحسن الاعتراف بالتقصير، والإقرار بالخطيئة، واتّهام النفس، والإزراء عليها، ونسبة الظلم لها، وإعادة السيئة إليها.

فما حصل الخير إلا بتوفيق من الله، ولا حصل الشر إلا بظلم من النفس، فسبحانه ما أرحمه وأحلمه وأكرمه.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا

وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فانظر لهؤلاء القوم الصالحين لما زلزلوا زلزالاً شديداً، وحلت بهم المصائب، وداهمتهم الخطوب، ونزلت بهم النوازل، كيف بدؤوا ـ قبل السؤال ـ بالاعتراف بالذنب، والإقرار بالخطأ، ثم طلبوا المغفرة من عنده سبحانه، فإنه لا يغفر الذنوب إلا هو، لعلمهم أن كل سوء سببه كسب النفس السيء، كما قال المولى سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾. وقال: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ فالأسلم للعبد إذا دهمته مصيبة، ونزلت به كارثة، أن يبدأ بنفسه أولاً، فيبكتها على تقصيرها وتفريطها وخطيئتها، فهي المسؤولة عما حصل، وهي السبب فيما حدث، ثم يعود إلى ربه مستغفراً تائباً نادماً متبرئاً من الحول والقوة، منكسر القلب، مظهراً شدَّة الحاجة، وعموم الفاقة، وغاية الفقر، ونهاية المسكنة إلى من بيده مفاتيح الغيب، وعنده خزائن الرحمة، ولديه مقاليد الحكم، وإليه ترجع الأمور، ومنه تطلب المسائل، وتقضى الحاجات، حينها لا تسل كم يحصل لهذا العبد من الفتوحات والرحمات، وتسهيل الصعوبات وتيسير المهمات.

اللهم فاجعل مكان اللوعة سلوة، وجزاء الحزن سروراً، وعند الخوف أمناً.

اللهم أبرد لاعج القلب بثلج اليقين، وأطفئ جمر الأرواح بماء الإيمان. يا رب ألقِ على العيون الساهرة نعاساً أمنة منك، وعلى النفوس المضطربة سكينة، وأثبها فتحاً قريباً.

يا رب اهدِ حيارى البصائر إلى نورك، وضلاّل المناهج إلى صراطك، والزائغين عن السبيل إلى هداك.

اللهم أزل الوساوس بفجر صادق من النور، وأزهق باطل الضمائر بفيلق من الحق، ورد كيد الشيطان بمدد من جنود عونك مسومين.

اللهم أذهب عنا الحزن، وأزل عنا الهم، واطرد من نفوسنا القلق.

ونعوذ بك من الخوف إلا منك، والركون إلا إليك، والتوكل إلا عليك، والسؤال إلا منك، والاستعانة إلا بك، أنت ولينا نعم المولى ونعم النصير.

اللهم حقق الآمال، وأصلح الأعمال، وحسن الأحوال، وسدد الأقوال.

اللهم اجمع شمل الأمة، واكشف الغمة، وانصر الدين وأتمَّه.

اللهم أصلح القلوب، واغفر الذنوب، واستر العيوب، واقبل توبة من يتوب، اللهم أجزل العطية، واغفر الخطية، وأحينا حياة رضية، ونسألك الميتة السوية، اللهم ألهمنا الحجة، وثبتنا على المحجَّة، ويمِّن كتابنا، ويسر حسابنا.

اللهم اشف منا العلل، واغفر الزلل، وادرأ عنا الكوارث، واحمنا من الحوادث.

اللهم أذهب الشك باليقين، وألبسنا ثوب الدين، وانصر إسلامنا، وارفع أعلامنا، وثبت أقدامنا، وسدد سهامنا، اللهم بلغ رسولنا عنا الصلاة والسلام ما غيث همع، وبرق لمع، وظبي سنح، وبلبل صدح، اللهم آته الوسيلة، وامنحه الفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً، وأعطه حوضاً مورداً، وأجب شفاعته، وأكرم وفادته، يا رب إنهم اعتزوا بأنسابهم، وافتخروا بأحسابهم، وعزنا وفخرنا بك، فلا نكن أشقى منهم بك.

يا رب إنهم جمعوا الأموال، وادخروا الكنوز، واحتاطوا بالذهب والفضة، ومالنا وكنزنا وميراثنا دينك وذكرك؛ اللهم فاغننا يوم الفقر الأكبر حتى نكون بك أغنى منهم بأموالهم.

يا رب إن البشر مدح بعضهم بعضاً وأطرى بعضهم بعضاً، ورفع بعضهم بعضاً، ومدحنا وثناؤنا وتبجيلنا لك وحدك، اللهم إنهم أملوا من ممدوحيهم جوائز وأوسمة، وعطايا وهدايا، اللهم فاجعلنا أكثر منهم حظاً بجوائزك، وأوسمتك، وعطاياك، وهداياك.

اللهم إنا رأينا من ركن إلى محبوبه، وأنس بمرغوبه، وفزع إلى قريبه، واعتمد على صاحبه، اللهم إليك فزعنا، وعليك ركنًّا، وبك وثقنا، وعليك اعتمدنا، اللهم فاجعلنا أسعد بك من القريب بقريبه، ومن الصاحب بصاحبه، ومن المولى بسيده.

اللهم إنا رأينا الرؤوس تخضع لسواك، والجباه تسجد لغيرك، والألسنة تقدس البشر، فغضبنا لذلك، وأزعجنا ذاك، فلك خضعت رؤوسنا، وسجدت جباهنا، وذلت رقابنا، اللهم إنا نسألك الغنى يوم الفقر، والعز يوم الذل، والنجاة يوم التغابن.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

كمال علمه سبحانه وعظيم اطلاعه على السرائر وما تحويه الضمائر وعلمه بالخفيات وما تنطوي عليه النيات

إذا كانت علوم البشر، وفهوم الناس، ومعارف الخلق موهبة من عنده سبحانه، وعطية منه جل في علاه، فكيف يكون علمه؟! إذا كانت هذه المواهب والقدرات والعقول خلقاً من خلقه، ورزقاً من رزقه، فكيف بقدرة مانحها ومعطيها عز وجل؟!.

علمه سبحانه علم من اطلع على السرائر، وكشف ما في الضمائر، وعَلِمَ خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. فبدأ بالعلم وختم بالعلم، واطلع على النجوى؛ لأنه يعلم السر وأخفى، فكلما همس هامس، أو تمتم ذو نجوى فالرقيب سبحانه يسمع ويرى؛ بل يعلم المكنون في الصدور قبل أن تنطق الشفاه وتكتب الأقلام في السطور، جل في علاه ولا إله إلا إياه.

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾. كل شيء مقفل حتى يفتحه هو وحده، فعنده مفاتيح القلوب والعقول والنيات والرزق والهداية والغيث والعلم والمال والملك.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وهذه حالات العبد وتقلباته في ليله ونهاره وسره وجهره، وحضره وسفره، علمها علاّم الغيوب وأحصاه على العبد.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦]

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ .

فإنه سبحانه يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، يعلم الشيء ويكتبه ويقدره، فيأتي كما علم وكتب وقدر،وسع علمه كل شيء، علم الخلائق والأعمال والسرائر قبل أن يخلقها ويقدرها ويقضيها.

الورقة تسقط بعلمه، الهمسة تنبس بعلمه، الكلمة تُقال بعلمه، النية تعقد بعلمه، القطرة تنزل بعلمه، الخطوة تنقل بعلمه، علم الحي والميت، والرطب واليابس، والحار والغائب، والسر والجهر، والبادي والخافي، والكثير والقليل.

أحاط علمه المطلق بكل موجود، واطلاعه التام بكل مخلوق، فلا يندّ عن علمه شيء، ولا يعزب عن اطلاعه شيء، ولا يفوت عن إحاطته شيء،

لا الغائب تستره غيبته عن علم الجليل، ولا الخافي يحجبه خفاؤه عن العظيم، ولا الصغير الحقير تخفيه دقته عن اطلاع اللطيف الخبير.

النجوى عنده جهر، والسر لديه علانية، والخافي لديه مكشوف.

تتكتم الضمائر عن مستودعات الأفكار، فلا يعلمه ملك مقرب، ولانبي مرسل ولا ولي محبب، ولا عالم جهبذ. ولا شيطان مارد، ويعلمها علام الغيوب.

تتستر الصدور بخواطر وواردات ومقاصد ونيات، لا ينفذ إليها سمع، ولا يصل إليها بصر، فيطلع عليها الحكيم العليم.

يلف الجنين بغشاء إثر غشاء في رحم أمه، فلا يدري أشقي أم سعيد؟! أصالح أم طالح؟! ولايدري أجله؟! ولا رزقه؟! ولا عمره؟! ويعلم ذلك من أحاط بكل شيء علماً! أو من علمه بعلمه!.

يحجب الليل بظلمته، ويغطي بأجنحته السماء، وهم يتهامسون خيفة، ويتناجون سراً، فلا يسمعهم جار، ولا يدري بهم أهل دار، ولا تنقل عنهم أخبار، ولكن اللطيف الخبير علم وسمع ورأى.

حدث بعض الصحابة أنفسهم بحديث لم يظهروه؛ بل كتموه وأسروه فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ (١).

---

(١) جاء في صحيح البخاري (الفتح ٨ / ١٨١) في كتاب التفسير، باب: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ...﴾ [البقرة: ١٨٧]. عن البراء رضي الله عنه: «لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله ﴿...عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ...﴾ [البقرة: ١٨٧].

جاءت خولة بنت ثعلبة تشكو إلى رسول الله ﷺ زوجها في زاوية بيته، ولم تسمعها عائشة وهي في البيت معهم فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(١).

أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً، فعرف بعضه وأعرض عن بعض، قالت من أنبأك هذا؟ قال: نبأني العلم الخبير(*).

بات نفر من المنافقين يحوكون الدسائس، ويحبكون الخطط فكشفهم علام الغيوب، وقال: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

تناجي المنافقون في تبوك فيما بينهم، وهمزوا ولمزوا في الرسول ﷺ والصحابة والدين، فأطلع علام الغيوب رسوله على كيدهم ومكرهم وسخريتهم(**).

جلس عمير بن وهب وصفوان بن أمية بعد بدر عند الكعبة ليلاً يدبران اغتيال رسول الله ﷺ فأخبر الله رسوله بكيدهم وأطلعه على فعلهم(٢).

---

(١) تقدم في ص ٣٩ .

(*) راجع قوله تعالى سورة التحريم «٣».

(**) انظر تفسير ابن كثير (٤ / ١٥٥ : ١٦٤) تفسير التوبة الآيات «٤١ : ٥٩»، وراجع الفتح (٨ / ١٨).

(٢) القصة أخرجها الطبراني (١٧ / ٥٦) (١١٧) عن عروه مرسلاً. ورقم (١١٨) عن محمد بن جعفر بن الزبير مرسلاً قال في المجمع (٨ / ٢٨٦) إسناده جيد وذكره من نفس الطريق ابن هشام (٢ / ٣١٦). ورقم (١١٩) عن ابن شهاب مرسلاً. وذكرها ابن حجر في الإصابة ت (٦٠٦٢) قال موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب. ورقم (١٢٠) قال: ثنا أحمد بين زهير التستري ثنا محمد بن سهل بن عسكر ثنا عبد الرزاق أنا جعفر بن سليمان عن أبي =

خاف بعض المنافقين أن يتكلم فيفضحه الوحي، فلوى رأسه علامة لرفضه إتيان الرسولﷺ ليستغفر له فنزل الوحي:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾(*).

أرسل موسى إلى فرعون فشكا له موسى جبروت فرعون، وظلمه وبطشه وغشمه، فقال الله له: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾.

علمه سبحانه للسر وأخفى من السر، وهو ما لم ينوه العبد، ولم يخطر بباله، فالله يعلم أن العبد سيفكر في كذا وقت كذا، وسينوي هذا الفعل في ذلك الوقت ، حسنات العباد وسيئاتهم في كتاب عند ربي لا يضل ربي ولا ينسى.

والعلم آفته النسيان، ونقصه الغفلة، وعدوه الجهل، ومرضه الوهم، وداؤه الشك؛ والله لا ينسى لأنه يذكر الناسي، وينبه الساهي، والله لا يغفل، لأنه أحاط بالكل علماً، ووسعهم رحمة وعلماً، والله لا يجهل فإنه يعلم كل شيء، وهو بكل شيء عليم.

وكل علم لعالِم في العالَم فهو ذرة من علمه تبارك اسمه.

وعلم البشر محدود، وعلمه سبحانه مطلق، وعلمهم ناقص وعلمه كامل،

= عمران الجولاني لا أعلمه إلا عن أنس بن مالك وذكر القصة وهي طويلة. قال في المجمع (٨ / ٢٨٧): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. أ هـ. وقال الحافظ في الإصابة ت (٦٠٦٢) وجاء من وجه آخر موصولاً أخرجه ابن منده من طريق أبي الأزهر عن عبدالرزاق عن جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجولاني عن أنس أو غيره.

وقال ابن منده: غريب لا نعرفه عن أبي عمران إلا من هذا الوجه. أ هـ.

(*) قال ابن كثير في تفسيره (٨ / ١٢٧):

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبدالله بن أبي بن سلول أهـ.

وعلمهم ينتهي، وعلمه لا نهاية له، وعلمهم فيما ظهر لهم، وعلمه في الظاهر والباطن، وعلمهم في أشياء وعلمه لكل شيء، فلا يشابهه في علمه أحد لأنه لا يشبهه في ذاته أحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

والعلم إذا لم يقترن بالحكمة اضطرب صاحبه، وإذا لم يصاحب باليقين وهِم حامله، وإذا لم يسلم من القصور نقص بحسبه من يحمله، والله عليم حكيم.

أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وخلق كل شيء بقدر، وجعل لكل أجل كتاب، ولكل نبي مستقر، ولكل شيء أجل مسمى، وجعل لكل شيء قدراً، أنبت في الأرض من كل شيء موزون، وكل شيء أنزله من خزائنه بقدر معلوم.

والله عليم قدير، لأن من علم ولم يفعل عجز، ومن قدر ولم يعلم جهل، ومن لم يعلم ولم يقدر ضل.

فالله يعلم الشيء ويقدره ويخلقه، فكان خلقه حسناً، وفعله حكمة وقدراً، الذي أحسن كل شيء خلقه، فتبارك الله أحسن الخالقين.

والله عليم خبير، وغير الله قد يعلم وليس له خبرة، وأما الله فقد وسع كل شيء علماً وخبرة، فيعلم مجمل الأشياء، ويخبر تفاصيلها، ويعلم الأمور، ويخبر ما تنطوي عليه، ويعلم ما يبدو ويخبر ما يخفي، ويعلم ما يظهر، ويخبر ما يبطن، وعلمه بالجهر، ويخبر السر.

والله وسع كل شيء رحمة وعلماً، فإن العلم بلا رحمة جبروت، والرحمة بلا علم عجز، ووضع الرحمة بلا علم حيف، ولما كان الله رحيماً عليماً لطف بخلقه ورحم عباده، وأنزل رحمته وعذابه على من يستحق، فلم يظلم ولم

يهضم، فإن الظلم تحميل العبد سيئة لم يعملها، والهضم نقص العبد حسنة عملها، فلما وسع الله كل شيء رحمة وعلماً وجب على من أحسن أن لا يخاف ظلماً ولا هضماً.

والله عليم بذات الصدور، فإن مكنون النيات، ومستور الخفيات فوق طاقات البشر لا يدري به إلا الخالق وحده، لأنه لاتُعرف ذات الصدور بنطق ولا بحركة ولا بفعل.

فإن اللسان يعرف نطقه، واليد يعلم بطشها، والرجل يُدرى مشيها، وقد يرى هذه الأمور العباد، لكن ذوات الصدور لا دليل عليها مشهود، ولا برهان قائم عليها معهود، فالله وحده العالم بذات الصدور.

ولا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله، وكل من علم شيئاً من علم الغيب من رسل الله، فإنما هو بتعليم الله لهم، فإن علم الغيب من أعظم الأدلة على قدرته سبحانه وكمال علمه، ولذلك جعل الله من أعظم آيات صدق رسله إخبارهم ببعض علم الغيب الذي علمهم الله.

وعلمه سبحانه للغيب يقتضي الزمان والمكان، فعلم الغيب الزمني للشيء علمه سبحانه قبل خلقه، وإذا خلق وبعد نهايته.

وعلم الغيب المكاني للشيء علمه سبحانه لمستقره ومستودعه وقربه وبعده.

وهو سبحانه يهب العلم لمن يشاء، ولذلك وجب على العبد أن يطلب العلم منه وحده سبحانه، فالعلم الذي يمنحه مبارك لاعيب فيه، نافع لا ضرر منه، مسعد لاهلاك معه.

فإبراهيم الخليل عليه السلام يقول:﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾.

وقال لرسول الله ﷺ: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾.

وهو علّم بالقلم من شاء من خلقه، وعلّم القرآن من أراد من عباده، وهو علم خاص.

وعلّم الإنسان البيان، وهو النطق وهو علم عام، وعلم الإنسان ما لم يعلم، وجعلهم درجات في العلم، وفوق كل ذي علم عليم.

واختص بعض خلقه ببعض علمه، فعلم أنبياءه الحجج الظاهرة، والأدلة الباهرة، والبراهين الساطعة ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾. ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾. وعلم سليمان منطق الطير وداود صنعة لبوس، وعلم آدم الأسماء كلها، وأوجب على عبده ورسوله ﷺ أن يطلب من ربه زيادة العلم: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾.

ولمّا علم سبحانه وتعالى أننا لا نحصيه بالعبادة تاب علينا، وعلم أننا نمرض فخفف عنا، وعلم أننا نذنب فتجاوز عنا، وعلم بضعفنا فيسر علينا، فله الحمد والشكر.

والله عنده علم الساعة، فلا يدري أحد بوقتها ولا بزمانها ولا بموعدها، فقد حارت الفهوم أن تدري بشيء من هذا الأمر المكتوب، وكلّت العقول أن تعرف شيئاً من هذا الأمر المكتوم، وعجزت أن تدرك شيئاً عن هذا الأمر الهائل، فهو وحده سبحانه يعلم الساعة، ويقيمها متى شاء، وقت لها زمناً ولم يخبر أحداً، وضرب لها موعداً ولم يطلع عليه بشراً، وحدد لها ساعة ولم

يُظْهِر عليها مخلوقاً ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾. ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

والله يعلم متى ينزل الغيث، فلا يعلم متى نزوله إلا هو، وهذا مما استأثر الله بعلمه، فقد يرى الناس السحاب، ويبصرون البرق، ويسمعون الرعد، ويقولون: الآن ينزل المطر، وتغاث الأرض، فلم يكتب الله نزول قطرة واحدة، لأنه هو الذي ينزل الغيث متى شاء، في أي بقعة شاء، وقد تكون السماء صحواً فلا غمام ولا رعد ولا برق ولا رياح، ثم ينشئ الله السحاب، ويرسل لواقح، وينهمر الغيث في لحظة بقدرة قادر، لأنه هو الذي ينزل الغيث.

والله يعلم ما في الأرحام، كل الأرحام، الإنسان والحيوان والطيور والحشرات، في البر والبحر، علم حملها ووضعها، وما هو الحمل، وقد سبق علمه بهذا وكتابته وتقديره ثم خلقه وتصويره ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

والله يعلم ما تكسب كل نفس غداً، فإن الغد يوم مفقود، وعالم غير موجود، ولكن الله يعلم أن النفس في غدها تكسب كذ وكذا من السعي والكد والقول والعمل والرزق والمصائب، يعلم كسبها من الخير والشر والصلاح والفساد، والحلال والحرام، والغي والرشد، والهدى والضلال.

والله يعلم أي أرض تموت بها كل نفس، في برها وبحرها، في سهلها وجبلها، فياله من علم ما أشمله، ومن اطِّلاع ما أكمله، ومن خلق ما أجمله، فكل حكمة في العالم، وكل فهم أوتيه عبد، وكل معرفة كسبها مخلوق فمن لدنه سبحانه. قال عن داود: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾.

وقال عن سليمان: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾.

وقال عن يحيى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

وعن إبراهيم: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾.

وعن محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

وعن آدم: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ولذلك قال بعض الصالحين في سجوده: يا معلم إبراهيم علمني، ويا مفهم سليمان فهمني.

كفايته سبحانه لأوليائه وغوثه لعباده وتفريجه الكربات عن خلقه

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾.

ومجيء قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾.

بعد ذكر التقوى والتوكل؛ فيه سر لطيف ومقصد شريف، فمن اتقّى ربه وتوكل عليه، فلا يتباطأ عون الله، ولا ييأس من روحه، ولا يقنط من رحمته، ولا يقطع أمله من الفرج، فإنه إذا اتقى وتوكل فسوف يأتيه الفرج لا محالة، وسوف يجد الخروج من الضيق بلا شك، لكن للأمور أوقات، وللمقدور عمر؛ لا بد أن يقضيه حتى يصل، وكل شيء عند الله بأجل مسمى، فما على العامل إلا العمل حتى يحين وقت الثواب، وما على الداعي إلا أن يدعو حتى يحصل له مراده، أو خير من مراده، ولا يقول: دعوت ثم دعوت فلم يستجب لي، بل يطمئن إلى حسن اختيار ربه، وجميل صنيعه، وجليل حكمته، وسعة علمه، وكمال قدرته، وتمام رحمته.

فالله جعل لكل شيء قدراً، له زمن لا يتجاوزه، ووقت لا يتخطاه، فإذا جاء موعد المقدور فلا يستأخر عن وقته ساعة ولا يستقدم. للكربة وقت ثم تزول، ولها زمن ثم تحول؛ لأن الله قد جعل لكل شيء قدراً.

للمرض أيام معدودة، وليال محسوبة، ثم ينكشف، لأن الله جعل لكل شيء قدرا، للهم ساعات، وللغم أوقات، ثم ينجلي بسرور لاحق، وفجر صادق لأن الله قد جعل لك شيء قدرا.

فما عليك إلا أن تعمل، وتحرص على الخير، وتبذل الوسع، وتخلص السعي، وتصحح العمل، وتحقق العبودية، ثم اترك ثمرات الأعمال، ونتائج الأحوال لذي العزة والجلال.

لا تستعجل حصول المرغوب، وإزاحة المرهوب، فالأمر ليس إليك بل إلى من جعل لكل شيء قدرا.

إن الإيمان بأعمار المصائب سلوة للمنكوبين، وإن التصديق بآجال المحن عزاء للمصابين.

إن للمكروه زمناً لا يتعدّاه أبداً، فتحيلك في إزالته قبل حينه ضرب من الهوس، وفن من فنون الوسوسة، لأن مهمتك كيف يزول؟ لا متى يزول؟ فمن حرص على كيفية زواله دعا وأخلص، وجد واجتهد، واتقى وصبر، وتوكل وأناب، وفوض الأمر إلى الملك الوهاب، ومن تعلق قلبه بزمن الزوال، ومتى يرتحل المكروه؟! استبعد الفرج، واستبطأ الروح، وصاحبه الإحباط، ورافقه الفشل، وسامره اليأس، وحادثه القنوط، فلا يزال في أودية الاضطراب، وطرق السخط والندم، والحسرة واللوم، وتمزيق القلب بسياط القلق، فقلبه فزع، وذهنه شارد، وحاله كاسف، وباله مشتت، وباطنه ناقم، ثائر معترض شاك، فلو أخلص في الدعاء، وانتظر الفرج في وقته، والنصر في حينه، وحسن العاقبة في زمانها، وجميل الصنع في ساعته، وإدراك المطلوب في موعده، لو فعل ذلك كله لأدرك سعادة الدارين، فيا سعادة من إذا أذنب استغفر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أنعم عليه شكر، ولحصل على أعظم الأجر، وانشراح الصدر، ورفعة الذكر، فالله هو المقدر، وقد جعل لكل شيء قدرا.

لا تثمر الشجرة حتى يحين وقتها، ولا تبزغ الشمس حتى يحل ميقاتها، ولا يطل القمر حتى يحصل زمن إطلاله، ولا تضع الحامل حملها؛ ولا تفطم ولدها إلا بأجل، ولا يندمل الجرح، ولا يبرأ الموعوك، ولا تعود الضالة إلا بعدما يمر بالكل العمر المقدَّر والأجل المؤقت.

فاعلم أنه لا يعني بذل الأسباب حصول المطلوب في الوقت المقترح، والزمن المختار، بل في الساعة التي كتبها الله وحده، فإنه غالب على أمره، فعال لما يريد، كل شيء عنده بمقدار، وكل شيء بأجل مسمى، وقد جعل لكل شيء قدرا.

وهو المقدم والمؤخر، أحاط بكل شيء علما، ووسع كل شيء رحمة وعلما، ووسع الكائنات لطفا وحلما، فقد أتى أمره فلا يستعجل، وقرب فرجه الأجمل، له الحكم وإليه ترجعون، فلكل أجل كتاب، ولكل شيء حد، ولكل بلاء زمان، ولكل حدث عمر، فسبحان المدبر، جل في علاه، لا إله إلا هو.

من معاني التوحيد نفي النقص عن الخالق والاستغفار من نقص المخلوق ولذلك قرن بينهما في التنزيل

يقرن كثيراً في القرآن بين التوحيد والاستغفار، لأن فيهما نفي النقص عن الخالق، والاعتذار من نقص المخلوق.

فقوله سبحانه: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراف وإقرار بوحدانيته عز وجل، وتنزيهه عن النقائص والعيوب، ثم الاعتراف بظلم العبد نفسه بالخطايا والذنوب، والاستغفار طلب، وإنما يحصل الطلب بين يدي الثناء والمدح، وأعظم مطلوب هو الله عز وجل، وأعظم ما يمدح به التوحيد الخالص، وذكر وحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فحسن تقديم هذا الثناء العظيم.

وقد ورد في الحديث: «**أفضل الدعاء لا إله إلا الله**»(١).

فسئل بعضهم كيف جعلها دعاءً وهي إثبات وتقرير؟ فقال: إن من أثنى عليك فقد تعرض لك بالسؤال كما قال أمية بن أبي الصلت:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني

حباؤك إن شيمتك الحباء

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٤ / ٩٠) (٤٣٧١)، عن جابراً مرفوعاً: «**أفضل الدعاء لا إله إلا الله، وأفضل الذكر الحمد لله**».

وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ﴾.

فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، وقدم التوحيد الذي هو أصل الأصول، وأمر بالاستغفار الذي هو سبب لحصول المحبوب، ودفع المرهوب.

فمن عرف سر هاتين الكلمتين: لا إله إلا الله، واستغفر الله، أحبهما وأكثر منهما، وتعلق بهما، وأدمن تكرارهما، وتفقه في معانيهما، وقضى وقته بين اعتراف بالجميل، وإقرار بالمعروف لصاحبه تبارك وتعالى، وثناء عليه، وإيمان بوحدانيته، والاعتراف بظلم النفس وقلة البضاعة، ورداءة المحصول، واتهام النية، والانكسار عند تذكر الخطية، ومقت الذات غاية المقت، ولام النفس غاية اللوم على ما فرطت في جنب الله، وأكثرت من مخالفة أوامر الله، وعندها يحصل عفو الله، ومغفرته ورضوانه.

فما هطلت سحائب الرضوان إلا برضا الرحمن، والانكسار بين يديه، وتفويض الأمر إليه، والتوكل عليه.

فوجب على العبد غاية الوجوب تجريد التوحيد بالتوبة والاستغفار.

فما أسعد حال من دوام على لا إله إلا الله، واستغفر الله، فغاية الكمال لرب العزة والجلال إفراده بالوحدانية، وغاية كمال العبد التبرؤ من الحول والقوة، والتطهر من الذنوب والسيئات.

وانظر كيف جمع الله في كتابه بين التوحيد والاستغفار فقال: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ فالاستقامة إليه توحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ونفي الند والضد والشريك، والكفو عنه والاستغفار طلب الصفح عن الخطيئة والاعتذار من المخالفة، والتبرؤ من الذنب، والعفو عما

سلف، والتجاوز عما حصل، ولذلك جمع بينهما الرسولﷺ في سيد الاستغفار فقال: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي؛ فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[1].

وكأنك حينما تجمع التوحيد والاستغفار تقول: أنت يا الله الواحد الأحد الغني القوي الحي القيوم ذو الجلال والإكرام، والعزة التي لا تُرام، والركن الذي لا يُضام، ليس لك في الملك شريك، ولا نعلم لك سميا، وليس لك كفؤ ولا مشابهة، ولا إله آخر ولا رب سواك، ولا خالق إلا أنت، وليس لنا من دونك ولي ولا شفيع ولا ناصر، ولا كافي، ولا محيي ولا مميت، ولا مطعم ولا رازق، وأنا العبد الفقير المذنب المخطئ المقصِّر الضعيف العاجز، قليل الحيلة، كثير الإساءة، عظيم الجرم، ناقص العلم، الظالم لنفسي، المسيء في عملي المسرف في معصيتي.

---

(1) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١١ / ٩٧ ، ٩٨) (٦٣٠٦) في كتاب الدعوات. باب: أفضل الاستغفار، عن شداد بن أوس مرفوعاً بلفظ المصنف وزيادة: «**ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة**».

وجوب ذكره سبحانه وشكره ودوام تقديسه وتسبيحه وتكبيره وتحميده وأن ذكره أفضل الأعمال وأشرف الخصال، وأحسن الأقوال

ذكر الله سبحانه وتعالى شفاء للصدور من مرض الشك، ودواء للقلب من داء القلق، وعلاج للضمير من الخواء، وحماية للنفس من الانحراف، فهو البلسم المجرب، والغذاء المبارك، والدواء النافع، والطعام الطيب.

ذكر الله أنيس الوحيد في الخلوة، وعزاء المصاب عن كل فقيد، وخلف المنكوب عن كل نفيس، فهو الاطمئنان ساعة الفزع، والسكون وقت الهلع، والثبات زمن الفتنة.

ذكر الله المال الذي لا تحميه الرجال، والكنز الذي لا يخاف عليه النهب، والذخيرة التي لا تصل إليه يد، فهو عز لأنه تذكير بالعزيز، وهو غناء لأنه تسبيح للغني، وقوة لأنه تنويه باسم القوي، ذكر الله غنى لمن افتقر، وزيادة لمن شكر، وعدة لمن صبر، فالفقير الذاكر عنده القناطير المقنطرة من اليقين وحسن الظن والثقة بالوعد، والاطمئنان إلى حسن المصير، وكرم العاقبة، وراحة الخاطر، والغني الذاكر يحمل أوسمة الشكر، ويتوج بأكاليل الحمد، فهو في سلم القبول راقٍ، وفي مدارج العبودية صاعد، وفي سماء الوفاء والصدق مجنح، والصابر الذاكر في جنة من الرضا، وفي نعمة الإيمان بالمقدور، يلمح الأجر، وانحطاط الوزر، وقرب الفرج، وعبودية التسليم، وجلالة مقام الانقياد للقضاء، فالذكر غنى وثروة وعدة وذخيرة وقوة.

ذكر الله عز وجل من أجله أقيمت الشعائر، ونزلت الشرائع، وفرضت الصلاة، وسنت مواسم الخير، ومناسبات الملة، وأعياد الدين.

ذكر الله أسهل ما يقال، وأخف ما يعمل، وأيسر ما يحمل، وأجمل ما يفعل، ولكنه أكبر شيء في الميزان، وأحب شيء إلى الرحمن، وأجل سعي للإنسان، فلا يوازيه عمل، ولا يجاريه كد، ولا يضارعه خير، ولا يسبقه مجاهد، سبق المفردون، الذاكرون الله كثيرا والذاكرات.

وذكر الله عز وجل صدقة بلا مال، وجهاد بلا قتال، ومرابطة بلا انتقال، ومجاهدة بلا مشقة، وتضحية بلا عسر.

ذكر الله استغناء عن الطمع إلى الناس، والحاجة إلى الخلق، والتذلل للأكابر، والافتقار إلى البشر، وانتظار ما في أيدي البخلاء، والتملق للأدعياء.

ذكر الله أمان لمن في الأرض، وميثاق أكيد لحسن رعاية العزيز الحميد، ووسيلة عظمى لألطاف الكريم المنان، وطريقة مثلى للوصول إلى أسمى غايات العبودية، والطاعة والانقياد.

وهو آية على الصدق، وبرهان على البر، ودليل على الفضل، وعلامة على الاصطفاء، وسمة للأولياء.

فالذاكر ولي حبيب، قريب إلى الوالي السميع القريب المجيب.

فالله عز وجل أمرنا أن نذكره، وأوجب علينا أن نشكره، وأخبرنا أن الكائنات تسبح بحمده، وأن الموجودات مذعنة له، قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ

إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾، وقال: ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾.

وقال: ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾.

وقال: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾.

وقال: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾.

وقال: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾.

وقال: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾.

وقال: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾.

وقال: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾.

وقال: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

وقال ﷺ في الحث على ذكره والحض على تسبيحه **«سيروا هذا جُمْدان، سبق المفردون الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»**[1].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٤ / ٢٠٦٢) (٤ / ٢٦٧٦) في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب: الحث على ذكر الله تعالى.

عن أبي هريرة مرفوعاً: **«سيروا هذا جُمدان. سبق المفردون»**. قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ **قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»**.

وقال: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم؛ فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟** قالوا: بلى يا رسول الله. قال: **ذكر الله**»(١).

وقال: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**»(٢)، وأوصى رجلاً فقال له: «**لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله**»(٣).

وقال «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»(٤).

---

(١) الحديث إسناده صحيح أخرجه الترمذي (٥ / ٤٥٩) (٣٣٧٧) في سننه في كتاب: الدعاء. باب: ٦، وابن ماجه (٢ / ١٢٤٥) (٣٧٩٠) في كتاب الأدب. باب: فضل الذكر. والحاكم (١ / ٤٩٦) كلهم عن أبي الدرداء مرفوعاً. قال العلامة الألباني في المشكاة (٢٢٦٩): إسناده صحيح مرفوعاً. أ هـ. وراجع نتائج الأفكار لابن حجر (١ / ٦٥، ٩٦) والعلل للدارقطني (٦ / ٢١٥) والتمهيد (٧ / ٥٧).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١١ / ٢٠٨) (٦٤٠٧) في كتاب: الدعوات . باب: فضل ذكر الله عز وجل ومسلم (١ / ٥٣٩) (٢١١ / ٧٧٩) في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها. باب: استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد عن أبي موسى مرفوعاً: بلفظ المصنف ولكن «..... **والذي لا يذكر ربه**».

أما رواية مسلم فهي: «**مثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه، مثل الحي والميت**».

(٣) حديث صحيح: أخرجه الترمذي في سننه (٥ / ٤٥٨) (٣٣٧٢) في كتاب: الدعاء. باب: ما جاء في فضل الذكر. وابن ماجه (٢ / ١٢٤٦) (٣٧٩٣) في كتاب: الأدب. باب: فضل الذكر، وأحمد في المسند (٤ / ١٨٨) وصححه الحاكم (١ / ٤٩٥) وأقره الذهبي. كلهم عن عبدالله بن بسر مرفوعاً بلفظ المصنف وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٠٦٠).

(٤) حديث صحيح: أخرجه البخاري: (الفتح ١١ / ٢٠٦) (٦٤٠٦) في كتاب: الدعوات. باب: فضل التسبيح. ومسلم (٤ / ٢٠٧٢) (٣١ / ٢٦٩٤) في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظه المذكور.

وقال: «**لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس**»(١).

وقال: «**من قال سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة**»(٢).

وقال: «**أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت**»(٣).

وقال: «**من قال سبحان الله وبحمده، مئة مرة، غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر**»(٤).

وقال: «**من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، مئة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مئة حسنة،**

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٤ / ٢٠٧٢) (٣١ / ٢٦٩٤) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظه المذكور.

(٢) درجة الحديث حسن لغيره. أخرجه الترمذي (٥ / ٥١١) (٣٤٦٤) (٣٤٦٥) في كتاب الدعوات. باب: ٦٠ . والنسائي في الكبرى (٦ / ٢٠٧) (١٠٦٦٣) كتاب عمل اليوم والليلة باب: ثواب من قال: سبحان الله العظيم والحاكم (١ / ٥٠١، ٥١٢) وابن أبي شيبة (١٠ / ٢٩٠) وابن حبان (٨٢٧). كلهم عن أبي الزبير عن جابر مرفوعاً بلفظه والحديث ضعيف لعنعنة أبي الزبير وهو مدلس، وهذا ضعف يسير ينجبر بالشواهد، راجع الصحيحة (٦٤)، ونتائج الأفكار (١ / ١٠٢).

(٣) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٣ / ١٦٨٥) (١٢ / ٢١٣٧) في كتاب الآداب. باب: كراهية التسمية بالأسماء القبيحة، وبنافع ونحوه. عن سمرة بن جندب مرفوعاً وهو جزء من حديث.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١١ / ٢٠٦) (٦٤٠٥)، ومسلم (٤ / ٢٧٠١) (٢٦٩١) سبق ذكر الكتاب والباب كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ «... **حطت خطاياه وإن كانت** ... » ومسلم «**ولو كانت**».

ومحيت عنه مئة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا أحد عمل أكثر من ذلك»[(١)].

وقال لأحد أصحابه: «**ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله**»[(٢)].

وقال: «**لقيت إبراهيمﷺ ليلة أُسري بي فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»[(٣)].

وفي الحديث القدسي يقول سبحانه: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني فى ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»[(٤)].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١١ / ٢٠١) (٦٤٠٣) في كتاب الدعوات. باب: فضل التهليل. ومسلم في باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩١) كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً واللفظ المذكور لهما.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١١ / ٢١٤) (٦٤٠٩) في كتاب الدعوات. باب: قول لا حول ولا قوة إلا بالله ومسلم (٤ / ٢٠٧٧) (٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٢٧٠٤) في كتاب الذكر. باب: استحباب خفض الصوت بالذكر كلاهما عن التيمي عن أبي عثمان عن أبي موسى مرفوعاً آخر جزء من حديث «.... **يا أبا موسى أو يا عبدالله بن قيس ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة؟** قلت: بلى. قال: **لا حول ولا قوة إلا بالله**». واللفظ للبخاري.

(٣) الحديث حسن لشواهده: أخرجه الترمذي (٥ / ٥١٠) (٣٤٦٢) في كتاب الدعوات. باب: ٥٩ عن ابن مسعود مرفوعاً الحديث قلت: وسند الترمذي ضعيف ولكن الحديث له شواهد وطرق يحسن بها والله وأعلم. انظرها في نتائج الأفكار لابن حجر (١ / ١٠٢٩٨) ولذلك حسنه ابن حجر. وراجع الصحيحة (٦٤).

(٤) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١٣ / ٥١٢) (٧٥٣٧) في كتاب التوحيد، باب: ذكر النبيﷺ وروايته عن ربه، ومسلم (٤ / ٢٠٦١) (٢،٣ / ٢٦٧٥) كتاب الذكر، باب: الحث على ذكر الله تعالى، كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً وما ذكره المصنف طرف من الحديث ومحل الشاهد: «..... **إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم...**». واللفظ لمسلم. والبخاري ذكره مختصراً.

وقال بعض العارفين: يا أنيس من ذكره، ويا مزيد من شكره. وقال بعضهم: لا آنس الله من لم يأنس به في خلوته.

وقيل لبعضهم: ألا تستوحش وأنت وحدك؟ قال: كيف أستوحش، وهو يقول: أنا جليس من ذكرني.

وقال آخر:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم

ونترك الذكر أحياناً فننتكس

وقالوا: ذكر الله شفاء ودواء، وذكر الناس مرض وداء.

ومن داوم على ذكره عز وجل قوي بلا عشيرة، واغتنى بلا مال، وشرف بلا جاه، وعز بلا نسب، وأفلح في الدنيا والآخرة.

وقال بعض الأولياء: عجباً لمن عرفه ثم نسيه، وذكره ثم غفل عنه.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ هو ذاكر الله في كل زمان ومكان. وذكره سبحانه طرد الخنّاس، وأمان من الوسواس، وغنى عن الناس.

وأسعد الناس الذاكر لله، فبالذكر تسعد نفسه وأهله وإخوانه وجلاسه، وبالجلوس معه تنزل الرحمة، وتحل البركة، ويقع الأُنس، ويحصل الخير، ويعظم الأجر، ويطرد الشيطان، ويرضى الرحمن، وتحف الملائكة، ويذكر الله أهل المجلس فيمن عنده، ويحفظ العمر، ويغفر الذنب، ويدر الرزق ، ويسهل ما صعب، وييسر ما عسر، ويحصل بذكر الله تأليف القلوب، واجتماع الرأي والهداية، والسداد لكل عمل صالح.

فأسعد الناس أذكرهم لربه، وأطوعهم لخالقه، وأكثرهم تسبيحاً وتكبيراً وتحميداً وتهليلاً له، فمن اشتغل بالله فرَّغ قلبه لطاعته، وهيأ له من يخدمه، ومن اشتغل بغيره شغله بنفسه، وملأ قلبه شغلاً، وفرق شمله، وأدام فقره، وضيع عليه عمره، وصعب عليه حاجته، وعسر عليه مطلوبه، وأغلق دونه أبواب الخير، وحرمه مواسم الرحمات، ومنعه لطائف النفحات.

ثم إنه لا يصلح شيء في العالم تشتغل به إلا الله عز وجل، لأنه صاحب الطول والفضل والنعمة والإحسان، فهو مستحق للعبودية الصادقة، والطاعة الدائمة، والذكر الحسن، والشكر الكثير، جل في علاه.

عظمة (لا إله إلا الله)
وكبير قدرها وثقل وزنها وجلالة منزلتها وسمو مكانتها

فهي أصدق العبارات، وأجمل الكلمات، وأفضل الحديث، وأجل الحسنات، إذا قال العبد في الأرض: **لا إله إلا الله**، قال الله في السماء: صدق عبدي، لا إله إلا أنا، هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وميثاقه الذي أخذه من الناس، ودعوة رسله التي بعثوا بها، ومنطوق كتبه التي أنزلها، من أجلها قام سوق الجنة وسوق النار، وبسببها مد الصراط، وتطايرت الصحف، ووضع الميزان، وسل سيف الملة، ورفع علم الجهاد، وسقطت جماجم الأبطال، وطارت أرواح الشهداء، ولذ طعم الموت، وأمهرت المنايا نفوس المقاتلين.

لا إله إلا الله تزن السموات والأرضين فترجح، لو كانت في حلقة حديد مبهمة لفصمتها، لو دخلت صخرة ملساء لفجرتها، لو هبطت على جبل لتصدع، ولو نزلت على صخر لتفجع، خير ما قال الأحياء، وأحسن ما ذهب به الأموات، من صدق في قولها نجا وأفلح، وسعد وأنجح، بها يعصم دمه ويُصان عرضه، ويحفظ ماله، ويهنأ عيشه، ما فهمها فرعون فدس أنفه في الطين، وما نطقها أبو جهل فوضع في القليب، وكفر بها قارون فخسف به، هي البداية والنهاية، ورأس الأمر، ورأس القضية، وقصة الحياة، وحديث العمر، لها في القلوب هيبة، وفي النفوس جلالة، تفتح بها أبواب علام الغيوب، وتغفر بها الذنوب، وتلين عند ذكرها القلوب، بها تدك حصون الأعداء، ويهد جدار البغاة، وتسحق فلول المارقين، تحاج عن صاحبها، تدافع عن قائلها، تذب عن روادها، تشفع لأنصارها، هي العروة الوثقى، والدرجة الرفيعة، والكلمة

الطيبة، شافية كافية، جامعة مانعة، عامة كاملة. يبدأ بها الأمر وينتهي، وتفتح بها المسائل وتختتم.

على صوت **لا إله إلا الله**، تقدم أبطال بدر يصدقون الله ما وعدوه، وعلى جلجلة **لا إله إلا الله** سالت دماء الشهداء في أحد لأنهم عليها بايعوا المعصوم وعاهدوه، ولِنصرتها اغتيل يحيى، وأهدر دم زكريا، وسعرت النار للخليل، وحورب الكليم.

على زجل **لا إله إلا الله** ضرج حمزة بدمه، وقطعت يدا جعفر، واحتز رأس مصعب، ﴿**فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ**﴾ صَدَّقها أبو بكر فتوج بتاج الصدق، فلا يعرف في العالم إلا بالصديق ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ وكذب بها مسليمة فخطم بوسم الكذاب، فلا يعرف في الخلق إلا بالكذب ﴿**فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ اهتز لها قلب عمر فاهتزت الدنيا بيقينه، وأنصتت المعمورة لصوته، وذاقها عثمان فأنفق من أجلها طارفه وتليده، وتعلمها علي فلبس قميص **يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**، بآثارها غسل حنظلة بين السماء والأرض[١] ولأجلها قال أنس بن النضر: إني لأجد ريح الجنة من دون أحد[٢]، ولها أنشد جعفر: يا حبذا الجنة.. **لا إله إلا الله** نافية مثبتة، نافية للأنداد والأضداد والشركاء والدخلاء

---

(١) القصة ثابتة وهي عند الحاكم (٣ / ٢٠٤، ٢٠٥)، والبيهقي في الكبرى (١٥/٤) كلاهما من طريق ابن إسحاق حدثني يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن جده في قصة أحد وذكر تغسيل الملائكة لحنظلة قلت: وهو مرسل صحابي لأن ابن الزبير كان له يوم أحد سنتان ومرسل الصحابي في حكم المتصل والله أعلم. وإسناده صحيح متصل إن شاء الله. وذكر قصة تغسيله في الزاد (٣ / ٢٠٠).

(٢) الأثر صحيح: وتقدم ص١١٦ .

والطواغيت والأصنام والأوثان، مثبتة الألوهية للخالق الحق، الحي القيوم، مثبتة له العبودية والعظمة والتفرد والكمال والجمال والجلال، **لا إله إلا الله** تذهب الهموم، وتزيل الغموم، وتحرق الخطايا، وتكفر السيئات، وترضي الرب، وتغضب الشيطان.

الله أكبر كل هم ينجلي

عن قلب كل مكبر ومهلل

لا إله إلا الله وثيقة ربانية، هبط بها جبريل إلى الأرض، وحملها موسى إلى فرعون، وأعلنها محمد ﷺ من على الصفا[1] ونادت ببنودها الأنبياء، ودافع عن مثلها المصلحون، قلها إذا أصبحت ليكن يومك غرة في الأيام ونهارك سعيداً على الدوام، يسهل فيه عملك، ويكثر فيه رزقك، وقلها إذا أمسيت ليكن ليلك أمناً وأماناً، وروحاً وريحاناً، تحفظ فيه من الطوارق، وتصان فيه من الحوادث.

إذا رأيت السماء المرفوعة بلا عمد، وقد مدت أجنحتها على الأرض لا يمسكها إلا الله، فقل: **لا إله إلا الله.**

وإذا رأيت الجبال هائمة في الخيال تمد أعناقها بلا مبالاة، وتغوص في الأعماق في جبروت فقل: **لا إله إلا الله.**

(١) ثبت ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري، (الفتح ٣ / ٢٥٩) (١٣٩٤) في كتاب الجنائز. باب: ذكر شرار الموتى. ومسلم (١ / ١٩٢) (٢٠٤ / ٣٤٨) في كتاب: الإيمان. باب: في قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾. كلاهما عن أبي هريرة: «لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: **يا بني فهر، يا بني عدي....** الحديث بطوله». ولفظه هذا عند البخاري (٤٧٧٠) وله ألفاظ أخرى عنده في (٣٥٢٥) (٣٥٢٦) (٤٧٧٠) (٤٨٠١) (٤٩٧١) (٤٩٧٢) (٤٩٧٣).

إذا أدبر الزمان، وجار السلطان، وجفاك الإخوان، فقل: **لا إله إلا الله**، فإذا الطمأنينة والرضى والأمن والأمان.

إذا احلولك الظلام، وتغيرت الأيام، وتضاعفت الأسقام، فقل: **لا إله إلا الله**، فإذا النور والسعادة والأنس.

إذا اشتد الخطب، وعظم الكرب، وجثم الأمر الصعب، فقل: **لا إله إلا الله**، فإذا الفرج والنصر والفتح.

أيها المعذبون في الأرض، المجلودون بسياط الجور، المحبوسون في زنزانة العدوان، قولوا: **لا إله إلا الله**، لتذوقوا طعم الحرية، وتعرفوا معنى الإنسانية وتدركوا سر الحياة.

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

أيها الجائعون الباحثون عن فتات الخبز على أرصفة اليأس، المنطرحون على عتبة الحرمان، المتقلبون على جمر الأسى، قولوا: **لا إله إلا الله**، لتجدوا عوضاً عن الخيبة، وملاذاً آمناً من الخوف **﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**.

أيها الباكون من أوجاع المصائب، الساهرون من جراح النوائب، قولوا: **لا إله إلا الله**.

أفي الله شك أيها الملاحدة الجبناء حتى تصعب على ألسنتكم الآثمة أن تقول: **لا إله إلا الله**.

أفـي الله شـك أيتها الشـيوعية الحمـراء حتى تحجبي عن أتباعك أنـوار **لا إله إلا الله** بعصائب الخزي، وحواجز الافتراء، وقضبان البهتان والزور؟!

لكن **لا إله إلا الله** اقتحمت معاقل الزمان الآن لتلصق خدودهم بأوحال الدمـار، وتخـرج أتبـاعـهـم المقلدين من تحت أقـبـيـة الظلم، ومن بين أنـقـاض الرجس، ليسمعوا في صراحة وصرامة **لا إله إلا الله**.

اخـرجـوا وانظروا إلى الأرض إذا نزل عليها الماء كيف تهتـز وتنبت من كل زوج بهيج، وإذا مسها الغيث ازيّنت وأخذت زخرفها لتعلموا أن **لا إله إلا الله**.

اخـرجـوا وانظرورا إلى الحـبـة والورقـة واليـرقـة والسـناء والضـيـاء والماء والظل والطل والنور والظلمة والحر والقر لتعلمواً أن **لا إله إلا الله**،

قال سبحـانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾، وقـال: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. وقـال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وقال: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

وفي الحديث: «**خيـر ما قلت أنـا والنبيـون قبلي يوم عـرفـة، لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير**»(١).

وقـد صـح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قـال: «**من شـهـد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار**»(٢).

---

(١) الحديث حسن بشواهد: أخرجه الترمذي (٥ / ٥٧٢) (٣٥٨٥) في كتاب الدعوات. باب: في دعاء يوم عرفة. عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً: «**خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون .....الحديث**» راجع الصحيحة (١٥٠٣)، والمشكاة (٢٥٩٨) وتلخيص الحبير (٢ / ٢٥٤).

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٥٨،٥٧،١) (٤٧ / ٢٩) في كتاب الإيمان. باب: الدليل أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً. عن عبادة بن الصامت مرفوعاً ضمن حديث آخر.

وقال: «**أشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة**»(١).

وقال نوح لأبنائه: «**عليكم بلا إله إلا الله فوالذي نفسي بيده لو كانت لا إله إلا الله في حلقة من حديد مبهمة لقصمتها لا إله إلا الله**»(٢).

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١ / ٥٥،٥٦،٥٧) (٢٧ / ٤٤،٤٥) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظه.

(٢) الحديث إسناده صحيح: أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٢٦) وأحمد في مسنده (٢ / ١٦٩، ١٧٠، ٢٢٥) ، والحاكم (٤٧١، ٤٠٩) كلهم عن الصقعب بن زهير عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن عبدالله بن عمر كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان حتى قام على رأس النبي ﷺ، فقال: إن صاحبكم قد وضع كل فارس (أو قال: يريد أن يضع كل فارس) ويرفع كل راع، فأخذ النبي بمجامع جبته فقال: «**ألا أرى عليك لباس من لا يعقل**». ثم قال: «**إن نبي الله نوحاً لما حضرته الوفاة، قال لابنه: إني قاص عليك الوصية، آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع، لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن. ولو أن السماوات السبع، والأرضين السبع، كن حلقة مبهمة لقصمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء، وأنهاك عن الشرك والكبر... الحديث**». قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد لم يخرجاه للصقعب بن زهير فإنه ثقة قليل الحديث، ثم قال الذهبي في التلخيص: صحيح الإسناد، والصقعب ثقة، ورواه ابن عجلان عن زيد بن إسلام مرسلا. أ هـ. قال الهيثمي في المجمع (٤ / ٢٢٠): رجال أحمد ثقات. أ هـ.
وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٤)، وصحيح الأدب (٤٢٦ / ٥٤٨)، وراجع الترغيب (٢ / ٤١٧).

معنى (لبيك اللهم لبيك) وتفصيل القول في مقاصدها والإشارة إلى بعض لطائفها ودلالاتها

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، دراسة شرعية لمعناها ومرماها ومقاصدها ومقتضاها.

فهي توحي للحاج أن عليه قبل أن يدخل بيت الواحد الأحد ألا يعبد ثانياً، وأن يخلع مع ثيابه عند الميقات كل ند وشريك، وأن يتجرد قلبه من غير الله كما تجرد بدنه من المخيط.

لبيك لا شريك لك هو معنى من معاني لا إله إلا الله. كان المشركون يلبون فيقولون: **لبيك لا شريك لك**. فيقول سيد الموحدين ﷺ قط قط، أي يكفي قفوا إلى هنا، فيزيدون إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فلبى عليه الصلاة والسلام بالتوحيد الخالص: **لبيك اللهم لبيك**، لبيك لا شريك لك.

ومعنى: **لبيك لا شريك لك** هو ما دعت إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام. وهو الدِّين الخالص، والعلم النافع، والعمل الصالح، والإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر؛ خيره وشره.

لبيك لا شريك لك: فلا يستحق العبادة مع الله غيره من ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عبد صالح، أو سلطان، أو نجم، أو كوكب، أو حجر، أو شريك، أو أي إنس أو جني، بل لله العبودية المطلقة، والألوهية بكل معانيها.

لبيك لا شريك لك: فلا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا ينفع ولا يضر إلا الله الواحد القهار، فهو المستحق للشكر والثناء والملك والحمد.

لبيك لا شريك لك: فمن أشرك به أحبط عمله، ومن أراد غيره أبطل سعيه، فهو سبحانه لا يقبل إلا ما كان له خالصاً، وأريد به وجهه، وسلم من إرادة الشريك وقصده غيره.

لبيك لا شريك لك: فلا يجوز لقلوب الخليقة أن تتعلق بغيره لأن بيده مقاليد السموات والأرض له الملك كله، وإليه يرجع الأمر كله، وهو حي قيوم، قائم على كل نفس بما كسبت، يحيط بخلقه، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، يعلم ما في النفوس، ولا يعلم ما في نفسه، فعال لما يريد، أمره في كن، يعلم السر وأخفى، أحسن كل شيء خلقه، ليس له سمي، وماله من ظهير، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له، هو الحي لا إله إلا هو، وهو القاهر فوق عباده، والأول والآخر، والظاهر والباطن.

لبيك لا شريك لك: يقولها ويعتقدها ويعمل بمقتضاها من سبقت لهم الحسنى، وكتبت لهم السعادة، واستحقوا الأمن، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، ولم تلتفت قلوبهم لغيره، بل كفروا بالطاغوت، وتخلوا عن الأنداد والأضداد وتبرؤوا من الأصنام والأوثان، وأطاعوا الرحمن، وعصوا الشيطان.

لبيك لا شريك لك: من معانيها اجتناب الرياء والسمعة المفسدتين للعمل، والمحبطتين للسعي، والمذهبتين للحسنات، بل يقصدون وجه الله وحده، ويرجون ثوابه، ويسألونه رضوانه ويستعيذون من غضبه وسخطه.

لبيك لا شريك لك: فلا يطوفون بالقبور متبركين، ولا يلوذون بالأولياء داعين راجين، زاعمين أنهم يملكون كشف الضر عنهم أو تحويله، فلا يشافي ولا يعافي ولا يهدي ولا يضل ولا يحيي ولا يميت ولا يخلق ولا يرزق إلا الله وحده تبارك وتعالى، فإن أهل القبور لا يسمعون دعاءهم، ولو سمعوا دعاءهم ما استجابوا لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم.

لبيك لا شريك لك: فلا يأتون الكهنة والعرافين، والسحرة والمشعوذين، وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد**»[1].

لبيك لا شريك لك: فلا يدعون الجن، أو يستنجدون بهم، أو يلوذون بهم بما أهمهم، فإن الجن خلق من خلق الله عز وجل، نواصيهم بيد الله سبحانه وتعالى، وهم مقهورون مربوبون لربهم الواحد القهار.

لبيك لا شريك لك: فيعلمون علم اليقين أن من أشرك حبط عمله، وضل سعيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (٤ / ٢٢٥) (٣٩٠٤) في كتاب الطب. باب: في الكاهن. والترمذي (١ / ٢٤٢) (١٣٥) في كتاب الطهارة. باب: ما جاء في كراهية إتيان الحائض. وابن ماجه (١ / ٢٠٩) (٦٣٩) في كتاب الطهارة. باب: النهي عن إتيان الحائض. والنسائي في الكبرى (٥ / ٣٢٣) (٩٠١٧) في كتاب عشرة النساء. كلهم عن أبي هريرة مرفوعاً: «**من أتى حائضاً، أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد**» وهذا لفظ ابن ماجه. وصححه العلامة الألباني في الإرواء (٢٠٠٦)، قلت: وأخرج مسلم (٤ / ١٧٥١) (١٢٥ / ٢٢٣٠) في كتاب السلام. باب: تحريم الكهانة، عن بعض أزواج النبي ﷺ مرفوعاً: «**من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً**».

وعند البخاري عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**من مات يجعل لله نداً دخل النار**»(١).

لبيك لا شريك لك: فيعلمون أن الرياء بالأعمال هو الشرك الأصغر، كما ورد عنه عليه الصلاة والسلام، عند أحمد والطبراني والبيهقي(٢).

لبيك لا شريك لك: فلا يجلب النفع ولا يدفع الضر إلا الله: ﴿**قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١١ / ٥٦٧) (٦٦٨٣) في كتاب الأيمان والنذور. باب: إذا قال والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ أو سبح أو كبر أو حمد أو هلل فهو على نيته. ومسلم (١ / ٩٤) (١٥٠ / ٩٢) في كتاب الإيمان باب: من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار. كلاهما عن الأعمش عن شقيق عن عبدالله مرفوعاً باللفظ المذكور وهو لفظ البخاري، ولفظ مسلم : «**من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار**».

(٢) ثبت ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه أحمد (٥ / ٤٢٨، ٤٢٩)، والطبراني في الكبير (٤٣٠١) كلاهما عن محمود ابن لبيد مرفوعاً: «**إن أخشى ما أخشاه عليكم الشرك الأصغر**، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: **الرياء**» قال الله تعالى يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم: «**اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟**». وهذا لفظ أحمد. والحديث صححه العلامة الألباني انظر صحيح الجامع (١٥٥١).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وأن الماء نعمة وهبة جزيلة من واهب النعم وكاشف النقم

الماء أغلى مفقود، وأرخص موجود، الحياة لا تقبل إلا بماء، والعيش لا يصح إلا بماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ مع الماء الخضرة والندى، والطل والرواء، والظل والحياة، ومع فقدانه الجفاف واليبس والخمود والموت، مع الماء تشدو الأطيار، وتميل الأفنان، ويبرد النسيم، ويعبق الشذى، وتخضر الأوراق، وتطيب الثمار، ومع الماء تروى الأكباد، وتترطب الشفاه وتندى الألسن، وتنتعش الأنفس، الماء مادة الحياة، وإكسير الوجود، وسر البقاء، إذا عدم الماء زحفت جيوش المجاعة، ودلفت كتائب القحط، وأسراب البؤس، يوم يقع الظمأ في العالم تذوي الأشجار، وتذوب الأكباد، وتحترق السنابل، ويموت العشب.

فإذا تدفق الماء، وتدافقت أمواجه، وأقبلت صفوفه، أقبل معه البشر والنماء والعطاء ووصل معه الرغد والهناء، بربك هل وقع على نفسك آنس من الماء على الظمأ وأهنأ منه في الهواجر، وأحلى منه في شدة الحر.

بالماء تقوم الحقول، وتتكاثر الحبوب، وتميس الحدائق، وتهمهم الجداول، وتتراقص الخمائل، وتشدوا البلابل، وتتمايل السنابل، الماء شريان نابض في قلب الأرض، إذا تعطل ماتت المعمورة، يوم ينتهي الماء من الدنيا، لا يطاق العيش ولا يستطاع البقاء، ويوم ينتهي الماء من الوجود يفتتح الهلاك قلاع الأنفس والثمرات، ويعصف الدمار بالمحاصيل والفواكه، وتأتي الإبادة على الإنسان والحيوان والنبت والجمال.

الماء نعمة من الله جليلة، وهبة من الخالق جميلة، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ خلق الماء عجيب، ونبؤه غريب، صوره ربه بلا لون، وأوجده بلا طعم، وأنزله بلا رائحة، خفيف الروح بهي الطلعة، إن رضي أسعد وأرغد، وإن غضب أزبد وأرعد، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

سبحان من خلق الماء، إذا باشر البرد الماء جمده فأصبح كالصخر صلابة، وإذا مازجه الحر صيره كالنار توقداً، إذا عذب رق ولطف حتى صار أشهى من الشهد، وإذا أسن مُج ومُل، حتى أصبح كالسم الزعاف، إن جرى طاب، وتجدد شبابه، وحسنت ثيابه، وجملت طلعته، وإن وقف تغيرت رائحته، وذهبت لذته، وشاه منظره، فسفره أحسن من مقامه، وارتحاله خير من حله، يتباشر به أهل البادية، ويتساءل عنه أهل الحاضرة. وغضب على قوم فأتاهم في وفد الطوفان، إذا سكن مشى رويداً، يتمتم بحروف الهناء والتبريك، وإذا غضب تفجر بصيحات الويل وصواعق الدمار، يأتي إلى أحبابه فيميس بين الزهر كيد الطبيب على جفن المريض، ويقبل إلى أعدائه فلا تمنعه السدود ولا ترده الحدود، فيكسر الجسور، ويقتلع الصخور، ويجعل عاليها سافلها حتى يأذن الله بسكونه، ويأمر بهدوئه ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ نزول الماء عيد على الأقطار؛ وفرح عامر لسكان الأمصار، كأن نزوله على الناس ولادة مولود، أو عود مفقود، الماء طوع أمرك، ورهن إشارتك، يصغر جسمه حتى يسعه الكوب، ويكبر حتى يملأ المحيط، تشربه فإذا هو السائغ الممتع، وتغتسل به فإذا هو المنظف النزيه، يسخن ويبرد، ويعتدل ويجمد.

الماء يحب الحرية والانطلاق، ويكره السجن والقيد، فإن حبسته في قفص الاتهام وحجزته في مكان الانتظار، تغيرت أخلاقه، واختلف مزاجه، لأنه

ظريف لطيف شريف، دعه يمر ويعبر، واتركه يسافر ويرتحل ليمر على الحدائق والحقول والمزارع، ويسلم على الخمائل والبساتين، ويزور الناس والدواب والطيور والزواحف، بل ويمر على الأرض كل الأرض﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾، ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾، ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾، ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾، ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾، ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾، ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾، ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾، ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾، ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴾.

حكمته سبحانه في خلق النوم وجعله راحة للأحياء وسكناً للخلق

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، والنـــوم مخلـوق عجـيب شـقيق للمـوت، ســاكن الحـركـات، خـافت الـهـمس، يداعب الجـفـون، ويـخـامـر العـقل، ويطـرح الجـسـم، خفيف الظل على المسرور، جهم المحيا على المحزون، فيه ملاذ من متاعب الحياة، وفيه استجمام من مصاعب العيش، إذا كثرت الغموم، وتصارعت الهموم شردت بنوم عميق لا يبقي لها أثراً ولا عيناً.

إن النوم محطة للجسم بجوارحه، تنسلخ فيه من أوصابها وأتعابها ثم تستيقظ قوية عارمة نشيطة، إذا تبلبل الفؤاد بلواعج المشاغل، واختلطت الأمور على الذهن المكدود فنم، فإذا طرقك الفزع وفاجأك القلق فنم، وإذا وقعت في اضطراب وصرت في حيرة فنم ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ ثم لأنك مخلوق ضعيف هزيل والخالق لا ينام فهو ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ ثم لأن طاقتك محددة، وأيامك معدودة، إن النوم دليل على موتك، وبرهان على فنائك، وفي الحديث: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه**»[1]، لا ينام سبحانه لأنه حي قيوم، أبدي سرمدي، ونحن ننام لأننا

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١ / ١٦٢) (٢٩٣، ٢٩٤ ، ٢٩٥ / ١٧٩) في كتاب الإيمان. باب: في قوله عليه السلام: «**إن الله لا ينام**» وفي قوله: «**حجابه نور لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**». عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع: «**إن الله عزوجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، ويرفع إليه عمل النهار بالليل، وعمل الليل بالنهار**» وهذا لفظ (٢٩٥). وراجع ترجمان السنة (٧٥) كتاب الإيمان.

جئنا من العدم وسنصير إلى الفناء، وخرجنا من التراب إلى التراب، ننام لنذكر الموت وما بعده، والقبر وما فيه، ننام لننسى الأحقاد والضغائن، والآلام والمتاعب، ننام لنستأنف يوماً جديداً وعمراً تليدا﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾.

هجدنا ونام الركب والليل مسرف

وما نمت عن ذاكراك يا طيّب الذكرى

ومن آياته منامكم بالليل، فيمسك الأرواح ويعطل الحركة، ويذهب الشعور، ويغيب الذهن، لتعلم أنك مخلوق فان، وهو واحد خالق باق، مهيمن، قدير جل في علاه.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

خلقه سبحانه الموت وكتابته الفناء على ما سواه وتفرده بالبقاء تعالى

الموت هو الوقوف على ساكن، وإعلان الخاتمة، نذير النهاية، الموت مخلوق غامض، شجاع يتسلق الجدران، ويصعد الحيطان، لا يحتمى منه بقلاع، ولا يمتنع منه بحصون: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ واقف في الطريق بالمرصاد: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ زائر لا يستأذن، وضيف لا يعرف المجاملة، الناس عنده سواسية، الثري واسع الغنى كالفقير المتهالك، ليس له وقت في الزيارة معلوم، وليس له زمن في اللقاء مفهوم، مزاجه عجيب، ونبؤه غريب، يدلف في السحر، ويقدم في الظهيرة.

يا نائم الليل مسروراً بأوله

إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

الموت ينزل الراكب من على ظهر البعير، ويرجل الفارس من على صهوة الفرس. لا يرجئ الجائع حتى يشبع، ولا الظامئ حتى يروى، ولا النائم حتى يستيقظ، ولا المسافر حتى يقيم: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قيس بن ساعدة عنده كباقل، وحاتم لديه كمادر، وعنترة في حكمه كأبي حية النميري، قدم على الخليل والنمرود، وزار موسى وفرعون، واختطف بلالاً وأمية بن خلف، إذا تمت ليلة العرس، وحفلة الزواج، ومهرجان الأفراح، وضرب دف الطرب، ولعلع صوت الأنس، وأضيئت مصابيح السرور، فاجأ

الحفل يقبض العريس، وأبكى الحضور، ونغص السمر، وكدر السعادة، وجدد العويل، وقلب الفرح إلى ترح.

إذا اجتمع الوالد بولده، وأنست الأم بأبنائها، وطاب اللقاء، وحصل الوصال، وعم البشر، دخل فجأة فأخذ الأب، والتقم الأم، وحمل الابن ليضعه في حفرة الموت، يأخذ الطفل وفمه في ثدي أمه، وهو يصيح وأمه تولول وأبوه ينوح، فلا يرحم ولا يقف ولا يراجع نفسه، إذا حاز التاجر تجارته وأحرز بضاعته وجمع ماله وعدده، وظن أن ماله أخلده، قفز عليه الموت من نافذة القدر، فوضع خده على التراب، ونثر دنانيره، ومزق أكياسه، وعبث بدوره، وعطل قصوره.

إذا ولي صاحب المنصب منصبه، وسعد بمنزلته، وتساقطت عليه أوراق الحظ وخطابات التهنئة، وبرقيات التبريك، سقط الموت على رأسه فجأة، فقلب كرسيه وسحب سرسره، فحول الهناء عزاءً، والفرح ترحاً، والعطية بلية.

إذا استوى الشاب على سوقه، وصلب عوده، وقوي متنه، واهتزت كتفاه، وترنح عطفاه، طرحه الموت أرضاً، فبقر بطنه، وجدع أنفه، وفقأ عينيه، ودق جمجته، وحطم عظامه، وهلهل أسنانه، ومزق لسانه.

الموت يصرع الشجاع والسيف في يده، وخوذته على رأسه، لا الكريم يشفع له جوده، ولا البخيل يمنعه إمساكه، ولا المقدام يذود عنه بأسه، ولا الجبان يحصنه فراره.

الموت لا يستحي من الكل، ولا يرهب الجميع، ولا يوقر الأحياء: ﴿ كُلُّ مَنْ

عَلَيْهَا فَانٍ﴾. يموت الكل إلا واحدا، ويذهب الجميع إلا واحداً ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

الموت قذيفة لا يدري من أين تأتي، مرة من فوق، ومرة من تحت، تارة من اليمين، وأخرى من اليسار.

الموت ينزع العينين، ويشق الشفتين، ويفصل الكفين من الساعدين، والساعدين من العضدين، والعضدين من الكتفين، فمهمة الموت نثر المنظوم، وهدم البناء، وطمس الجمال، وتفريق المجتمع ، الموت دمع وعويل وأسىً ولوعة وأسف، الموت وداعٌ إجباري وهجوم خاطف، واقتحام مأساوي، هدد الله بالموت اليهود فتعلقوا بأذيال البقاء، وناداهم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ احتمى الملوك بالجنود فنجوا إلا من الموت، اتفق المريض والطبيب وصانع الدواء وبائعه وصارفه على خطة يسلمون فيها من الموت، فماذا حصل؟

مـــــات المداوي والمداوى والـذي

صنع الدواء وباعـــه ومن اشـــترى

الموت لا شماتة فيه لأنه عام لا خصوص له، مطلق لا يقيد، حر وليس بعبد، أنزل آل كسرى في الحفر، وسحب سيف ذي يزن من غمدان، وبطش بالمناذرة، وداس الغساسنة، هجاه الشعراء فجعلهم أثراً بعد عين، وحذر منه الخطباء فجرهم من على المنابر، ووصفه الأطباء فقتلهم بعقاقيرهم: ﴿حَتَّىٰ

إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

خلق الله الموت ليبقى وحده، وأوجد الفناء ليرث أهل الأرض والسماء، وكتب الهلاك على الكائنات ليكون المتفرد بالملك عن جميع المخلوقات.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ تحدث عن الموت بصفته من قدر الله، وفيه على الفرد مصيبة، وعلى الجماعة رحمة، فكيف لو بقي من مات؟ كيف يكون عيش الناس؟ كيف لو أن كل ابن تمنى أن أباه لم يمت فما مات، كم سنجد من الآباء والأجداد الأكابر الذين هم بحاجة إلى رعاية وعناية فالموت فيه راحة للأموات والأحياء.

عظمته سبحانه وكمال قهره وعلو قدره وشدة بطشه وعظيم قدرته ونفاذ مشيئته وغلبة أمره عز وجل

من أعظم أسمائه سبحانه: العظيم، ومن أعظم صفاته العظمة، فهو عظيم في ذاته، عظيم في أسمائه وصفاته، عظيم في أفعاله، وهذه أحاديث عن عظمته سبحانه كلها صحيحه.

يقول عليه الصلاة والسلام: «**إذ قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوانٍ. قال: عليٌّ وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك**» - ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[1].

وقال: «**أرأيتم ما أنفق الله عز وجل منذ خلق السموات والأرض فإنه لم ينقص ما في يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الميزان، يرفع ويخفض**»[2].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري الفتح (٨ / ٥٣٧، ٥٣٨) (٤٨٠٠) في كتاب التفسير. باب: ﴿حتى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.
عن أبي هريرة مرفوعاً: «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم. قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقُ السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض**- ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه - **فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مئة كذبة. فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء**». وسفيان المذكور هو شيخ شيخ البخاري.

(٢) حديث صحيح: متفق عليه تقدم في حديث «**يمين الله ملأى...**». ولفظ «**أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماء والأرض لم يغض ما في يمينه، وعرشه على الماء وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض**».

وقال: «**قدر الله عز وجل المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**»(١).

وقال: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»(٢).

وجاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع والأراضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٣).

وقال: «**لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه فتقول: قط قط، وعزتك ويزوي بعضها إلى بعض**»(٤).

وقال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء**»(٥).

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٤ / ٢٠٤٤) (١٦ / ٢٦٥٣) في كتاب القدر. باب: حجاج أدم وموسى عليهما السلام. عن عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعاً «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء**» وراجع ترجمان السنة (١٠٦).

(٢) (٣) (٤) آثار كلها صحيحه ثابتة. وتقدمت.

(٥) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦ / ٢٨٦) (٣١٩١) في كتاب بدء الخلق باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. عن عمران بن حصين ضمن حديث ومحل الشاهد المرفوع. «.... **كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض**». وراجع ألفاظه (٣١٩١) (٤٣٦٥) (٤٣٨٦) (٧٤١٨).

وقال: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل؛ حتى تطلع الشمس من مغربها**»(١).

وقال: «**إن الله تعالى زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ مُلكها ما زُوي لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض**» (٢).

وقال: «**قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحداً**»(٣).

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: حدثني رجال من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رُمي بنجم فاستنار فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم. فقال رسول الله ﷺ: **فإنها لا يُرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال، قال: فيستخبر بعض أهل السموات بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع**

---

(١) حديث صحيح: وتقدم.

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٤ / ٢٢١٥) (١٩ / ٢٨٨٩) في كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض عن ثوبان مرفوعاً بلفظه المذكور وهو طرف حديث.

(٣) حديث صحيح: وتقدم.

فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون به فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون»(١).

وقال: «إن لله عز وجل تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»(٢).

وقال : «يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده فيقول: أنا الملك أين الجبارون وأين المتكبرون» (٣).

وقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل»(٤).

وقال: «يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»(٥).

وقال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطرُ أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»(٦).

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٤ / ١٧٥٠) (١٢٤ / ٢٢٢٩) في كتاب السلام. باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان عن ابن عباس مرفوعاً فذكره. ومعنى «يقرفون» أي: يخلطون فيه الكذب.

(٢) حديث صحيح: متفق عليه، وتقدم.

(٣) حديث صحيح: عند مسلم وهو إحدى روايات حديث «يطوي الله السموات» رقم (٢٦) وتقدم .

(٤) حديث صحيح: وهو عند مسلم، وتقدم قريباً.

(٥) حديث صحيح: وهو عند مسلم، وتقدم.

(٦) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٨ / ٣٧٥) (٤٦٩٧) في كتاب التفسير. باب: الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وأيضاً (١٠٣٩) (٤٧٧٨) (٤٦٢٧). عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ المصنف ولكن بتقدم **«ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله»** على **«لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله»**.

عن مسروق عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب، وهو يقول: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب وهو يقول: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[(١)].

وقال: «**يد الله ملآى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار. وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يده**»[(٢)].

وقال: «**وكان عرشه على الماء وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع**»[(٣)].

عن جرير ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر لية البدر، قال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها فافعلوا**»[(٤)].

فسبحان من سجد لعظمته العظماء؛ ووجل من خشيته الأقوياء، وقامت بقدرته الأرض والسماء. لو أذن للجبال أن تنطق بالمكنون، وتبيح بالسر المدفون لصاحت: لا إله إلا الله.

---

(١) الأثر صحيح عن عائشة رضي الله عنها: أخرجه مسلم (١ / ١٥٩) (٢٨٧: ٢٩٠ / ١٧٧) في كتاب: الإيمان. باب: معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ وهل رأى النبي ﷺ ـ ربه ليلة الإسراء. عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة. فقالت: يا أبا عائشة: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية.... الحديث طويل» وما ذكره المصنف بالمعنى.

(٢) حديث صحيح: وتقدم.

(٣) حديث صحيح وهو عند البخاري، وتقدم.

(٤) جديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٢ / ٣٣) (٥٥٤) في كتاب مواقيت الصلاة. باب: فضل صلاة العصر عن جرير مرفوعاً بلفظ المصنف ثم قرأ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾. وانظر (٥٧٣) (٤٨٥١) (٧٤٣٤) (٧٤٣٥) (٧٤٣٦) بنفس اللفظ. وراجع ترجمان السنة (٨٩).

لو فهمنا نطق الكائنات، ولو سمعنا خطاب المخلوقات، ولو علمنا منطق الطير في السماء، ولغة السمكة في الماء، لعجبنا من لهج الجميع بلا إله إلا الله.

لو تحدّث الشجر، وتكلم الحجر، ولو صاحت الجداول، وأنشدت الخمائل لما سمعنا فيها غير: الله الله.

زمجر الرعد ليقول هذه بشارة رحمته فكيف نذير عذابه، لمع البرق ليقول هذه بسمة فرجه بنزول الغيث على عباده.

شمخت الجبال كأصابع المسبحين، وصمتت كأنها الشيوخ الخاشعين ولسان الحال والمقال، ينادي: تبارك الله أحسن الخالقين.

إذا رأيت الروض البهيج، وشممت الأريج، ونظرت إلى الألوان الزاهية، والأشكال الباهية، ولمحت الحسن المتناهي، والجمال الفائق، والمنظر الخلاب، والسحر الجذّاب، والتركيب البديع، الغمام ينقّط، والحمام يلقط، والورق يسقط والشعاع يسري، والكون في مهرجان حافل يمدح الملك القدوس بقصائد العظيم ولسان الحال يهتف تبارك ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾.

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

في هذه الآية الثانية من السورة صورة من صور قدرة الله التي ختم بها الآية الأولى. وحين تستقر هذه الصورة في قلب بشري يتم فيه تحول كامل في تصوراته ومشاعره واتجاهاته وموازينه وقيمه في هذه الحياة جميعاً.

إنها تقطعه عن شبهة كل قوة في السموات والأرض وتصله بقوة الله، وتيئسه من مظنة كل رحمة في السموات والأرض وتصله برحمة الله. وتوصد أمامه كل باب في السموات والأرض، وتفتح أمامه باب الله. وتغلق في وجهه كل طريق في السموات والأرض، وتشرع له طريقه إلى الله.

ورحمة الله تتمثل في مظاهر لا يحصيها العبد، ويعجز الإنسان عن مجرد ملاحقتها وتسجيلها في ذات نفسه وتكوينه، وتكريمه بما كرم، وفيما سخر له من حوله ومن فوقه ومن تحته، وفيما أنعم به عليه مما يعلمه ومما لا يعلمه وهو كثير.

رحمة الله تتمثل في الممنوع تمثلها في الممنوح، ويجدها من يفتحها الله له في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حال، وفي كل مكان.. يجدها في نفسه، وفي مشاعره، ويجدها فيما حوله، وحيثما كان، وكيفما كان. ولو فقد كل شيء مما يعد الناس فقده هو الحرمان...

ويفتقدها من يمسكها الله عنه في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حالة، وفي كل مكان. ولو وجد كل شيء مما يعده الناس علامة الوجدان والرضوان!

وما من نعمة ـ يمسك الله معها رحمته ـ حتى تنقلب هي بذاتها نقمة. وما من منحة ـ تحفها رحمة الله ـ حتى تكون هي بذاتها نعمة.. ينام الإنسان على الشوك ـ مع رحمة الله ـ فإذا هو مهاد. وينام على الحرير ـ وقد أمسكت عنه ـ فإذا هو شوك القتاد. ويعالج أعسر الأمور ـ برحمة الله ـ فإذا هي هوادة ويسر. ويعالج أيسر الأمور ـ وقد تخلت رحمة الله ـ فإذا هي مشقة وعسر. ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام. ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار! ولا ضيق مع رحمة الله. إنما الضيق في إمساكها دون سواه. لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن، أو في جحيم العذاب أو في شعاب الهلاك. ولا سعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم، وفي مراتع الرخاء. فمن داخل النفس ـ برحمة الله ـ تتفجر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة. ومن داخل النفس ـ مع إمساكها ـ تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكدر والمعاناة!

هذا الفيض يفتح، ثم يضيق الرزق. ويضيق السكن، ويضيق العيش وتخشن الحياة، ويشوك المضجع.. فلا عليك. فهو الرخاء والراحة والطمأنينة والسعادة. وهذا الفيض يمسك. ثم يفيض الرزق ويقبل كل شيء. فلا جدوى. وإنما هو الضنك والحرج والشقاوة والبلاء.

المال والولد، والصحة والقوة، والجاه والسلطان. تصبح مصادر قلق وتعب ونكد وجهد إذا أمسكت عنها رحمة الله. فإذا فتح الله أبواب رحمته كان فيها السكن والسعادة والراحة والاطمئنان.

يبسط الله الرزق ـ مع رحمته ـ فإذا هو متاع طيب ورخاء، وإذا هو رغد في الدنيا وزاد إلى الآخرة. ويمسك رحمته، فإذا هو مثار قلق وخوف، وإذا هو

مثار حسد وبغض، وقد يكون معه الحرمان ببخل أو مرض، وقد يكون معه التلف بإفراط أو استهتار.

ويمنح الله الذرية ـ مع رحمته ـ فإذا هي زينة في الحياة ومصدر فرح واستمتاع، ومضاعفة للأجر في الآخرة بالخلف الصالح الذي يذكر الله، ويمسك رحمته فإذا الذرية بلاء ونكد وعنت وشقاء، وسهر الليل، وتعب النهار!

ويهب الله الصحة والقوة ـ مع رحمته ـ فإذا هي نعمة، وحياة طيبة، والتذاذ بالحياة. ويمسك نعمته فإذا الصحة والقوة بلاء يسلطه الله على الصحيح القوي، فينفق الصحة والقوة فيما يحطم الجسم ويفسد الروح، ويدخر السوء ليوم الحساب!

ويعطي الله الجاه والسلطان ـ مع رحمته ـ فإذا هي أداة إصلاح، ومصدر أمن، ووسيلة لادخار الطيب الصالح من العمل والأثر. ويمسك الله رحمته فإذا الجاه والسلطان مصدر قلق على فوتهما، ومصدر طغيان وبغي بهما، ومثار حقد وموجدة على صاحبهما لا يقر معهما قرار، ولا يستمتع بجاه ولا سلطان، ويدخر بهما للآخرة رصيداً ضخماً من النار!

والعلم الغزير. والعمر الطويل. والمقام الطيب. كلها تتغير وتتبدل من حال إلى حال... مع الإمساك ومع الإرسال... وقليل من المعرفة يثمر وينفع ، وقليل من العمر بارك الله فيه. وزهيد من المتاع يجعل الله فيه السعادة. والجماعات كالآحاد، والأمم كالأفراد. في كل أمر وفي كل وضع، وفي كل حال.. ولا يصعب القياس على هذه الأمثال!

ومن رحمة الله أن تحس برحمة الله! فرحمة الله تضمك، وتغمرك، وتفيض عليك. ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة. ورجاؤك فيها وتطلعك إليها هو الرحمة، وثقتك بها وتوقعها في كل أمر هو الرحمة، والعذاب هو العذاب في احتجابك عنها، أو يأسك منها، أو شكك فيها. وهو عذاب لا يصبه الله على مؤمن أبداً. ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

ورحمة الله لا تعز على طالب في أي مكان ولا في أي حال. وجدها إبراهيم - عليه السلام - في النار. ووجدها يوسف - عليه السلام - في الجب كما وجدها في السجن. ووجدها يونس - عليه السلام - في بطن الحوت في ظلمات ثلاث. ووجدها موسى - عليه السلام - في اليم وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به ويبحث عنه. ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور. فقال بعضهم لبعض ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾، ووجدها رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون آثارهما.. وجدها كل من آوى إليها يأساً من كل من سواها. منقطعاً عن كل شبهة في قوة، وعن كل مظنة في رحمة، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب.

ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها، ومتى أمسكها فلا مرسل لها. ومن ثم فلا مخافة من أحد، ولا رجاء في أحد. ولا مخافة من شيء، ولا رجاء في شيء. ولا خوف من فوت وسيلة، ولا رجاء مع الوسيلة. إنما هي مشيئة الله. ما يفتح الله فلا ممسك. وما يمسك الله فلا مرسل. والأمر مباشرة إلى الله..﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يقدر بلا معقب على الإرسال والإمساك، ويرسل ويمسك وفق حكمة تكمن وراء الإرسال والإمساك ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

وما بين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبوها مباشرة منه، بلا وساطة ولا وسيلة؛ إلا التوجه إليه في طاعة وفي رجاء وفي ثقة وفي استسلام. ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فلا رجاء في أحد من خلقه، ولا خوف لأحد من خلقه. فما أحد بمرسل من رحمة الله ما أمسكه الله.

أية طمأنينة؟ وأي قرار؟ وأي وضوح في التصورات والمشاعر والقيم والموازين تقر هذه الآية في الضمير؟!

آية واحدة ترسم للحياة صورة جديدة، وتنشئ في الشعور قيماً لهذه الحياة ثابتة، وموازين لا تهتز ولا تتأرجح ولا تتأثر بالمؤثرات كلها.

ذهبت أو جاءت. كبرت أم صغرت. جلت أم هانت. كان مصدرها الناس أو الأحداث أو الأشياء!

صورة واحدة لو استقرت في قلب إنسان لصمد كالطود للأحداث والأشياء والأشخاص والقوى والقيم والاعتبارات. ولو تضافرت عليها الإنس والجن وهم لا يفتحون رحمة الله يمسكها. ولا يمسكونها حين تفتح ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد. وأوجب له ذلك أموراً:

منها: أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع. وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هويته نفسه ومالت إليه، فإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب، وخاصية العقل تحتمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل، فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غايتها، والعاقل الكيس دائماً ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها؛ فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة، فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم، ويرى الأوامر كدواء مرّ كريه المذاق مفض إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أمره نفعه بالتناول، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لما يؤمل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره هانت عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير المستمر واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضى بما يختاره له ويقضيه له لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه، ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم، فلا يختار على ربه شيئاً؛ بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض الأمر إلى ربه، ورضي بما يختاره له؛ أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه، وبما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة وينزل في أخرى، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه، لأنه مع اختياره لنفسه، ومتى صح تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه، واللطف به؛ فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره.

وفي كل شيء له آية ∴ تدل على أنه واحد

إن البعرة تدل على البعير، وإن الأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحر ذو أمواج، ونور يلمع، وشمس تسطع، وماء دفاق، ونجوم تلوح، وشذى يفوح، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير.

للقدرة أدلة كثيرة، وبراهين وفيرة، كاختلاف اللغات، وتعدد الأصوات، وتباين النغمات، وتفاوت الصفات، كلها تدل على رب الأرض والسموات.

ورقة التوت تأكلها الدودة فتخرج حريراً، والنحلة فتخرج عسلاً، والغزال فتخرج مسكاً، ألا يدل على علام الغيوب.

البيضة حصن حصين، وبناء رصين، لا منفذ ولا مخرج ولا هواء ولا ماء، تفقس فيخرج منها حيوان سميع بصير، ذو شكل حسن، وهيئة جميلة، وصوت مليح، فاسأل من خلق، ومن برأ، ومن أنشأ، ومن صور، إنه الخلاق العليم.

الزهرة ذات ألوان؛ أبيض فاتح، وأحمر غامق، وأسود فاحم، وأخضر ممتع، تهل بالندى، وتفوح بالشذى، وتميس مع الهوى، آية من آيات مَن على العرش استوى.

تأمل في نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليكُ
عيون من لجين شاخصات
بأحداق هي الذهب السبيكُ
على كثب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريكُ

الأرض أشكال وألوان، وجبال ووديان، وسفوح وغدران، وصحار وجنان. ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ كلها تدل على الواحد الأحد.

الطيور الصادحة، الأنهار السارحة، الماء والهواء، والسناء والضياء، تدعوك لعبودية الواحد الأحد.

خرج سليمان عليه السلام يستسقي بالناس فمر بنملة رفعت أرجلها إلى السماء تدعو ربها، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعاء غيركم.

نملة عرفت ربها فالتجأت إليه، ودعته وسألته، واستغاثت به، نملة وحدت خالقها وأخلصت له رجاءها، وبثت عليه شكواها، نملة آمنت بربها، وسألته رزقها، وعرضت عليه حالها، وكثير من الناس أعرض عن ربه، وكفر بمولاه.

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هل هناك إلا صنعه، وبديع خلقه، وعجيب قدرته، وآثار حكمته.

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، أما يكفي ما عرض في هذه الصفحة دليلاً على وحدانيته، وبرهاناً على ربوبيته وألوهيته، وعلامة على تفرده بالخلق والرزق.

﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، وقد وضح الحق، وظهر البرهان، وعمت الرسالة، وأنزلت الكتب.

﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، وفي الأرض آثاره، وفي السماء أنواره، وفي الجنة رحمته، وفي النار نقمته، وفي البحر عظمته.

﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، والمفاتيح بيده، والمقاليد بقدرته، وهو غالب على أمره، ويخلق ما يشاء ويختار.

قال عالم النفس الشهير وليم جميس: إن نصف العلم قد يورث شكا ولكن العالم الكامل لا يشك في الله طرفة عين.

قلت: لأن العلم يدعوك إلى معرفة آياته فتخشاه، وإنما يخشى الله من عباده العلماء.

قيل لأحد الحكماء: بم عرفت الله؟ قال: بخطوط أقلام القدرة على أوراق الكائنات.

وقيل لآخر: بم عرفت ربك؟ قال: بأنه ينقض العزائم، وينكث الهمم.

واعلم أن الله فعّال لما يريد، لأن في الناس من يريد شيئاً لم يفعله، ومنهم من يفعل شيئاً لا يريده، والله فاعل ما أراد، غالب على أمره، لا راد لحكمه، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

والله يعرفه الصدِّيق كل آن، ويعرفه المؤمن طيلة الزمان، ويعرفه الكافر ساعة الامتحان.

قال فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾؟! فأجراها الله من فوق رأسه.

يقول بعض العلماء: افتخر فرعون بنهر ما أجراه فما أجراه؟!

والعامة تقول: لا همّ والله يُدعى. والمعنى : ما دام أن الله يسأل فإنه سوف يستجيب كما وعد سبحانه، فيزول كل هم، ويذهب كل غم.

وقرأت أن أحد علماء الكيمياء في الغرب يقول: كلما شككت في القدرة دخلت المعمل فازددت إيماناً.

وقد دلل الله على قدرته بخلقه فقال: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ فإذا هم لم يخلقوا شيئاً، ولم يبدعوا شيئاً، لأنهم لا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا.

ولذلك لما ذكر الله أحقيته بالعبودية وتفرده بالألوهية قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ فالذي يخلق أولى أن يُعبد، وأن يُحمد، وأن يوحّد، والذي لا يخلق ليس له حق في الربوبية، ولا منازعة في الألوهية، لأنه عاجز، ضعيف، محتاج، مقهور.

وإن في خلق النحلة، وحياتها في خليتها، وبنائها لبيوتها، وجلبها لرزقها، ووضعها للعسل لآية لمن أراد أن يتدبّر ويتفكّر ويتأمّل، ولذا ذكر الكاتب كريسي مريسون في كتاب «الإنسان لا يقوم وحده»: من علَّم النحلة أن تذهب المسافات الطويلة ثم تعود إلى خليتها ولا تضل، كأن لديها جهاز إرسال؟

قلنا: علمها ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

والنحل قل للنحل يا طير البوادي

ما الذي بالشهد قد حلاكا

وتعود شوقاً للخلية هادياً

فمن الذي بين الحقول هداكا

عرفت الفطر ربها؛ لأنها فطرت على توحيده، وجبلت على الإيمان به، ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾.

قال بعضهم: فطرهم على ما في الميثاق وهو العهد الذي أخذ عليهم بعد أن نثرهم من ظهر أبيهم آدم، فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾.

وفي الحديث الصحيح: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(١).

سبحان من يعفو ونهفوا دائماً
ولم يزل مهما هفا العبد عفا
يعطي الذي يخطي ولا يمنعه
جلاله عن العطا لذي الخطا

قال بعض أهل العلم: وأهل الجاهلية يعلمون أن الله خالقهم وأنه فوقهم، وأنه على العرش سبحانه، وبذلك سرحت أشعارهم وأخبارهم، يقول أحد العارفين: وجدت ورقة نخلة مكتوب عليها: الله خلقها.

قال له عارف آخر: ولو لم تجد هذا لكان في خلق النخلة نفسها أعظم شهادة على قدرة الباري: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾.

انظر لتلك الشجرة
ذات الغصون النضرة

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٣ / ٢١٩) (١٣٥٨) في كتاب الجنائز. باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام؟. ومسلم (٤ / ٢٠٤٧، ٢٠٤٨) (٢٥،٢٤،٢٣،٢٢ / ٢٦٥٨) في كتاب القدر. باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة أو حكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً «**ما من مولود إلا يولد على** ..... لفظ المصنف».

طـــالـــت بحـســـــن بــــارع
وأيــنــعــت بــثـــــمــــــرة

ألـــيـــس تــلـــك آيـــات
مـــعلومـــة مــشـــتـــهـــرة

بـأن ربـي صـــاغــــهــــا
ذو الـقـــــدرة المـقـــــتـــــدرة

كتب أحد الحكماء لوحة عند مدخل حديقته: هنا مدرسة الإيمان.

وهذا صحيح، فإن من يدخل الحديقة ويمد بها النظر والاعتبار، والتفكُّر والتأمُّل، يزداد يقيناً بحكمة الملك العلام.

ولما كان غاندي محرر الهند يخوض بعض الأزمات، قال له بعضهم: من يعينك على تخطي هذه الأهوال، فأشار بأصبعه إلى السماء، وقال: لولا ذاك لانهارت قواي، وهذا كفعل المشركين إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدِّين.

وكان معاذ وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يقول أحدهم لأخيه: اجلس بنا نؤمن ساعة[١]. فيتذكرون نعم الله وأيامه وآياته والعبر في خلقه، فيزدادون إيماناً مع إيمانهم.

---

(١) هذا الأثر إسناده صحيح عن معاذ رضي الله عنه موقوفاً. ذكره البخاري معلقاً (الفتح ١ / ٤٥) في كتاب: الإيمان. باب: قول النبيﷺ «**بني الإسلام على خمس**». وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (١ / ٤٨) وراجع تغليق التعليق (١ / ٢٠ ، ٢١) وكشف الخفاء (١ / ٥١) قلت: وعند أحمد في مسنده عن عبدالله بن رواحة بلفظ «**تعال نؤمن بربنا ساعة**». ولكن فيه زياد النميري وهو ضعيف.

ومن آياته سبحانه الدالة على وحدانيته، وتفرده بالخلق والأمر، واستحقاقه العبودية وحده لا شريك له، ساعة الاضطرار التي تمر بالإنسان، وهي الكربة الشديدة والنازلة العصيبة، حينها لا يجد العبد إلا الله معينا ومنقذاً وناصراً. ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.

فلا يجد الغريق ولا الحريق ولا الطريد ولا الشريد ولا المكروب إلا الله وحده، ولهذا نطق بها فرعون ساعة الغرق حيث لم تنفعه يوم قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فكان الجواب: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

ولما قالها يونس بن متى وهو في ظلمات ثلاث، ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فنفعه ذلك لأنه كان من المسبحين في الرخاء، فأنقذه الله في الشدة. ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ .

والأمم جميعها مقرة بوجود الخالق سبحانه في الجملة، حتى أن أهل فارس والروم والترك والتركمان والأكراد والديلم وشعوب الأرض يستغيثون به سبحانه في الأزمات، وهذا الإيمان لا يكفيهم، ومن العذاب لا ينجيهم، حتى يؤمنوا بما بعثت به الرسل عليهم الصلاة والسلام وهو الإيمان بألوهية الله سبحانه وتعالى، وعدم الإشراك معه في العبودية، وإلا فبمجرد الإيمان بوجود موجوده حتى عند من أنكره في الظاهر قال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

ولذلك قال أمية بن أبي الصلت الشاعر يصف ذهاب موسى إلى فرعون:

وأنت الذي مِنْ فضل مَنٍّ ورحمة
بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له فاذهب وهارون فادْعُوَا
إلى الله فرعون الذي كان طاغيا
فقولا له هل أنت سويت هذه
بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له آأنت أمسكت هذه
بلا عمد ارفق إذن بك بانيا
وقولا له آأنت سويت وسطها
منيرا إذا ما جنه الليل هاديا
وقولا له من يرسل الشمس غدوة
فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب في الثرى
فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه في رؤوسه
ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

ومما نقله بزر جمهر أن عجوزاً فارسيه تركت دجاجاً لها بجانب قصر أحد ملوكهم، وسافرت فلما رجعت وجدت خدم الملك عدوا على دجاجها، فأخذوه وذبحوه وأكلوه، فبكت ونظرت إلى السماء وقالت: أنا غبت يا رب فأين أنت!

إذا جار الوزير وكاتباه

وقاضي الأرض أجحف في القضاء

فويل ثم ويل ثم ويل

لقاضي الأرض من قاضي السماء

وهذا دليل على أن هذا مغروس في الفطر من أنه رب قوي قدير ينصف وينصر.

ومن الآيات على ألوهيته: اسمه المتفرد بالجلال والجمال والكمال، وهو لفظ «**الله**» وهو أشهر المعارف، وأعظم الأعلام، وأحسن الأسماء، حتى إن بعض النحاة عقد فصلاً في كتابه ليعرف بهذا الاسم، فلما جاء يتكلم استحيا أن يعرف المعرفة، فقال: الله أعرف المعارف لا يحتاج إلى تعريف، فَشُكِر على هذا الصنيع.

وهذا من التوقير والتقدير، قال نوح لقومه: ﴿**مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا**﴾.

وقد ذكروا أن بشراً الحافي قبل أن يتوب وجد ورقة ملقاة في السوق مكتوب فيها الله، فقال: تعاليت يارب أن يهان اسمك ، فرفع الورقة وطيبها(*)، فرفع الله اسمه وطيب ذكره.

(*) انظر التوابين لابن قدامة.

وكان بعض أهل الجاهلية لا يحلف بالله فاجراً، يخاف من النقمة العاجلة، وكانوا يتساءلون باسمه جل في علاه، قال تعالى: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾.

سبحان من لو سجدنا بالجباه له

على شبا الشوك والمحمي من الإبر

لم نبلغ العشر من معشار نعمته

ولا العشير ولا عشراً من العشر

وكانت العامة يضعون البذر في التراب وهم يقولون: حب يابس في سفح يابس بين يديك يا علام الغيوب.

والمعنى: أن الحب اليابس وحده لا حياة فيه، وكذلك الأرض اليابسة ولكن سر الإحياء والإنبات عند الواحد الأحد سبحانه.

وقد ذكر عالم نبات أمريكي أن البذرة إذا وضعت في الأرض لا تنبت حتى تهتز الأرض هزة خفيفة، فتتفقس البذرة وتخرج، ومصداق هذا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

وقد ذكر الدكتور زغلول النجار: أن علماء الفلك اكتشفوا أن هناك نجوماً فارقت مواقعها من آلاف السنين في طريقها إلى الأرض، وما بقي إلا مواقعها، وفي القرآن: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾. واكتشفوا أن الكون يتسع شيئاً فشيئاً، وفي القرآن ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

واسم «الله» عند بعض أهل اللغة [*]. هو الذي تؤلهه القلوب، وتحبه وتسكن إليه، وتطمئن له، وترضى به، ولا يمكن أن تجد سكينة ولا أمناً إلا معه، ويبقى في القلب فقر وفاقة وحاجة وتمزق وقلق واضطراب حتى يعرف ربه ويعبده ويذكره ويوحده، حتى قال بعض العارفين: ماذا فقد من وجد الله؟! وماذا وجد من فقد الله؟!

وقد تأتي معرفته سبحانه وتعالى من هجوم اليقين على القلب، كما حدث لسحرة فرعون، فإن الإيمان باشر قلوبهم في لمح البصر ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

ومثلما حدث لكثير ممن أسلم قديماً وحديثاً، فإن العلم الضروري يصل إلى شغاف القلوب في لحظة، وهذه مسألة الضرورة. حتى قال الهمداني للجويني في مسألة علوه سبحانه: أخبرنا عن هذه الضرورة التي يجدها أحدنا في نفسه عند الدعاء، لا يقول يا ألله يا ألله إلا اتجه قلبه إلى العلو، يعني الفوقية، فضرب الجويني بيده على رأسه وصاح: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني.

وهؤلاء أوغلوا في علم الكلام فأورث لهم شكوكاً وشبهات.

وإلا فإن الجارية في عهده ﷺ لما سألها: أين الله؟ أشارت إلى السماء، قال لمولاها: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»[1].

(*) أنظر معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (١ / ١٢٧)، ترتيب القاموس (١ / ١٧٣) مادة أله ولسان العرب لابن منظور (١٣ / ٤٦٧) في حرف الهاء، لام، ألف معكوسة.

(١) صحح بذلك الحديث عند مسلم (١ / ٣٨٢) (٣٣ / ٥٣٧) في كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب: تحريم الكلام في الصلاة؟ ونسخ ما كان من إباحة. عن معاوية بن الحكم السلمي مرفوعا وفيه قصة طويلة بحرمة الكلام في الصلاة وفي آخرها الشاهد: «..... فقال لها: **أين الله؟** قالت في السماء. قال: **من انا؟** قالت: أنت رسول الله. قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**». وما ذكره المصنف بالمعنى.

فما أيسرها من عقيدة، وما أسهله من دين، إنما صعبه المتعمقون والمتنطعون والمتحذلقون

فزدني يقيناً فيك حتى يردني

عن الشك والإشراك والغيٍّ والهوى

ولما حج سليمان بن عبدالملك الخليفة، ومعه عمر بن عبدالعزيز نزل الغيث وصوت رعد قاصف، ولمع برق خاطف، فخاف الناس، فقال عمر بن عبدالعزيز: سبحان الله هذه آثار رحمته، فكيف بآثار عذابه ونقمته.

وذكر بعضهم في قصة توبة عمر بن عبدالعزيز أنه كان مع صديق له شاب في سِنِّه، فقال الصديق: هيا بنا نلهو، فسمعه أحد الصالحين فقال له: إن عليك عيناً بصيرة، ورقيباً لا يغفل، فدمعت عينا عمر بن عبدالعزيز.

وقد ذكر بعض العلماء أن أهل صنعاء أصابهم قحط شديد فخرج بهم أحد الصالحين من الطاعنين في السن فقبض على لحيته البيضاء، ونظر إلى السماء وبكى. وقال: يا رب قد شبت في الإسلام فارحم هذا الشيب وأغثنا، فنزل الغيث بإذنه سبحانه، وعلى ضد هذا ذكر صاحب كتاب سلوة الغريب وأسوة الأريب: أن أهل طبرستان خرجوا يستسقون فما فرغوا من دعائهم إلا والحريق مضطرم في أطراف البلد حتى قال الشاعر فيهم:

خرجوا يسألون صوب غمام

فأجيبوا بصيب من حريق

جاءهم ضد ما تمنوه فجاءت

قلوب محشوة بفسوق

وأعظم ما يزيد إيمان العبد بربه ويقينه بمولاه التفكر في آياته ومخلوقاته، وهذه طريقة القرآن في عرض المشاهد الكونية من سماء وأرض وجبال وأشجار وماء وهواء ونحو ذلك.

ولذلك لما سأل ضمام بن ثعلبة ـ رضي الله عنه ـ رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح(١) قال: أسألك بمن بسط الأرض ورفع السماء، ونصب الجبال، آلله أرسلك إلينا رسولا؟

وهذه المخلوقات يرد التعريف بها في القرآن، لأنها ظاهرة باهرة دون الغوامض من المخلوقات التي قد تخفى على البعض، قال سبحانه: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾.

وهناك دقائق من الاكتشافات في عالم الطب، وعالم الحيوان، وعالم النبات ذكرها كثير من الباحثين تخلب العقول، وتستوقف النفوس عند بديع صنع الله، وعجيب قدرته، والقرآن يشير إلى جمل من هذا وكليات يعلمها

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١ / ١٤٨ ، ١٤٩) (٦٣) في كتاب: العلم. باب: ما جاء في العلم. وقوله تعالى: ﴿وقل رب زدني علما﴾. وأخرجه مسلم (١ / ٤١ ، ٤٢) (١٠ ، ١١ / ١٢) في كتاب: الإيمان. باب: السؤال عن أركان الإسلام كلاهما عن أنس الحديث فيه قصة ضمام بن ثعلبة أخي بني سعد بن بكر والحديث طويل. وفيه محل الشاهد، وذكره المصنف بالمعنى قريب جداً من لفظ مسلم، وقد ذكره المصنف بلفظ البخاري في الترجمان (٤) العلم.

العامة والخاصة، ولا تخفى على أحد، حتى أن العجائز المؤمنات عندهن من الإيمان الصادق ما لا يحتاج معه إلى زيادة براهين لهن، كما ورد في أثر عن عمر ـ رضي اللهِ عنه ـ في الموطأ وغيره: وكونوا على دين العجائز.

وقد ذكر الأصمعي: أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ قال: سبحان الله: من هذا الذي أحوج الجليل حتى يقسم. ومعناه: أن الأمر ظاهر لا يحتاج إلى قسم، لكن النفوس العنيدة، والعقول المكابرة تحتاج إلى مثل هذا، ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾.

وبعض الناس لو حدث عن غرائب من الخلق ما صدق حتى يشاهد بعينه، فيسوق الله لهم من غرائب المخلوقات، وعجائب الكائنات ما يبهر الألباب.

ففي صحيح البخاري: أن الله ساق للصحابة دابة من البحر تُدعى العنبر، وكانوا أكثر من ثلاثمئة رجل، فأكلوا منها شهراً كاملاً، وكانوا يغترفون من وقب عينها بالجرار الكبيرة، وجلس منهم ثلاثة عشر رجلاً في وقب عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقاموه ثم رحل رجل منهم على بعير فدخل به من تحت الضلع، وتزودوا من لحمه إلى المدينة، وأكل منه رسول اللهﷺ، فسبحان من خلق فأبدع[1].

---

(١) القصة بتمامها في صحيح البخاري (الفتح ٨ / ٧٨،٧٧) (٤٣٦٠) (٤٣٦١) (٤٣٦٢) في كتاب: المغازي. باب: غزوة سيف البحر، وهم يتلقون عيراً لقريش، وأميرهم أبو عبيدة. ومسلم (٣ / ١٥٣٥) (١٧، ١٨، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ / ١٩٣٥) في كتاب الصيد والذبائح. باب: إباحة ميتات البحر. كلاهما عن جابر بن عبدالله مرفوعاً. وهو حديث طويل، وما ذكره المصنف بالمعنى وقد ذكرها المصنف كاملة في كتابه «لا تحزن» ص٣٢٣، فراجعه إن رامت نفسك ذلك.

وجاء في جريدة الأهرام في العدد ٢٤٤١٩ بتاريخ ٢٧ / ٩ / ١٩٥٢ بعنوان «حوت يونس»: اجتازت شوارع باريس أمس سيارة نقل طولها ٣٠ متراً، يقال: إنها أطول سيارة نقل في العالم، وكانت تقل؛ «يونس» وهو حوت ضخم، عمره ١٨ شهراً، وطوله ٢٠ متراً، ووزنه ٨٠٠٠ كيلو جرام، وقد حنطه أصحابه، وقاموا بعرضه على النظارة في النرويج والسويد والدانمارك... إلخ.

وقد أضيء باطنه بالمصابيح الكهربائية ليتسنى للنظارة رؤية جوفه.

انظر لما نقله أبو داود في السنن في كتاب الزكاة في آخر باب صدقة الزرع ٢: ١٤٦ قال أبو داود (*): شَبَرْتُ قثاءة بمصر ثلاثة عشر شبراً، ورأيت أُتْرُجَّةً على بعير بقطعتين، قطعت وصيرت على مثل عدلين.

وقال معمر بن راشد المحدث المشهور: رأيت باليمن عنقود عنب وقر بغل تام، ذكره الذهبي في ترجمة محمد بن رافع النيسابوري في تذكرة الحفاظ(**).

وفي كتاب الطالع السعيد قال مؤلفه: رأيت قطف عنب، جاءت زنته ثمانية أرطال بالليثي، ووزنت حبة عنب جاءت زنتها عشرة دراهم، وذلك بأدفو بلدنا.

وجاء في مجلة الفيصل السعودية عدد ٦٢ شعبان ١٤٠٢ ص١١٢ صورة لثمرة كرنب «ملفوف» وزنت ٢٢ كيلو غرام وبلغ قطرها متراً واحداً، وصورة

(*) تحت حديث (١٥٩٩).

(**) التذكرة (٢ / ٥٠٩، ٥١٠) ت (٥٢٥) ترجمة محمد بن رافع القشيري النيسابوري.

لبصلة يابسة واحدة، وزنت ٣، ٢ كيلو غرام، وبلغ قطرها ٣٠ سم، وذكرت المجلة عقب ذلك أن ثمرة بندورة «طماطم» واحدة بلغ محيطها أكثر من ٦٠ سم، وأن هذه الأشياء غير العادية نبتت في أرض المزارع المكسيكي «جوزيه كارمن» ذي الخبرة الطويلة في الزراعة والعناية بالأرض مما جعله المُزارع الأول في المكسيك.

وذكر صاحب كتاب: صفحات من صبر العلماء عن الشيخ أحمد الزرقاء أنه شاهد رجلاً في السوق ينادي أنه يستطيع أن يمسك البرغوث بأصبعي يد، والشعرة بأصبعي يد، ويقلب يديه إلى الخلف وراء ظهره، ويعقد الشعرة على البرغوث، ثم يعيد يديه إلى الأمام، وفي إحداهما بين إصبعيه رأس الشعرة وفي أسفل الشعرة البرغوث مقيداً ينط، وكذلك يمكن أن يفكه هكذا.

فسبحان من علم الإنسان ما لم يعلم، بعد أن أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً.

من علم النملة أن
تشيد جحراً في التراب

من علم النحلة أن
تنسج بيتاً من لعاب

من علم العصفور أن
ينظم عشاً في الهضاب

ذاك هـــو الـــلـــه الـــذي

أبـدع في الخـلـق العـــجـــاب

ومن أعظم ما ردَّ به موسى عليه السلام على تهور فرعون وعجرفته لما سأل: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾؟ قال موسى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، فأسكته، فبهت العنيد الفاجر، وهذا جواب سديد، لا يدعي أحد من البشر مهما بلغ عتوه، أنه شارك الله تعالى في الخلق والهداية، ولا يزال العلم يخبرنا ببديع قدرة القدير، وجليل حكمة الحكيم إذ يقول صاحب كتاب: «الإنسان لا يقوم وحده»: والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، بصر الهدهد برزقه لخفية في الأرض، فلما جاء لسليمان وذكر ربه قال: الذي يخرج الخبأ في السموات والأرض(*). فهو يتذكَّر الإخفاء والخبأ، وإخراج الرزق ويعلم أن ربه هو العالم بذلك.

وقد ذكر صاحب كتب «الحيوان»: أن بعض أنواع الثعابين في الصحراء إذا جاعت ولم تجد أكلاً نصبت نفسها على هيئة العود القائم، فيظنها الغراب خشبة فيقع عليها فتأكله.

(*) راجع تفسير قوله تعالى:﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٣ - ٢٦].

والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى عرف الكائنات به، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

فكل شيء خلق بحكمة، حتى الذباب والبرغوث والحية والعقرب، دخل أحد العلماء على الخليفة أبي جعفر المنصور، فأخذ الذباب يقع على أنف أبي جعفر فيطرده ويعود، فلما أضجره التفت إلى هذا العالم، وكان يتثاقله لأنه ينصحه، وقال: يا فلان لماذا خلق الله الذباب؟ قال: ليذل به أنوف الطغاة، يعرض بأبي جعفر، وهذا جواب سديد مُسْكِت.

وقد ذكر الدكتور البار بعد التحليل والدراسة: أن في أحد جناحي الذباب مادة سامة، وفي الآخر مادة نافعة تقضي على تلك المادة وتبطل مفعولها، يصدق ذلك ما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه، فإن في إحدى جناحيه داءً والأخرى شفاءً»**[(١)].

ومن بديع خلق الذباب كما قال أحد الأدباء: أن الذباب إذا وقع على البياض سوده، وعلى السواد بيضه، وعلى الجرح جدده، وعلى اللحم أنتنه، وعلى اللبن أفسده، ومع ذلك تحدّى الله البشرية بالذباب. فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

ومن بديع خلقه سبحانه ما ذكره بعض العلماء بحياة الحيوان: أن الله جعل للفرس من قوة النظر ما يبصر الطريق في الظلمة الشديدة، وجعل

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٦ / ٣٥٩) (٣٣٢٠) في كتاب بدء الخلق. باب: إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه فإن في إحدى جناحيه داءً وفي الأخرى شفاء. وكرره بلفظ آخر (٥٧٨٢) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ المصنف.

للبومة قوة بصر في الليل الأسود الدامس تبصر به الحشرات على العشب. وذكر كريسي مريسون: «أن الكلب مزود بأنف قوي الشم، حساس جداً، حتى يعرف بشمه الصديق من العدو، وصاحب البيت من غيره»، وهذا خلق من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

يا من يرى مد البعوض جناحها

في ظلمة الليل البهيم الأليلِ

ويرى مناط عروقها في نحرها

والمخ في تلك العظام النحلِ

فجل في علاه من صور البعوضة وسلطها على الإنسان تأخذ رزقها من جسمه، وضرب بها الأمثال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾؛ بل جعل للبعوضة على صغر حجمها من القدرة على أن تمص الدم من مقلة الأسد، سيد الحيوانات كما قال أحدهم: إن البعوضة تدمي مقلة الأسد. وفي خلق العنكبوت آية من أعظم الآيات: ﴿**كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾.

قال رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك: «إن إحدى العناكب المائية تصنع لنفسها عشاً على شكل منطاد (بالون) من خيوط العنكبوت وتعلقه بشيء ما تحت الماء، ثم تكسو ببراعة فقاعة هواء في شعر جسمها، وتحملها إلى الماء، ثم تطلقها تحت العش، ثم تكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش، وعندئذ تلد صغارها وتربيهم آمنة عليهم من هبوب الرياح.

قال ابن القيم: فأما المفعولات فإنها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على فاعل فعله، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة، ثم ما في المفعولات من التخصصات المتنوعة، دال على إرادة الفاعل وأن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحداً غير متكرر. وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى.

وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته، وما فيها من البطش والانتقام دال على غضبه، وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دالٌّ على محبته، وما فيها من الإهانة والإبعاد والخذلان دال على بغضه ومقته، وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد، وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل على إمكان المعاد، وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات، وما فيها من الكمالات التى لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها، فمفعولاته من أدل شيء على صفاته وصدق ما أخبرت به رسله عنه، فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات، منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات.

قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ أي أن القرآن حق. فأخبر أنه لابد أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق، ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله، فآياته شاهدة بصدقه، وهو شاهد بصدق رسوله بآياته، فهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين:

كيف أطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟ فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه.

ولهذا قال الرسل لقومهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ فهو أعرف من كل معروف، وأبين من كل دليل، فالأشياء عرفت به في الحقيقة وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه.

ومن آيات قدرته وعظيم حكمته ما ذكره بعض العارفين أن من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال، وهي معرفة خواص الخلق، وكلهم عرفه بصفة من صفاته. وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه، ليس كمثله شيء في صفاته، ويكفي في جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه. ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته، فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال.

ويكفي في جماله أنه له العزة جميعاً والقوة جميعاً، والجود كله والإحسان كله، والعلم كله والفضل كله، ولنور وجهه أشرقت الظلمات.

وقال عبدالله بن مسعود: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه، فهو سبحانه نور السموات والأرض، ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره.

ومن أسمائه الحسنى «**الجميل**» وفي الصحيح عنه ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[(١)].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١ / ٩٣) (١٤٧، ١٤٨، ١٤٩ / ٩١) في كتاب الإيمان: باب: تحريم الكبر وبيانه وأبو داود (٤ / ٣٥١) (٤٠٩١) في كتاب اللباس. باب: ما جاء في الكبر. والترمذي (٤ / ٣٦١) (١٩٩٩) في كتاب: البر والصلة. باب: ما جاء في الكبر كلهم عن ابن مسعود مرفوعاً «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر قال رجل**: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنةً. قال: **إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق، وغمط الناس**». واللفظ لمسلم.

وجماله سبحانه على أربع مراتب: جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء.

وقدرة الله في الخلق فوق ما يصفها الواصفون، فهو يجعل من الشيء الواحد نفعاً وضراً، إذا غير أوصافه وبدّل خصائصه.

فمثلاً الرياح يجعلها الله برحمته رخاءً ونسيماً عليلاً، تلقح السحاب فينهمر الغيث، وتلقح الثمر فيأتي بأحسن الطعوم، وتبرد الجو، وتنعش الروح، وتسوق الغمام بإذن الملك العلام، وينزع الله منها إذا شاء الرحمة فتصير ريحاً لا تطاق، تدمر البيوت، وتكسر الأشجار، وتنقل الأمراض، وتهلك الحرث والنسل، وتفسد الجو.

والماء يجعل الله رحمته فيه ويجعل منه كل شيء حياً، فلا تصلح الحياة إلا بالماء شرباً، وغسلاً وسقياً، فإذا هو أغلى مفقود، وأرخص موجود، بارد على النفس، عذب في شربه، زلالٌ في تناوله، يحيي به العباد والبلاد، ويدر به الضرع، وينبت به الزرع، فإذا النماء والخضرة والري والحياة.

وينزع الله منه الرحمة فإذا هو سيل مدمر، وطوفان مزمجر، يقتلع السدود، ويهدم الجسور، ويهد البيوت، ويخرب الديار، ويغرق الأنفس، وينسف الممتلكات، وربما كان مالحاً لا يطاق، فلا ينتفع به ولا يستساغ؛ لحكم بالغة، ومقاصد جليلة.

وعلى ذلك فَقِس في كل النعم والمواهب من مال وأهل وبنين وزوجة ومنصب وجاه ونحو ذلك، يجعلها الله إما نعمة، وإما نقمة؛ إثباتاً لقدرته، ودليلاً على حكمته، وبرهاناً على نفاذ أمره جل في علاه.

قل للطبيب تخطفته يد الردى

من يا طبيب بطبه أرداكا

قل للمريض نجا وعوفي بعد ما

عجزت فنون الطب من عافاكا

وإذا ترى الثعبان ينفث سمه

فاسأله من ذا بالسموم حشاكا

واسأله كيف تعيش يا ثعبان

أو تحيا وهذا السم يملأ فاكا

يقول بعض الحكماء: إذا لم تسبح الكائنات بلسان المقال فقد سبحت بلسان الحال، وإذا لم تنطق الحروف باللسان فقد أظهرت الشكر بالإذعان، وإن لم تخبرنا بما فعلت فقد اطلع سبحانه على ما أكنت وأضمرت، إن الكائنات تسبح بلسان الحال، والمقال، وبكيفية الله أعلم بها فقد ورد القرآن بذلك، فقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

وفي كتاب: «الله والعلم الحديث» يذكر الفلكيون: أن هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر

الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد، وبعيد جداً، إن لم يكن مستحيلاً.

فهذا هو الخلق البديع المتناسق العجيب الذي يدهش الناظرين بعظمته وتناسبه، فكل شيء بحساب.

ولذا جاء القرآن بالإجابة الشافية الكافية عن كل حدث ومخلوق.

فالشمس تجري لمستقر لها، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، والنجوم مصابيح للسماء ورجوماً للشياطين، وهداية للمسافرين، والجبال رواسي لئلا تميد بنا الأرض، والرياح لواقح، والماء حياة كل شيء، والأنعام خلقها لنا دفء ومنها نأكل، وعليها وعلى الفلك تحملون.

ويبقى القرآن يذكرنا بعظيم القدرة، وجلال الحكمة، وكثير النعمة، فهل من مؤمن موحد شاكر لله رب العالمين؟!

وقد ذكر في كتاب روضة المحبين أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان يخرج للتفكر في آيات الله خارج دمشق فيخلو بنفسه، يتدبر ويتأمل ثم ينشد:

وأخرج من بين البيوت لعلني

أحدِّث عنك النفس بالسر خاليا

وذلك لأن المتفكر وحده يجد من الأنس والهدوء وسعة التدبر ما لا يجده مع الناس.

وفي الصحيح: أن من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا يظل إلا ظله: «**رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**»[(١)].

والخلوة في التفكر سبيل إلى الإخلاص، وتجريد القصد وصحة النية، والله يقول: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ**﴾.

تقول مجلة العلوم الإنجليزية: إن يد الإنسان في مقدمة العجائب الطبيعية الفذة، وإنه من الصعب جداً ـ بل من المستحيل ـ أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف، فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك، ثم تثبته في الوضع الملائم للقراءة، وهذه اليد هي التي تصحح وضعه تلقائياً، وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع أصابعك تحت الورقة، وتضغط عليها بالدرجة التي تقلب بها، ثم يزول الضغط بقلب الورقة، واليد تمسك القلم وتكتب به، وتستعمل كافة الآلات التي تلزم الإنسان من ملعقة إلى سكين إلى آلة كاتبة، وتفتح النوافذ وتغلقها، وتحمل كل ما يريده الإنسان، واليدان تشتملان على سبعة وعشرين عظماً وتسع عشرة مجموعة من العضلات لكل منها وظيفتة.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ لفتة عجيبة إلى هذا الكائن

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٢ / ١٤٣) (٦٦٠) في كتاب الأذان. باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، ومسلم (٢ / ٧١٥) (٩١ / ١٠٣١) في كتاب: الزكاة. باب: فضل إخفاء الصدقة. كلاهما عن أبي هريرة مرفوعاً «**سبعة يظلهم الله في ظله**.... الحديث منهم ما ذكره المصنف».

الحي، كيف خلق وركب وصور وأبدع خلقه، فلماذا لا ننظر في أنفسنا، وفي عيوننا وأسماعنا، في ألسنتنا وعقولنا، في أيدينا وأرجلنا، في كل عضو ، وكل ذرة، وكل قطرة، وكل شعرة، في خلقنا لنزداد إيماناً ويقيناً.

وتأمل كيف ضمن الله لكل مخلوق رزقه في البر والبحر، قال تعالى: **﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾** وقد جعل الله لكل كائن ما يناسبه من الغذاء، فسهل للجنين في بطن أمه عرقاً يغذي جسمه، فلما وضعته أمه جعل الله غذاءه اللبن في ثدييها فدرّ بإذن الله، وهدى الطفل لالتقامه ومصه بحكمة بالغة، وقدرة نافذة.

وضمن للدودة رزقها وهي داخل الطين، ويسر للنملة غذاءها، وألهمها نقله وإخفاءه في جحور الأرض وادخاره في الصيف إلى الشتاء، فإذا خشيت النملة أن تنبت الحبة قسمتها نصفين.

ويسر للحوت رزقه في الماء، وسهل له هواء يتنفسه هناك.

وأنبت في الشجر داخل المياه ما يناسب الحيوان المائي، فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»[(١)].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه الترمذي (٤ / ٥٧٣) (٢٣٤٤) في كتاب: الزهد. باب: في التوكل على الله. وابن ماجه (٢ / ١٣٩٤) (٤١٦٤) في كتاب: الزهد . باب: التوكل واليقين. وأحمد في المسند (١ / ٣٠، ٥٢) والحاكم في المستدرك (٤ / ٣١٨) والقضاعي في مسنده (١٤٤٥) كلهم عن بكر بن عمرو عن عبدالله بن هبيرة سمع أبا تميم الجيشاني سمع عمر بن الخطاب مرفوعاً باللفظ المذكور. وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٣١٠).

فما شق الله من فم إلا ضمن له رزقه، وما خلق من نفس منفوسة إلا تكفل بغذائها وسقائها، ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها.

ولقد علمت وخير العلم أصدقه

أن الذي خلق الأرزاق يكفيني

أسعى إليه فيعييني تطلّبه

وإن قعدت بإذن الله يأتيني

أفبعد هذا الإبداع في الخلق والجمال في الكون يلحد عقل؟ أو تكفر نفس؟ أو يشك إنسان؟ ويقال لكل أذن سميعة وعت الحجج والبراهين أفي الله شك؟ ويقال لكل عين بصيرة شاهدت الأدلة الدالة على وحدانية اللطيف الخبير أفي الله شك؟ ويقال لكل قلب ذكي عرف الحقائق وذاق المعارف أفي الله شك؟!

وأما علماء الذرة، ورواد الفضاء، والمبرزون في الطب والتشريح والنبات والطبيعة وشتى الاختصاصات فقد أثبتوا وجود الله، وهداهم العلم إلى أن لهذا الكون قوة تضبطه، وحاجة الناس إلى العقيدة تبدو في كونها ضماناً لأصحاب الأخلاق لينالوا السعادة في العاجل والآجل.

ولهذا قال ابن حزم: ثق بالمتدين ولو كان على غير دينك.

وقال الشيخ مصطفى صبري: الله موجود سواء أصلحت أخلاق المجتمع أم فسدت، وسواء أسعد أصحاب الفضيلة أم شقوا.

قال المقري صاحب كتاب نفح الطيب:

سـبـحـان من قـسـم الحظوظ
فـلا عـتـاب ولا مـلامـة

أعـمـى وأعـشـى ثـم ذو
بصـر وزرقـاء اليـمـامـة

ومـسـدد أو جـائـر
أو حـائـر يشـكو ظـلامـه

لـولا اسـتـقـامـة مـن هداه
لمـا تبـيـنـت العـلامـة

ولما تكلم الكاتب الزيات في مجلة الرسالة عن الشيوعية الملحدة وإنكارها لوجود الباري قال: لكنها الشيوعية الخاسرة، أرض بلا سماء، ويوم بلا غد، وعمل بلا خاتمة، وسعي بلا نتيجة، أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

إن العلم يدعو للإيمان، وقد ألف في هذا العنوان جماعة من الأمريكان، واستعرضوا الاختراعات والاكتشافات التي تدعو العقل للتدبر، وتعرض على الإنسان براهين قدرة الباري جل في علاه ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾.

واعلم أن سلفنا الصالح يعرضون التوحيد في دعوتهم ومواعظهم ودروسهم عرضا سهلاً ميسراً، مبتعدين عن تشقيق الكلام، وترصيص الألفاظ، وتعقيد العبارات، اسمع للشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ وهو يبسط

المعتقد للناس إذ يقول: إذا قيل لك: من ربك؟ فقل: ربي الله، فإذا قيل لك: إيش معنى الرب؟ فقل: المعبود، المالك، المتصرف.

فإذا قيل لك: إيش أكبر ما ترى من مخلوقاته؟ فقل: السموات والأرض، فإذا قيل لك: إيش تعرفه به؟ فقل: أعرفه بآياته، ومخلوقاته.

وإذا قيل لك: إيش أعظم ما ترى من آياته؟ فقل: الليل، والنهار، والدليل على ذلك، قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

فإذا قيل لك: إيش معنى الله؟ فقل: معناه: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

فإذا قيل لك: لأي شيء الله خلقك؟ فقل: لعبادته.

فإذا قيل لك: إيش عبادته؟ توحيده، وطاعته.

فإذا قيل لك: إيش الدليل على ذلك؟ فقل: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾.

وهذا منهج القرآن، فإنه يعرض على الناس الحق، ويدعوهم إلى الإيمان بالخالق بسهولة ووضوح، خلافاً لمناهج المبتدعة الضلال، فإنهم أحدثوا في الملة كلاماً ما أنزل الله به من سلطان، مثل الجوهر والعرض والحيز والحد ونحو ذلك من الكلام العقيم الذي لا ينفع العبد في إيمانه ولا علمه، وما كانت

دعوته ﷺ إلا سمحة سهلة ميسرة، كان يقول: «**أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**»(١).

ولما أرسل معاذاً ـ رضي الله عنه ـ إلى اليمن قال له: «**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا، فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاةً في أموالهم، تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك، فخذ منهم وتوقَ كرائم أموالهم**»(٢).

ويقول ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله**»(٣).

---

(١) الحديث إسناده صحيح: أخرجه النسائي في الكبرى (٤ / ٢٤٢) (٧٠٤٣) في كتاب القسامة. باب: هل يؤخذ أحد بجريرة غيره وابن ماجه (٢ / ٨٩٠) (٢٦٧٠) في كتاب: الديات. باب: لا يجني أحدٌ على أحد. والدارقطني (٣ / ٤٤، ٤٥) والحاكم (٢ / ٦١١، ٦١٢) وابن أبي شيبة (١٤ / ٣٠٠) (٤ / ١٨٤)، وابن حبان (٦٥٦٢)، كلهم عن يزيد بن زياد بن أبي الجعد عن جامع بن شداد عن طارق بن عبدالله المحاربي مرفوعاً واللفظ المذكور عند ابن أبي شيبة والدارقطني والحاكم وابن حبان وعند الطبراني (٣٧٦١٨) (٨١٧٥) من طريق ابن حبان عن جامع، وراجع الإرواء (٧ / ٣٣٥) تحت حديث (٣٠٣).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٣ / ٣٥٧) (١٤٩٦) في كتاب: الزكاة. باب: أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا. ومسلم (١ / ٥٠،٥١) (٢٩،٣٠ / ١٩) كتاب: الإيمان. باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام كلاهما عن ابن عباس مرفوعاً.

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١ / ٧٥) (٢٥) في كتاب: الإيمان. باب: فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم. ومسلم (١ / ٥٣) (٣٦ / ٢٢) في كتاب: الإيمان. باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. كلاهما عن ابن عمر مرفوعاً. واللفظ المذكور للبخاري.

ثم أعلم أن العبد يمر به كل يوم وليلة من النعم والمصائب والأزمات ما يجب عليه في جميعها العودة لربه شاكراً لنعمه، صابراً على قضائه، راجياً مولاه، فإنه لا يجيب المضطر غيره، ولا يكشف الكرب سواه.

فما يكابر الحقيقة إلا سفيه، ولا يرد الحق إلا معتوه، ولا ينكر البرهان إلا مغفل، فحيثما يممت وجهك وجدت آية ناطقة أو صامتة، تحدث عن حكمته ورحمته وقدرته وإبداعه، الليل يقبل جاهم المحيا، عابس الوجه، مكدر الخاطر، أسود الجلباب، هاجماً على الدنيا، آية من آيات جلاله تقدس في علاه.

والنهار يقدم باسم الثغرة، مشرق الجبين، حسن الصورة، مضيء الوجه، منوار الطلعة، يملأ كل زاوية نوراً، ويغمر كل محلة شعاعاً، آية من آيات ربنا الملك القدوس.

الشمس تفجأ العالم بحسنها وروعتها، وضيائها، فتكشف ركام الظلام، وتجتاح جحافل الليل، وتهمي بأشعتها على الوجوه والعيون والأوراق والورود والخمائل، آية على بديع صنع اللطيف الخبير.

القمر بهالته الفضية، وطلعته الرضية، في هيبته وصمته، في سكون مشيه، وارتفاع محله، وسمو مكانه، وجمال منظره، آية لكل ذي عقل على حسن خلق أحسن الخالقين.

الجبال رافعة رؤوسها، مثبتة أقدامها، ساكتة في عظمة، مرتفعة في عنفوان، جاثمة في قوة، آية على تفرده ووحدانيته.

البحر المخيف وهو متلاطم الأمواج، مزمجر الصوت، يبتلع الأحياء، يكاد يلتهم الأرض، آية على عظمة خالقه جل في علاه.

في صهيل الفرس، وخوار البقر، وثغاء الغنم، وزئير الأسد، ونباح الكلب، ونهيق الحمار، وهديل الحمام، وسجع القُمري، وعندلة العندليب، ونعيق الغراب، وفحيح الحية، ونقنقة الضفدع، وخرير الماء، وهزيز الريح، وهزيم الرعد، وحفيف الشجر، وطنين الذباب، وأطيط الناقة، ودوي النحل، وتغريد الحادي، وترنيم المنشد، في كل هذا وفي غيره آيات بينات على جميل خلقه، وعظيم قدرته، وحسن تصويره، فتبارك الله أحسن الخالقين.

في اختلاف الطعوم، والأذواق، والروائح، والألوان.

في تباين العلوم، والفهوم، والصفات، والمواهب.

في تعدد المقاصد والمكاسب، والأعمال والاهتمامات.

في هذه كلها وفيها جميعاً آية من آيات حكمته وقدرته وخلقه تعالى.

في الصوت والصورة، في الشكل والمضمون، في القلب والقالب، في المعنى واللفظ، في الإشارة والعبارة، في المادة والروح، في العرض والجوهر، في الذات والصفات، في الحقيقة والخيال، في الرؤيا واليقظة براهين دالة على حكيم صنع رب العالمين.

في الفم يبتسم، في العين ترى، في الأذن تسمع، في اليد تبطش، في الرجل تمشي، في العقل يفكر. في القلب يعتقد، في الجلد يحس، دليل على إبداع الواحد الجليل.

في السماء والأرض، والليل والنهار، والجبل والسهل، والحجر والمدر، والأخضر واليابس، والأبيض والأسود، واللين والقاسي، والحي والميت، والكبير والصغير، آية على عظمة اللطيف الخبير.

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾

كل يوم هو في شأن: يغني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويشافي مريضاً، ويعافي مبتلى، ويهدي ضالاً، ويرد غائباً، ويتوب على تائب، ويغفر لمستغفر، ويستر على مذنب، ويتجاوز عن مسيء.

كل يوم هو في شأن: ينصر مظلوماً، ويغيث ملهوفاً، ويجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويفرج كربًا، ويكشف سوءًا، ويزيل همّاً، ويذهب غمّاً، ويزيلُ حزناً.

كل يوم هو في شأن: يقصم جبَّاراً، ويردع ظالماً، ويقمع متكبراً، ويخزي ملحداً، ويهزم عدواً، ويمحق كيداً، ويكبت طاغية، ويرد جانياً، ويكسر جيشاً، ويفني قوماً.

كل يوم هو في شأن: يخلق خلقاً، ويهب رزقاً، وينشئ سحاباً، وينزل غيثاً، ويرسل رياحاً، ويطعم جائعاً، ويسقي ظمآناً، ويكسي عرياناً، ويؤوي شريداً.

كل يوم هو في شأن: يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويرزق من يشاء بغير حساب.

كل يوم هو في شأن: يفلق الإصباح، ويدبر الفلك، ويسخر الشمس والقمر، ويمسك السماء والأرض، ويسكّن البحر، ويرسي الجبال، وينشئ البرق والرعد.

كل يوم هو في شأن: يعلم الجاهل، ويرفع الخامل، وينبه الغافل، ويذكر الناسي، ويصور في الأرحام، ويهدي في الظلمات، ويحفظ من المهالك، وينقذ من المتالف.

كل يوم هو في شأن: يحيي نفساً، ويقبض أخرى، ويسعد ويشقي، ويضحك ويبكي، ويسر ويحزن، ويهب ويأخذ، ويقوي ويضعف، ويقرب ويبعد، يخفض ويرفع، ويقبض ويبسط، ويعطي ويمنع.

كل يوم هو في شأن: يكتب حسنة وسيئة، ويقدر نعمة ونقمة، ويقضي عذاباً ورحمة، يوفق ويخذل، ويكرم ويهين، ويعمي ويصم، وينشئ ويعيد، وهو اللطيف الخبير.

كل يوم هو في شأن: لا تقع قطرة، ولا تسقط ورقة، ولا تقال كلمة، ولا تطلق نظرة، ولا يخط حرفٌ، ولا تمشى خطوة، ولا تسكب دمعة، ولا تهمس همسة، إلا بعلمه وهو العليم الخبير.

كل يوم هو في شأن: يعلم السرائر، ويطلع على الضمائر، يكشف الخوافي، يحيط بالأمور، يفعل ما يشاء، يحكم ما يريد، لا غالب لحكمه، ولا راد لقضائه، لا منجى وملتجأ منه إلا إليه.

كل يوم هو في شأن: عنده علم الليالي والأيام، والزمان والمكان ، والإنس والجان، والنبات والحيوان، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

الله أحق من مدح وأجل من ذكر وأعظم من عبد

فسبحان من جعل أمره في كلمة كن، فلا يتعاظمه شيء، ولا يصعب عليه أمر، ولا يتعسر عليه مطلب.

يقول عز من قائل عن نفسه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظمه حق تعظيمه من عبد غيره، لأنه لا أحق بالعبودية منه، ولا أعظم منه.

وقد روى البخاري(١) عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا محمد إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول أنا الملك، فضحك رسول الله ص حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾»، فهذا الكون بما فيه من ضخامة واتساع إنما هو على أصابع القوي القهار يوم القيامة.

وروى مسلم عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «**يأخذ الله عز وجل سماواته وأراضيه بيده، ويقول: أنا الله**، ويقبض أصابعه ويبسطها **أنا الملك** حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول؛ أساقط هو برسول الله ﷺ؟»(٢).

ومن عظمته سبحانه عظمة ملائكته الذين يحملون العرش، قال بعض أهل العلم: حملة العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك،

(١) حديث صحيح: وتقدم.

(٢) حديث صحيح: وقد تقدم، بلفظ آخر، وما ذكر هنا إحدى روايات الحديث عن ابن عمر.

لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وهو العذاب الموجع الأليم.

ومن عظمته سبحانه بروز الناس له في اليوم العظيم واطلاعه على كل خافية منهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: ظاهرون بادون كلهم لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ أي: الجميع في علمه على السواء، ففي حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، أنه تعالى يطوي السماوات والأرض بيده ثم يقول: «**أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»[1].

فأي وصف يصفه به الواصفون، وأي تعظيم يمكن أن يعظمه المعظمون، بل كفاه جل في علاه ما يصف به نفسه، ومدح به ذاته المقدسة، تعالى علواً كبيراً.

ومن عظمته ما ورد في بعض الآثار الإسرائيلية يقول عز وجل: أيؤمل غيري للشدائد والشدائد بيدي، وأنا الحي القيوم؟ ويرجى غيري ويطرق بابه بالبكرات، وبيدي مفاتيح الخزائن، وبابي مفتوح لمن دعاني؟ ومن ذا الذي أملني لنائبة فقطعت به؟ أو من ذا الذي رجاني لعظيم فقطعت رجاءه؟ أو من ذا الذي طرق بابي فلم أفتحه له؟ أنا غاية الآمال، فكيف تنقطع الآمال دوني؟

(١) حديث صحيح: وتقدم.

أبخيل أنا فيبخلني عبدي؟ أليس الدنيا والآخرة، والكرم والفضل كله لي، فما يمنع المؤملين أن يؤملوني؟ لو جمعت أهل السموات والأرض ثم أعطيت كل واحد منهم ما أعطيت الجميع، وبلَّغت كل واحد منهم أمله، لم ينقص ذلك من ملكي عضو ذرة، كيف ينقص ملك أنا قيمه؟ فيا بؤساً للقانطين من رحمتي، ويا بؤساً لمن عصاني، وتوثب على محارمي.

قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ : ما من لية اختلط ظلامها، وأرخى الليل سربال سترها إلا نادى الجليل جل جلاله: «من أعظم مني جوداً، والخلائق لي عاصون، وأنا لهم مراقب؟ أكلؤهم في مضاجعهم، كأنهم لم يعصوني، وأتولى حفظهم، كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم، أجود بالفضل على العاصي، وأتفضل على المسيء، من ذا الذي دعاني فلم ألبه؟ أم من ذا الذي سألني فلم أعطه؟ أم من الذي أناخ ببابي فنحيته؟ أنا الفضل ومني الفضل أنا الجواد، ومني الجود، أنا الكريم ومني الكرم، ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي، ومن كرمي أن أعطي العبد ما سألني، وأعطيه ما لم يسألني، ومن كرمي أن أعطي التائب كأنه لم يعصني، فأين عني يهرب الخلائق؟ وأين عن بابي يتنحى العاصون؟» خرجه أبو نعيم في الحلية(١).

---

(١) انظر الحلية (٨ / ٩٢ ـ ٩٣) قال أبو نعيم: ثنا أبو أحمد محمد بن أحمد الغطريفي ثنا محمد ابن شاذان ثنا أحمد بن محمد بن غالب ثنا هناد بن السرى قال سمعت الفضيل بن عياض يقول فذكره.

ومن أعظم ما يعظم به جل في علاه توحيده، وإفراده بالعبادة، فالتوحيد هو السبب الأعظم، فمن فقده فقد المغفرة، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

فمن جاء مع التوحيد بقراب الأرض ـ هو ملؤها أو ما يقارب ملؤها ـ خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة، لكن هذا مع مشيئة الله عز وجل، فإن شاء غفر له وإن شاء أخذه بذنوبه، ثم كان عاقبته أن لا يخلد في النار، بل يخرج منها، ثم يدخل الجنة.

قال بعضهم: الموحد لا يلقى في النار كما يلقى الكفار، ولا يلقى فيها ما يلقى الكفار، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار، فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله فيه وقال بشروطه كلها بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت، أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها، ومنعه من دخول النار بالكلية.

فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه، أخرجت منه كل ما سوى الله محبة وتعظيماً، وإجلالاً ومهابة، وخشية ورجاء وتوكلاً، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر، وربما قلبتها حسنات، فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم، فلو وضعت ذرة منه على جبال الذنوب والخطايا، لقلبتها حسنات.

ومن عظمته سبحانه حفظه لأوليائه كما قال عليه الصلاة والسلام لابن عباس: «احفظ الله تجده تجاهك» وفي رواية «أمامك»»[1].

---

(١) حديث حسن: وتقدم في ص ٨١ .

معناه: أن من حفظ حدود الله، وراعى حقوقه، وجد الله معه في كل أحواله حيث توجه، يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويسدده، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

قال قتادة: من يتقِّ الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل.

كتب بعض السلف إلى أخ له: أما بعد: فإن كان الله معك فمن تخاف؟ وإن كان عليك فمن ترجو؟! وهذه المعية الخاصة هي المذكورة في قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ وقال موسى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

وفي قول النبيﷺ لأبي بكر وهما في الغار: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»(١) ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

فهذه المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة، بخلاف المعية العامة، فإنها تقتضي علمه واطلاعه، ومراقبته لأعمالهم، فهي مقتضية لتخويف العباد منه.

وقيل لبعضهم: ألا تستوحش وحدك؟ فقال: كيف أستوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني(*).

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ٧ / ٨) (٣٦٥٣) في كتاب: فضائل الصحابة. باب: مناقب المهاجرين وفضلهم مسلم (٤ / ١٨٥٤) (١ / ٢٣٨١) في كتاب فضائل الصحابة. باب: من فضائل أبي بكر الصديق كلاهما عن أبي بكر مرفوعاً دون قوله «**لاتحزن إن الله معنا**» فهي من القرآن.

(*) راجع جامع العلوم والحكم. تحت حديث ١٩ .

وقيل لآخر: نراك وحدك! فقال: من يكن الله معه كيف يكون وحده؟(*).

وقيل لآخر: أما معك مؤنس؟ قال: بلى، قيل له : أين هو؟ قال: أمامي ومعي وخلفي وعن يميني وعن شمالي وفوقي(**).

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا

كفى لمطايانا بذكراك هاديا

فتبارك الله الذي ذهب بالمجد والسؤدد والعظمة. ولي من الأبيات:

يا رب حمداً ليس غيرك يحمد

يا من له كل الخلائق تصمد

أبواب غيرك ربنا قد أوصدت

ورأيت بابك واسعاً لا يوصد

وانظر إلى وصفه سبحانه لنفسه، فإنه فوق الواصفين له سبحانه، حيث يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

فكيف يدركه البصير وهو والذي خلق البصر؟ وكيف يحيط به النظر وهو الذي أوجد النظر؟ بل الأبصار والأنظار والأفكار تحت قدرة مكور الليل والنهار، فما أضعف عقول الخليقة، وما أهون شأن البرية عليه، جل في علاه، فإن إيجاد هذا العالم وفناءه إنما هو بكلمة منه سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

(*) راجع جامع العلوم والحكم. تحت حديث ١٩ .

(**) راجع جامع العلوم والحكم. تحت حديث ١٩ .

فمن عظمته سبحانه أن لا يراه الخلق في الدنيا، ليرى من يؤمن به ممن يكفر، ومع ذلك أقام البراهين على وجوده، ونصب الأدلة على وحدانيته، وأظهر الشواهد على قدرته جل في علاه.

واسمع إلى أصدق الثناء وأشرف المدح، وأجل الوصف في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فتفرد بالبقاء، وكتب على غيره الفناء، وجعل مقاليد الحكم بيده، والكل مقهور تحت حكمه، والجميع مغلوب تحت إرادته، فلا حول ولا قوة لأحد إلا به، تقدست أسماؤه.

ثم ذكر مصير العباد إليه فهو الذي يحاسبهم ويوقفهم بأعمالهم، ويحصي عليهم حسناتهم وسيئاتهم؛ في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى.

فأي عظمة أسمى من هذه العظمة؟! وأي كبرياء أعظم من هذا الكبرياء؟! فالبداية إليه، والنهاية عليه، ولذلك قال شعيب عن ربه: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فالتوكل في بداية كل أمر: عليه، والإنابة: الرجوع في كل شأن إليه. فعنده الأولى والأخرى، ومبتدأ الشيء ومنتهاه، وكثيره وقليله، واسمع إلى وصف آخر للقدرة والعظمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

إنها المعجزة التي لا يدري سرها أحد، فضلاً عن أن يملك صنعها أحد، معجزة الحياة نشأةً وحركة، وفي كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية، وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة، والحياة الكامنة في الحبة والنواة، النامية في النبتة والشجرة سر مكنون، لا يعلم حقيقته إلا الله، ولا يعلم مصدره إلا الله، وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة

وأشكالها، وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها.. تقف أمام السر المغيب كما وقف الإنسان الأول، تدرك الوظيفة والمظهر، وتجهل المصدر والجوهر، والحياة ماضية في طريقها، والمعجزة تقع في كل لحظة.

ومنذ البدء أخرج الله الحي من الميت، فقد كان هذا الكون ولم يكن هناك حياة، ثم كانت الحياة أخرجها الله من الموت، كيف لا ندري؟!! وهي منذ ذلك الحين تخرج من الميت، فتتحول الذرات الميتة في كل لحظة عن طريق الأحياء، إلى مواد عضوية حية تدخل في كيان الأجسام الحية، وتتحول ـ وأصلها ذرات ميتة ـ إلى خلايا حية، والعكس كذلك، ففي كل لحظة تتحول خلايا حية إلى ذرات ميتة، إلى أن يتحول الكائن الحي كله ذات يوم إلى ذرات ميتة.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ ولا يقدر إلا الله أن يصنع ذلك، لا يقدر إلا الله أن ينشئ الحياة منذ البدء من الموت، ولا يقدر إلا الله أن يجهز الكائن الحي بالقدرة على إحالة الذرات الميتة إلى خلايا حية، ولا يقدر إلا الله على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة.... في دورة لم يعلم أحد يقيناً متى بدأت، ولا كيف تتم، وإن هي إلا فروض ونظريات واحتمالات.

لقد عجزت كل محاولة لتفسير ظاهرة الحياة، على غير أساس أنها من خلق الله، ومنذ أن شرد الناس من الكنيسة في أوربا: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ وهم يحاولون تفسير نشأة الكون، وتفسير نشأة الحياة، دون التجاء إلى الاعتراف بوجود الله، ولكن هذه المحاولات كلها فشلت جميعاً، ولم تبق منها في القرن العشرين إلا مماحكات تدل على العناد، ولا تدل على الإخلاص.

وأقـوال بعض «علمـائهم» الذي عـجـزوا عن تفسـيـر وجـود الحـيـاة إلا بالاعتـراف بالله، تصور حقيقة موقف «علمهم» نفسه من هذه القضية، ونحن نسوقها لمن لا يزالون عندنا يقتاتون على فتات القرنين الثامن عشر والتاسع عشـر من مـوائد الأوربيين، عـازفين عن هذا الدين، لأنـه يثبت «الغـيب» وهم «علميون» لا «غيبيون» ويخبـر عن الآخـرة وهم مفتونون بالعاجلة ويدعو إلى الله رب العالمين وهم مغموسون بالطين وقوله تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

إن فـالق الحب هو فـالق الصبـاح أيضـاً، وهو الذي جـعل الليل للسكون، وجعل الشمس والقمـر محسوبة حـركـاتهـما مقدرة دوراتهـما، مقدراً ذلك كله بقـدرتـه التي تهـيـمن على كل شيء، وبعلمـه الذي يحـيط بكل شـيء. وانفـلاق الإصبـاح من الظلام حركة تشبه في شكلها انفـلاق الحبة والنواة وانبـثاق النور في تلك الحركة كانبثاق البرعم في هذه الحركة.

وبين انفـلاق الحب والنوى وانفـلاق الإصبـاح وسكون الليل صلة أخـرى، إن الإصبـاح والإمسـاء والحـركـة والسكون في هـذا الكون ذات عـلاقـة مبـاشـرة بالنبات والحياة.

إن هذا الكون مقدر بحساب دقيق، ومقدر حساب الحياة، ودرجة هذه الحياة، ونوع هذه الحياة، كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه، وحتى ما يسمونه المصادفة خاضع لقانون ومقدر بحساب.

والذين يقولون: إن هذه الحياة فلتة عابرة في الكون وأن الكون لا يحفلها، بل يبدو أنه يعاديها، وأن ضآلة الكوكب الذي قام عليه هذا النوع من الحياة توحي بهذا كله؛ بل يقول بعضهم: إن هذه الضآلة توحي بأنه لو كان للكون إله

ما عنى نفسه بهذه الحياة إلى آخر ذلك اللغو الذي يسمونه «علماً» ويسمونه أحياناً «فلسفة» وهو لا يستاهل حتى مناقشتة ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

إن أعظم تعريف لهذا العظيم جل في علاه، وإن أعظم وصف لهذا الملك تقدست أسماؤه هو قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾. وهذا الوصف وحده عليه مدار الرسالات وبه جاءت النبوات، ومن أجله نزلت الكتب، وبعثت الرسل، وأعظم ما يمدح به عز وجل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

واعلم أن النافع والضار حقيقة هو الله عز وجل ولذلك لام أعداءه حينما اتخذوا من دونه آلهة لا يملكون ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً، لأن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع ولا عز ولا ذل؛ بل ربه هو الذي خلقه ورزقه، وبصره وهداه، وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله، وهذا الوجه أظهر للعامة من الأول، ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر، فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به ودعاءه ومسألته دون ما سواه، ويقتضي أيضاً عليه محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عبده وإسباغ نعمه عليه، وحاجة العبد إليه في هذه النعم.

ونظيره في الدنيا من نزل به بلاء عظيم، أو فاقة شديدة، أو خوف مقلق، فجعل يدعو الله ويتضرع إليه حتى فتح له من لذة مناجاته ما كان أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولاً، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولاً حتى يطلبه ويشتاق إليه.

والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه، ومن ذكر نعمائه عليهم، ومن ذكر ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعيم واللذات وليس عند المخلوق شيء من هذا، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبته على إحسانه.

وانظر لغضبه سبحانه على من جهل تعظيمه ولم يوقره حق توقيره، ولم يقدره حق قدره فإن اليهود لما قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ كان الرد مفحماً قوياً جازماً صارماً مسكتاً فقال:﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فهم ذكروا يداً واحدة له سبحانه إخباراً، فتوعدهم ووعده الحق بغل أيديهم جميعاً، ثم أردف قوله: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ فتوعدهم بالطرد والإبعاد من رحمته.

ثم أخبر أن يديه تعالى مبسوطتان وليست يد واحدة كما قالوا، فهما ملأى بالخير، سحَّاء بالجود لا ينقصها شيء ثم قال: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فهو يعطي بلا حساب، لا يخشى الفقر، ولا نوائب الدهر، لأن الخزائن عنده، لو سأله كل العباد أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم فأعطى كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

فتبارك الله ما أجوده، وتعالى الله ما أكرمه، وتقدس الله ما أعظمه، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

ولما أنزل الله سورة الأنعام وهي سورة عظيمة بكل ما تحمله هذه الكلمة، افتتح الله هذه السورة بالثناء على نفسه، والتمجيد له سبحانه، والتنديد بأعدائه.

فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فحمد نفسه قبل أن يحمده الحامدون، فهو المحمود في السراء والضراء، وهو الحكيم في الشدة والرخاء، وهو رب المكان والزمان، وهو خالق السموات والأرض، وجاعل الظلمة والنور، ثم كانت بقية السورة تفصيلاً لهذه الآية، وإثباتاً لوحدانيته تعالى، وانفراده بالخلق، وتفرده بالألوهية، كما نفى الشريك عنه، وذَكَر أوصافه الجميلة، وأسماءه الحسنى، وما ينبغي له من كمال، وما يجب له من تعظيم، ثم النكير الشديد على من ألحد في أسمائه، وأشرك معه وخالف أمره.

سجدة في محراب العظمة تورث العز والمجد للعبد

السجود لله أعظم هيئات العبودية، أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، لأن السجود إذعان بالعبودية، واعتراف بالألوهية، وخضوع تام للمهيمن، ومنابذة للشيطان، وتحرر من الهوى، وانطلاق من قيود الدنيا، وعتق من عبودية الطاغوت.

والسجود لله هيئة خاشعة تثير في النفس حديثاً لا ينتهي من المحبة للجليل، والتمسكن للأحد الصمد، والاستسلام للملك السلام ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾.

السجود لله جل في علاه موقف مُبْكٍ لأن فيه إخاء وصفاء ووفاء واستعلاء.

أما الإخاء فالجميع يسجدون لرب العالمين، الملك والمملوك، الغني والفقير، الأبيض والأسود، السيد والمولى ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

وأما الصفاء فهو تجرد النفس من أوسمة العظمة، ورتب الفخامة، وألقاب الزعامة ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾.

وأما الوفاء: فهو رد الجميل من العبد إلى المعبود تبارك وتعالى، والاعتراف بأياديه الجليلة، وأنعمه الجزيلة، وهباته الجميلة.

فبالسجود يحصل ثناء العبد على سيده ومولاه تبارك وتعالى، وحمده له على ما أعطى وأولى وأسدى وأغنى.

وأما الاستعلاء في السجود فهو انتصار العبد على نفسه الأمارة، وقهر العبد لإبليس اللعين، وغلبة المسلم لدواعي الشر.

فإذا سجد قرب من ربه، وبعد من شيطانه، وخلص من هواه، وطهر من خطاياه، وعصم من عدوه، ونجا من الشرك، وفاز بالأجر.

الله... ما أجمل السجود بتمريغ الأنوف لله وحده.

وإلصاق الجباه بالتراب للملك الحق ﴿كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ وطرح الجماجم على الأرض لله الواحد القهار.

مباشرة الوجوه للطين إجلالاً لرب العالمين، وضع الرؤوس موضع الأقدام توقيراً للملك العلام.

الله... ما أجمل السجود رسالة حية مباشرة لكل ملوك الأرض، معناها: أن الملك حقيقة هو الذي في السماء، وإشارة مفهومة لكل طواغيت الدنيا مفادها: آمنا بالله وكفرنا بالطاغوت.

وموقف حازم جازم فحواه: الكل يفنى إلا الله، الجميع ينتهي إلا الله، الناس فقراء إلى الله، الخليقة فانية إلا الله.

الله... ما أحسن السجود ضربة قاتلة في رأس الصنم، وطعنة نجلاء في قلب الوثنية، وكلمة قاضية في وجه الأدعياء، ثورة مقدسة على الباطل ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾.

الله... ما أرفع السجود عيد أكبر للإيمان، ومولد مبارك للتوحيد، ومهرجان عامر للرسالة الخالدة، ومناسبة عظيمة للمؤمنين بربهم، المحبين لرسولهم المناضلين لمبدئهم، الذابين عن شرعهم.

انظر إلى الساجد إذا سجد هل رأيت صورة أجمل من هذه الصورة؟! هل مر بك منظر أحسن من هذا المنظر؟! هل طاف بك مشهد أجل من هذا المشهد؟! صورة الإنسان الحي المتحرك فجأة يخر على وجهه وأنفه ويديه وركبتيه ورجليه ساكناً صامتاً خاشعاً مخبتاً ذليلاً باكياً ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

منظر العبد الذي كان يأمر وينهى، ويأخذ ويعطي، ويقول ويفعل، فجأة وإذا هو قد وسَّد جبهته، ومرغ أنفه، وعفر وجهه، وأخضع كبرياءه، وأذل عنفوانه لله رب العالمين.

مشهد هذا الكائن الحي بصورته الجميلة، وقامته السامقة، وهيكله المتناسب، وجسمه المتناسق، فجأة يقع جثة لا حراك فيها على التراب، وفجأة يسقط كتلة هامدة على الطين، وفجأة يهوي ذليلاً خائفاً وجلاً نادماً متحسراً ذاكراً لله رب العالمين.

يا أيها الإنسان إنك لن ترتفع عند الله إلا إذا انخفضت له ساجداً، ولن تجد العزة إلا إذا ذللت له ساجداً، ولن تحصل على الغنى إلا إذا افتقرت له ساجدا، فالسجود إذاً رفعة وعزة وغنى وقوة.

يا أيها الإنسان لن تقرب من الله حتى يقترب أنفك الشامخ من التراب ساجدا.

ولن يكرمك الله حتى تضمخ جبهتك الشماء بالطين ساجدا.

ولن تحرر من عبادة الطاغوت حتى تضع رأسك على الثرى ساجدا.

للسجود أسرار يعرفها الأولياء.

قربك من التراب يقول لك هذا أصلك أيها الإنسان فلماذا تتكبر؟!.

دنوك من الأرض يقول لك: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

اتصالك بالطين يقول لك هذا نسبك أيها الإنسان فلا تفتخر. في السجود الرأس والقدم سواء، والأنف والرجل سواء، والوجه والركبة سواء، والسيد والمسود سواء، والغني والفقير سواء.

الطريق إلى السماء يبدأ من الأرض، ومفتاح الرفعة عند الله الذلة له، وباب القرب منه السجود له، انخفض لترتفع، وتذلل حتى تكرم، وافتقر له ليغنيك.

من كان في نفسه كبر فليضعه إذا سجد، لأنه يسجد لكبير متعال، من كان في جمجمته عزة جاهلية فليلقها إذا سجد لأنه يسجد لرب العزة والجلال، من حمل في عطفيه خيلاء فليبرأ منه إذا سجد؛ لأنه يسجد لرب الأرض والسماء، من سكن في قلبه فخر فليضعه إذا سجد لأنه يسجد للملك الجبار القوي القهار.

الإحرام بالحج تعظيم للملك الحق وإعلان الوحدانية له وحده وإرغام الشيطان وحزبه

إذا أراد الحاج أن يزور بيت مولاه، ودار خالقه ورازقه فعليه أن يترك الدنيا كل الدنيا حتى ينسلخ من ثيابه وعمامته وزينته، ويتجرد تماماً من كل لباس إلا الإحرام.

ليتذكر بالإحرام الكفن.

من تعظيم العظيم جل في علاه أن لا يأتيه الزائر إلا حاسر الرأس أشعث أغبر.

ليظهر فقره وضعفه وذله وعجزه وبؤسه، من عظمة العظيم أن لا يفد إليه الوافد إلا متجرداً متخشعاً متذللاً متضرعاً متمسكناً، لتبقى العظمة والقهر، والقوة والعزة، والجبروت لله رب العالمين.

الفقير الذي ليس عنده دينار، والغني الذي عنده ألف قنطار كلهم محرمون.

الملك صاحب الجنود والبنود محرم، كالبائس المحروم؛ لتبقى العظمة والكمال، والجلال، والجمال، والمجد والملك كله وجميعه وأوله وآخره كثيره وقليله دقيقه وجليله لله رب العالمين.

القلوب والأبدان والرؤوس مكشوفة.

النيات والأجسام والوجوه بادية.

السادة والعبيد والأغنياء والفقراء شعث غبر.

هل رأيت لباساً أجمل من لباس المحرمين.؟!

هل شاهدت رؤوساً أحسن من رؤوس المحلقين؟!

هل سمعت صوتاً أندى من صوت الملبين؟!

هل نظرت إلى زحف أكرم من زحف الطائفين؟!

هل أبصرت دمعاً أصدق من دمع الخاشعين؟!

هل سمعت أنيناً أصدق من أنين التائبين؟!

هل رأيت نعاساً أهنأ من نعاس المتهجدين؟!

التعب في مرضاته لذة، والسعي إلى رحابه فوز، والعذاب من أجله عذب، والسهر مع كتابه سعادة، والجوع في طاعته غنيمة، والقتل في سبيله شرف أحسن حركة: اللسان إذا سبحته. وأجمل إشارات: السبابة إذا وحدته، وأصدق لغة: للعيون إذا دمعت من خشيته، وأنبل نبضات: القلب إذا نبض بذكره، وأجل الخطوات: ما سارت إليه، وأطيب الكلمات: ما أشادت به.

أمر الخليل أن يبني له بيتاً في أرض صحراء وجرداء قاحلة فحمل الناس الشوق إلى بيت الحبيب حتى تقطعت من حبه نياط القلوب، وتشققت في السعي إليه الأقدام، وتزاحمت في الدنو من بيته الأكتاف، وضجت بتلبية ندائه الأصوات، واكتظت في ضيافته الجموع، وتساوت في خدمته الرؤوس، ووجلت من خوفه النفوس.

التلبية: إعلان الوحدانية، والاحتجاج على الوثنية، واستنهاض همم الإنسانية.

الطواف: ملازمة بيت الملك، وتعهد دار الواجد الماجد، والدوران حول رمز القداسة والطهر والسمو.

السعي: متابعة الأم، وتجديد الشوق، وإظهار المحبة.

الرمي: قذف العدو، وتحطيم الخرافة، وإزهاق الباطل، وسحق البهتان.

الوقوف بعرفة: التهيؤ للعرض الأكبر، والاستعداد للرحيل المحتوم، وعرض الضعيف على القوي، والفقير على الغني، والعجز على القهار، والذنب على التواب، والحاجة على الجواد، والسرائر على علام الغيوب، سبحان من أحوج الناس إليه حتى أصبح أغناهم من أحسن الفقر له، وأقواهم من أجاد الضعف بين يديه، وأعزهم من تذلل له، وأرفعهم من خضع لجبروته، وأكرمهم من تواضع لعظمته، وأتقاهم من انكسر لجلاله وهيبته.

ترفع إليه الأصوات بشتى اللغات، ومختلف اللهجات؛ بأنواع الحاجات، فيعلم حاجة الجميع، وسؤال الجميع، ومطلب الجميع، فيعطي كلاً، ويجود على كل، ويتفضل على كل، ثم تبقى خزائنه كما هي، لا ينقصها العطاء، ولا يغيضها الجود، ولا يؤثر فيها كثرة البذل والكرم ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾.

صوت العظمة يملؤ الآفاق ويصل إلى سويداء القلوب ليملأها حباً وشوقاً وتعظيماً للباري

كلما حانت الصلاة أذن المؤذن ليعلن المبدأ صراحة، بلا خفية، علناً بلا سر، جهراً بلا كتمان، ليقول للناس: هذا دين صريح واضح لا ألغاز فيه ولا أسرار، ولا أحاجي، وأكبر قصد للأذان تعظيم الرحمن، والثناء على الديّان، وتمجيد المنان.

إن الأذان وثيقة ربانية يكررها المؤذن كل يوم خمس مرات، فكأنه يقول: يا من نسي أو تناسى تذكر أن الله أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأحب من كل شيء، يا من غفل أو تغافل تذكر أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

يا من جهل أو تجاهل تذكر أنك على موعد مع الله في بيته لتريه ضعفك وفقرك وعجزك وحاجتك.

الأذان يذكرك دائماً بعظمة الله عز وجل، فهو يصيح بالنائمين: استيقظوا فإن الله عظيم، وهو يهتف بالغافلين: تنبهوا فإن الله عظيم.

وهو يزلزل الكافرين ويلكم أما علمتم أنه عظيم، كل قرية وكل مدينة في الإسلام تضج بالأذان مع كل صلاة لتبلغ الناس رسالة العظمة في قوة، وخطبة القداسة في حماس، وخطاب التمجيد في صرامة لسان. حال المؤذن يقول: أيها العالم المنشغل بدنياه، أيتها الخليقة المنهمكة في دنياها، أيها القوم المنغمسون في أعمالهم: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

أيها الفلاح في مزرعته، أيها الأستاذ في مدرسته، أيها الطبيب في عيادته، أيها التاجر في تجارته، أيها الملك في مملكته، أيها المعرض في غفلته، أيهاالمستغرق في نومته: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

يا حجر، يا شجر، يا مدر، يا بدو، يا حضر، يا من غاب ويا من حضر، يا من اغتنى، ويا من افتقر، يا من غُلب ويا من انتصر: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

أيها الشيخ الهرم، أيتها العجوز المسنة، أيها الشاب، أيها الطفل، أيها الغني، أيها الفقير، أيها الناس، كل الناس، أيها العالم كل العالم، أيها الكون كل الكون: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

أيها النهار الباسم، أيها الليل القاتم، أيها الطل الناعم، أيها الجبل الجاثم، أيها النهر الجاري، أيها الضوء الساري، أيها الشعاع الناري، أيتها الحديقة، أيتها الأزهار، أيتها الأوراق: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

يا عرب ويا عجم، يا فرس يا روم، يا بيض يا سود، يا مسلمون، يا كافرون، يا موحدون، يا ملحدون، يا مهتدون يا ضالون، يا عارفون، يا منكرون: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

يا قارات، يا محيطات، يا آسيا، يا إفريقيا، يا أوروبا، يا أمريكا، يا كل أرض، يا كل سماء: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

الأذان كطلقات المدفع على قلاع الوثنية، وكالقذائف المتتابعة على ثكنات الجاهلية.

الأذان صيحة نصر، وصرخة الضمير الحي، وصوت الواجب المقدس، ونشيد الأحرار، وملحمة الشهداء، وتحية المنهج الرباني، والشرع المحمدي، والدين الإسلامي ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فصل

ذكر ابن بطوطة في رحلته: أن واعظاً كرر قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ فصاح أحد الحضور ثم وقع ميتاً.

إن عظمة الساعة من عظمة من قدرها وصورها وقضاها جل في علاه. وفي السير أن عبدالله ابن وهب ـ العالم العابد ـ سمع قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾. فخر مغشياً عليه ومات بعد ثلاثة أيام. ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وفي البداية أن عمر ـ رضي الله عنه ـ سمع القارئ يقرأ: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ فحمل إلى بيته، وبقي مريضاً شهراً كاملاً يعوده الناس.

إنه تعظيم الباري عز وجل، والخوف من مقامه، ومعرفة قدره وقهره، وإن عظمة القرآن من عظمة منزله جل في علاه ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾.

فسبحان سميع الدعاء، سريع الإجابة، خفي اللطف، فارج الكرب، كاشف السوء، مجيب دعوة المضطر، فالق الإصباح، مزيل الهم.

وذكر أبو الفرج الجوزي عن الخليفة المعتصم: أن قوماً ركبوا البحر، فسمعوا هاتفاً يهتف بهم من يعطيني عشرة آلاف دينار حتى أعلمه كلمة إذا أصابه غم أو هم أو خاف هلاكاً أو وقع في كرب فقالها: كشف الله عنه كربه، وأزال عنه همه، وغمه، فقام رجل من أهل المركب، فصاح: أيها الهاتف أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وعلمني، فقال: إرم بالمال في البحر، فرمى به، فقال الهاتف: إذا وقعت في كربة أو أصابك هم أو غم فاقرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ فقال الرجل: فو الله ما وقعت في كربة، أو أصابني هم، أو غم؛ فقرأت هاتين الآيتين إلا كشف الله كربي، وأزال همي، وغمي. فله الحمد علمنا كيف ندعوه ونرجوه ونسأله، ووعدنا الإجابة بل ضمنها سبحانه فقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ اللهم فرج كربنا وأزل غمنا وهمنا، وأذهب حزننا، ويسر لنا أمرنا يا أرحم الراحمين.

وذكر ابن عبدالبر في كتاب الوزراء: أن المحلى بن أيوب الكاتب العباسي المشهور قال: لحقتني نكبة، ووقعت عليَّ كربة أطارت نومي، وكادت تذهب بعقلي فلجأت إلى الله عز وجل في كشفها، وألححت عليه في الدعاء، ثم نعست فرأيت شخصاً بين يدي يقول: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ثم انتبهت وقد جاء من الله الفرج فكشف كربتي، وأزال ما أهمني، وهذا أمر معلوم عند ذوي الفطر السليمة أن من ألح على ربه في الدعاء، وصدق في الطلب، جاءه الفرج كلمح البصر.

ونقل أبو الفضل الشيرازي الكاتب عن رجل من الصالحين: أنه خاف عدواً قصده بسوء ودبر له مكيدة، فالتجأ هذا الرجل إلى الله، فرأى في منامه قائلاً يقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قال: فما أصبحت إلا وقد كفيت أمر ذاك العدو، وأهلكه الله، ونصرني عليه، فتبارك ناصراً أولياءه وقاهراً أعداءه.

وذكر أبو بكر بن شجاع المحدِّث الثقة: أن بعض الصالحين ألح عليه الغم وضيق الصدر، وتعذر الأمر حتى كاد يقنط فسمع قائلاً ينشد:

إذا ضـــاق بـك الأمـــر

فـفـكـر فـي ألـم نـشـرح

فـعـسـر بـين يـسـرين

مـتـى تـذكـرهـمـا تـفـرح

فأهناك إلى فرجه وغوثه ومعونته لأوليائه وأحبابه.

ولقد كان الله جل في علاه عظيماً في قلوب سلف الأمة يقدرونه حق قدره يعظمون شعائره وحرماته.

ورد عن الإمام الشافعي أنه قال: ما حلفت بالله صادقاً، ولا كاذباً، وما كان إلا توقيراً لاسم الله عند هذا الإمام أن يمتهن على اللسان.

ولما أراد علي بن الحسين زين العابدين أن يلبي تردد وارتعد وتغير لونه فقال له أصحابه مالك؟ قال: أخشى أن أقول: لبيك اللهم لبيك، فيقال لي: لا

لبيك ولا سعديك، فلما لبى اضطرب واحمر وجهه حياء وخجلاً وخشية له تبارك وتعالى، لأن هذا الرجل الصالح وأمثاله عظم عندهم قدر الله، وكبر في نفوسهم حب الله، فظهر على جوارحهم وأعمالهم.

وقد أوصى بعض الصالحين ابنه فقال: يا بني عظم أمر الله في نفسك. وهذه من أحسن الوصايا، فإن من عظم أمر الله اتقّاه، وخاف لقاءه، وحفظ حدوده، وهجر معاصيه.

وقد أنكر رسول الله ﷺ على من قال: ما شاء الله وشئت فقال: «**أجعلتني لله نداً لا بل ما شاء الله وحده**»(١).

فلا يحق لعبد أن يقارن بين الله جل في علاه وبين أحد من خلقه ولا أن يساوي بينه وبين شيء من مخلوقاته، فإنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فلا يشبهه شيء في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله، تبارك الله رب العالمين.

واعلم أن مِنْ عظمة الله أنه لا حول لأحد ولا قوة إلا به؛ ولذلك كانت هذه الكلمة من أعظم الكلمات، فقد صح أن الرسول ﷺ قال لأبي موسى - رضي الله تعالى عنه -: «**عليك بلا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنز الجنة**»(٢).

قال أحد الصالحين: لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم دواء من تسعة

---

(١) حديث حسن: أخرجه البخاري في الأدب (٧٨٣)، وأحمد في مسنده (١ / ٢١٤، ٢٢٤، ٢٤٧،٢٨٣) وابن ماجه (١ / ٦٨٤) (٢١١٧) في كتاب: الكفارات. باب: النهي أن يقال ما شاء الله وشئت كلهم عن ابن عباس مرفوعاً. حسنه المحدث الألباني في الصحيحة (١٣٩). وعلى الحديث تعليق له فراجعه فهو مهم.

(٢) حديث صحيح: وتقدم.

وتسعين داء أيسرها الهم.

وفي الوابل الصيب: أن الله أمر الملائكة بحمل العرش فلم تستطع فقال: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله فقالوها فحملوا العرش بإذن الله، فلا حول ولا قوة إلا بالله ينال بها أشرف الأحوال، وتهون بها الأهوال، وتحمل بها الأثقال، ويصلح بها البال، وهي من أحسن الأقوال.

ومن عظمته سبحانه أنه لا يلتجأ في الشدائد إلا إليه دون غيره، ولا يسأل إلا هو دون سواه جل في علاه.

قال عز من قائل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. وقال عز من قائل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾وقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

وانظر إلى قصة الثلاثة[١] الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار، فما وجدوا ملجأ غير الله؛ فسألوه سبحانه وتوسلوا إليه بأعمالهم الصالحة، فأنجاهم وأخرجهم من الكرب، وأنقذهم من الهلاك، حتى إن دعاء الكرب يشتمل على معاني التمجيد والتعظيم والتبجيل للملك الجليل جل في علاه وكانﷺ يقول عند

(١) جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري (الفتح ٤ / ٤٤٩) (٢٢٧٢) في كتاب: الإجارة. باب: من استأجر أجيراً فترك أجره، فعمل فيه المستأجر فزاد أو من عمل في مال غيره فاستفضل. ومسلم (٤ / ٢٩٩) (١٠٠ / ٢٧٤٣) في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب: قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال. كلاهما عن عبدالله بن عمر مرفوعاً «**انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم .... الحديث**».

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١١ / ١٤٥) (٦٣٤٥) في كتاب الدعوات. باب: الدعاء عند الكرب ومسلم (٤ / ٢٠٩٣) (٨٣ / ٢٧٣٠) في كتاب الذكر والدعاء. باب: دعاء الكرب. كلاهما عن ابن عباس مرفوعاً. واللفظ لمسلم.

الكرب: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات، ورب الأرض، ورب العرش الكريم**»(٢).

إن أحق ما مدح وما أثني عليه هو الله عز وجل، ولهذا صح في الحديث أن رجلاً قال يا رسول الله: إني أثنيت على ربي ومدحته بأبيات من شعر، قال: «**أما إن ربك يحب المدح**» وفي الأثر الآخر «**ليس أحد أحب إليه المدح من الله**»(١)، ولذلك مدح نفسه جل في علاه.

قال طاووس بن كيسان العالم العابد الزاهد: كنت في البيت الحرام ذات ليلة إذ دخل علي ابن الحسين زين العابدين، فقلت: رجل صالح من أهل البيت لأسمعن دعاءه هذه الليلة قال: فصلى، ثم سجد، فأصغيت بسمعي إليه، فسمعته يقول: عبدك بفنائك، مسكينك بفنائك، فقيرك بفنائك، سائلك بفنائك.

قال طاووس: فحفظتهن، فما دعوت بهن في كرب، إلا فرج الله عني، وسر هذا الدعاء تعظيم الرب سبحانه، واحتقار العبد لنفسه، وصدق الافتقار إلى مولاه، وعظيم الرغبة في فضله.

إن الدعاء من أعظم شعائر التعظيم لربنا عز وجل؛ لأنه سواء فيه الفقير والغني، والضعيف والقوي، والعبد والسيد، وفيه شهود القلب بغنى الرب،

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد في مسنده والبخاري في الأدب المفرد والنسائي والحاكم في المستدرك عن الأسود بن سريع.

(٢) حديث صحيح: متفق عليه، وتقدم ص٦٩ .

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٤ / ١٩٩٠) (٤٣ / ٢٥٦٩) في كتاب: البر والصلة والآداب. باب: فضل عيادة المريض عن أبي هريرة مرفوعاً: «**إن الله ـ عز وجل ـ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني. قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟. يا ابن آدم استسقيتُك فلم تسقني. قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟. قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما أنك لوسقيته وجدت ذلك عندي؟**».

وكماله وجلاله وجوده، ويقين النفس بفقرها وعجزها وذلها، وضعفها.

وفي حديث صحيح[٢] «**أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: أما علمت أن عبدي فلان بن فلان مرض فلم تعده أما إنك لو عدته وجدتني عنده**».

لأن المريض مكسور القلب، وانكسار قلبه هو سر قربه من ربه ومولاه، فكلما زاد العبد لمولاه انكساراً أو احتقاراً زاده عزّاً ورفعة، وإكراماً، ولذلك ورد في حديث صحيح أن الله يجيب دعوة المسافر[١]، لوجود الانكسار عنده والمسافر انكسر قلبه لغربته وبعده عن أهله ووطنه، والقلب محل نظر الرب تبارك وتعالى.

وفي الحديث الصحيح: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا أموالكم؛ ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[٢].

قال بعض الكتاب: إن الله تعالى ليمتحن العبد، ليكثر التواضع له والاستعانة به، ويجدد الشكر على ما يوليه من كفايته، ويجيد الانكسار على

---

(١) حديث حسن لغيره: أخرجه الترمذي (٤ / ٣١٤) (١٩٠٥) في كتاب: البر والصلة. باب: ما جاء في دعوة الوالدين. وأبو داود (٢ / ١٨٧) (١٥٣٦) في كتاب الصلاة. باب: الدعاء بظهر الغيب. وابن ماجه (٢ / ١٢٧٠) (٣٨٦٢) في كتاب الدعاء. باب: دعوة الوالد ودعوة المظلوم. كلهم عن يحيى بن أبي كثير عن أبي جعفر عن أبي هريرة مرفوعاً: «**ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن، دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده**». راجع الصحيحة للعلامة الألباني (٥٩٦).

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٤ / ١٩٨٧) (٣٤ / ٢٥٦٤) في كتاب البر والصلة والآداب. باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله. عن يزيد بن الأصم عن أبى هريرة مرفوعاً فذكره.

كلام الله في كتابه آية من آيات عظمته حيث التأثير والإعجاز والبيان والسمو

القرآن المعجزة الخالدة، حيث العدل في الحكم، والصدق في الخبر، والبيان في القول، والتأثير في السامع، واليقين في النقل، والوضوح في الدلالة.

القرآن كلامه المنزل على عبده، وحديثه الموحى إلى مصطفاه، وحكمه الموجه إلى خلقه.

القرآن موجز، وكذلك الإعجاز بيِّن، وكذلك الدليل قاطع، وكذلك الحقيقة، وشائق، كذلك الجمال رائع، وكذلك الحسن.

كل آية نجمة في سماء البيان تلمع أمامك، وتشع فوقك، وكأنها تناديك: انظر وتأمل وتدبر، أنا حقيقة في ديوان البيان، أنا قصة في دفتر الخلود، أنا أعجوبة في سِفْر المعرفة.

كل سورة هالة من الحسن في عيد البلاغة، وعروس من البهاء في مهرجان الإعجاز، وحديقة غناء في أرض الفصاحة، يا أحياء، يا فصحاء يابلغاء، يا خطباء، يا شعراء، أسألكم بالله هل طرق المسامع مثل القرآن بياناً وجاذبية؟! هل وقع في القلوب مثل القرآن يقيناً وهدى؟!

هل قرأت العيون مثل القرآن جمالاً وإبداعاً؟!

هل ذاقت الأرواح مثل القرآن حلاوة وطلاوة؟!

هل هز منابر الدنيا مثل القرآن تأثيراً وتمجيداً؟!

هل جلجل في النوادي مثل القرآن براءة وإشراقاً؟!

يا حملة الأقلام والمحابر، يا أهل الصحف والدفاتر، يا روّاد النوادي والمنابر، بالله هل ذقتم كالقرآن يوم صارت كل آية مائدة من النور والحبور والسرور؟!.

بالله هل شنف المسامع مثل القرآن يوم صار كل حرف عالماً من الإيحاءات والذكريات والعظات؟!.

بالله هل أثلج الصدور مثل القرآن يوم صارت كل كلمة طائفة من الحجج والبراهين والهدى؟!.

استيقظ يا عقل من سبات الغفلة، وخمر الهوى، وسكار الباطل، استيقظ على وقع مطارق القرآن التي أحدثت دوياً في عالم الثقلين، وفي دنيا الأحياء وفى سماء الخليقة.

استيقظ يا قلب بعد رقدة الغفلة، ونوم الجهل وهجعة الصبا، استيقظ على صوت القرآن الفريد حيث يشق الآفاق، ويخترق الأثير، ويكتسح الشبهات، استيقظ يا عالم من فترة الصبا، وجفوة العقوق، ومرحلة الضياع، استيقظ على هتاف القرآن، حيث يزلزل الوثنية في النفس، والخرافة في العقل، والخيانة في الضمير، والرجس في الجسد، والظلم في الناس.

أيها الناطقون بكل لسان، المتكلمون بكل لغة، المتحدثون بكل لهجة اجمعوا أروع القصائد، وأحلى الملاحم، وأبلغ الخطب، وأحسن القصص، وأجمل الكلمات ليأتي القرآن بنبعه المتدفق، ونوره الوهاج، وحسنه البديع، وتأثيره العجيب، فإذا القصائد والملاحم والخطب، والقصص، والكلمات صارت هباء منثوراً،

وعملاً مبتوراً، لا قيمة ولا روعة ولا حسن ولا جمال، لأن من تكلم بالقرآن هو الذي خلق من تكلم بالخطبة؛ ولأن الذي أنزل القرآن هو الذي صور من نظم القصيدة، ولأن الذي أحكم القرآن هو الذي أوجد كاتب القصة، فكيف نجعل كلام المخلوق ككلام الخالق؟! وكتاب الناقص مثل كتاب الكامل؟! وقول الواجد الماجد الغني القوي كقول العاجز الهزيل الضعيف الفقير؟!.

منذ خلق الله الخلق وطبقات الأثير مكتظة بذبذبات الأصوات، ورفوف الأدراج مزدحمة بأكوام المجلدات، وبطون الصحف غرقى في بحور المقالات والكلمات، والمقامات نتاج يملؤ النوادي والمحافل والمجامع والمسارح.

ثم يصل القرآن من السماء إلى الأرض، ومن العرش إلى الثرى، ومن الرحمن إلى الإنسان، فكأن الخليقة لم تقل شيئاً، ولم تكتب شيئاً، ولم تؤلف شيئاً.

نُسِيتْ ملايين الخطب وبقي القرآن، واندثرت أكوام الكتب، وبقي القرآن، ومحيت آلاف القصص، وبقي القرآن؛ لأن القرآن من فوق، وهي من تحت؛ ولأن القرآن سماوي، وهي نتاج أرضي؛ ولأن القرآن من رب العالمين، وهذه الثقافات من سلالات الطين.

لا تقل للشمس في رابعة النهار هذه الشمس الساطعة، ولا تقل للقمر ليلة البدر هذا القمر الباهي، ولا تقل للبحر يوم تزخر أمواجه هذا البحر الزاخر، أغنى منها عن مدحي ومدحك لأن الشمس تغيب، والقرآن في استمرار، والقمر يأفل، والقرآن في امتداد، والبحر يغيض، والقرآن في عطاء وبذل، للشمس وجه واحد من الحسن، وللقرآن أوجه من الحسن والجمال والجلال،

الشمس صامته بكماء، والقرآن مؤثر مبين معجز مفحم، الشمس يخفيها السحاب، والقرآن لا تخفيه شبهة، ولا تكتمه نحلة، ولا تستره دعوى.

وأما القمر فيمر بخسف يذهب نوره، والقرآن يسطع ويشع ويلمع على تداول العصور، واختلاف الدهور، وتعاقب الأجيال، وتتابع القرون، والقمر بين صغير ثم يكبر ثم يصغر، والقرآن نزل كبيراً، ويبقى كبيراً، ويستمر كبيراً.

وأما البحر فموجه كالح، وطعمه مالح، وأما القرآن فوجه مشرق، وطعم هنيء له حلاوة، وعليه طلاوة، والبحر به أجسام غريبة، وجثث ميتة، والقرآن حقائق من الهدى، ومعالم من البيان، وحصون من المناعة، والحفظ من الرعاية والولاية.

والقرآن جديد دائماً، لذيذ أبداً، تكرر علينا الفاتحة في كل ركعة، ونسمعها مئات المرات، وفي كل مرة جديدة لذيذة ممتعة، لها طعم آخر، ولون آخر، وإشراق آخر، كأنا لم نسمعها من قبل.

ولو أن القرآن وجه إلى جبل؛ فوقعت على الجبل عبارات القرآن وتساقطت على الجبل كلمات القرآن، وانسكبت على الجبل جمل القرآن لرأيت الجبل خاشعاً متصدعاً من خشية الله، هذا، وهو جبل من حجر صلد فكيف بالإنسان ذي القلب الضعيف المنسوج من لحم ودم؟! ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن؛ لأنه له من القوة والسلطان والتأثير ما لو قصد به الصخر لتشقق، ولوكلم به الميت لسمع، أو قصدت به الأرض لتقطعت، لماذا؟ ما هو السر؟ كيف يكون له هذا الوقع؟ ما هي المؤثرات فيه؟ إنه كلام الله وكفى.

الجن عالم آخر، وأمة ثانية، سمعت القرآن فعجبت لبلاغته، وانصاعت لبيانه، واندهشت من فصاحته، وقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾، فكيف بأهل اللسان، وأصحاب اللغة العربية، تقرأ القرآن فإذا الزمان مطوي أمام ناظريك والمكان مجموع بين يديك، والأمم حاضرة عندك، تقرأ القرآن فيملؤا منك أقطار القلب ومنافذ النفس، يدفع الشبه، يطارد الانحراف، يسحق الزور، يدفع الباطل، يزلزل الجهل.

تقرأ القرآن فيأخذ بيدك إلى الهدى، ويفتح قلبك على النور، ويقود ضميرك إلى الرشد، ويهتف في جوانحك استيقظ، ويصيح في كيانك انتبه.

تقرأ القرآن فإذا القصة، لكن أحسن القصص بلا جدال، وإذا الموعظة لكن أبلغ المواعظ بلا خلاف، وإذا المثل لكن أصدق الأمثال بلا ريب.

والقرآن مؤنس يسليك عن كل صاحب، ويعزيك عن كل ذاهب، ويكفيك عن كل كتاب، ويعوضك عن كل غائب.

والقرآن معجز يأخذ الشبهة فيضعها ثم يدفعها ثم يسحقها فإذا هي رماد تذروه الرياح.

والقرآن جميل يعاد على المسامع، فإذا روعة النغم تنساب في لذة، وتعبر الأذن في نشوة، وتلج القلب في ترحاب، وتغوص في قاع النفس في يسر، عظمة القرآن من عظمة منزله جل في علاه، لأن القرآن كلام الحاكم، وخطاب الملك، وموعظة المهيمن، ووصية الباري، نصيحة الله جل في علاه ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾.

كل جـيل بعلمـائه وقـرائه وخطبـائه ووعـاظه وأدبائه يقـرؤون القـرآن فيعجبهم، ويدهشهم ويثيرهم ثم يموت هذا الجيل، ويأتي جيل آخر فيعجبون من القرآن ويدهشون، ويتأثرون ثم يموتون، ويبقى القرآن كما أنزل قوة وحسنا وروعة وبياناً وإشراقاً، آياته كلما طال المدى تتجدد.

والقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه فكل نظرية أو مقولة أو نحلة أو ملة أو مبدأ جد بعد لا يمكن أن ينقصه بل للقرآن السلطان والحجة على كل ما جاء بعده فلله الحجة البالغة.

والقرآن لا يأتيه الباطل من خلفه، فلا يسبقه ما يناقضه، بل القرآن له السؤدد والنفوذ والهيمنة.

تُملؤ المصنفات بالكلام، وتُعبَّؤ الدفاتر بالقَول، وتسود الصحف بكل مكتوب ثم يأتي القرآن فيختصر الجميع في جملة، ويوجز الكل في عبارة، ويلخص ما كتب لأنه كلام الله وكفى.

كأن علمهم وثقافتهم وأدبهم وديوانهم القرآن العظيم.

يجلسﷺ مع أصحابه فيأمر ابن مسعود - رضى الله عنه - تلميذ الرسالة البار، وصاحب القرآن الماهر، أن يقرأ عليهم القرآن فاستحى ابن مسعود من المعلم الرباني والإمام القدوة، والرسول المعصوم أن يقرأ بين يديه، فقال كيف أقرأ عليك القرآن يا رسول الله وعليك أنزل؟ فقالﷺ: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**»، وابتدأ ابن مسعود يقرأ سورة النساء وارتحلت القلوب معه وهي تسمع كلام الباري وتنصت لقول الحق حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ وصل إلى هنا

ووصل الأثر إلى الأعماق، ودخل هذا القول إلى أغوار النفس، وأوقفه ﷺ ابن مسعود قائلاً: «**حسبك الآن**» قال ابن مسعود: فنظرت إلى عينيه تذرفان[١].

إن أعظم تمجيد يقال في القرآن، وأجل مدح يصاغ في القرآن: أنه كلام الله فحسب، فإذا كانت هذه عظمة القرآن فكيف بعظمة من أنزله، وتكلم به، فسبحانه ما أعظمه وأكرمه، وأحلمه، وأرحمه جل عن الشريك، وتفرد عن الند وتنزه عن الضد، **لا إله إلا هو**.

(١) جاء ذلك في حديث صحيح: وتقدم ص٦٣.

الثناء على الجليل ديانة ومدح العظيم قربة وتقديس المهيمن شرف

الله إله واحـد ليس له شـريك، لأن من لوازم الربوبيـة التـفـرد، ومن خصائص الأولوهية التوحيد، فلا ينبغي له مشارك في الحكم كما لم يكن له مشارك في الخلق تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، والله ليس له شبيه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير؛ لأنه متفرد في ذاته وأسمائه وصفاته، لا يشبه شيئاً من خلقه؛ لأنه كامل مُبَرؤ عن كل نقص، منزه عن كل عيب، سليم عن كل شين، ولا يشبهه أحد من خلقه، لأن الخلق لا يسلم من خطأ، ولا ينجو من زلل؛ ولأن المخلوق ضعيف فقير ينسى وينام ويموت.

والله قوي غني لا ينسى، ولا تأخذه سنة ولا نوم، وهو حي قيوم لا يموت. والله ليس له ولد، فليس في حاجة إلى الأولاد، فهو تام القدرة، نافذ الحكم، قوي الإرادة، كامل الغني، غير محتاج لأحد من الناس كائناً من كان، بل لا تنفعه طاعة الطائع ولا تضره معصية العاصي، جل في علاه ولا إله إلا الله.

والله ليست له صاحبة، لأن من يحتاج إلى التوالد والإنجاب ناقص، والله كامل منزه عن هذا مُبَرؤ عما يخص المخلوق، أحد صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ولم يكن له صاحبة ولا ولد؛ ولأن من يحتاج إلى زوجة قاصر ناقص والله غير محتاج؛ بل هو ذو الغنى المطلق والقوة المتناهية، والعظمة الكاملة فلا نهاية لمجده، ولا منتهى لحمده، تقدست أسماؤه وتعاظمت صفاته.

والله لا ينام لأن من ينام فقير إلى الراحة، متعب من الشغل مجهد من العمل، وهو سبحانه لا يدركه نصب ولا يناله تعب، ولا يحتاج إلى نوم، ولا يفتقر إلى راحة لأنه خالق القوة للأقوياء، وموجد الغنى للأغنياء، وواهب العظمة للعظماء، إذن فهو أقوى قوي، وأغنى غني، وأعظم عظيم، وهو سبحانه الملك الحاكم ولو نام الملك لضاعت الرعية، وانفرط حبل الملكوت، وخرب العالم وتدمر الكون، والله لا يموت، لأن من يموت ناقص الحياة، مبتور العمر، منتهي الوجود، معدم البقاء، وهو سبحانه الحي الذي من حياته استمد كل حي حياته، القيوم الذي قامت بقيوميته الكائنات، الباقي بعد موت خلقه فلا يزول، والدائم بعد وفاة الأحياء فلا يفنى، الموجود بعد نهاية العالم فلا ينتهي، الوارث لكل شيء فلا يموت ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ والله لا راد لحكمه لأن من يرد حكمه عاجز، ومن يرفض أمره قاصر، ومن لا يقع مطلبه مغلوب، وهو سبحانه فارض الحكم؛ لأنه تام القدرة، نافذ الأمر لأنه غالب على كل شيء، فعال لما يريد، لأنه لا راد لمشيئته ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

والله فعال لما يريد؛ لأن من فعل شيئاً لم يرده واهم أو ناسٍ، ومن أراد شيئاً ولم يفعله قاصر عاجز، ومن لم يرد شيئاً ولم يفعله ميت غائب، وهو سبحانه لا واهم، ولا ناس، ولا قاصر، ولا عاجز، ولا ميت، ولا غائب، فهو لا يريد شيئاً إلا فعله لكمال القدرة، وعدم المانع، ولا يفعل شيئاً إلا أراده لتمام العلم وسعة الاطلاع، وكمال الإحاطه ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

الله تعالى تصمد إليه جميع المخلوقات في جلب النفع ودفع الضر

الله صمد تصمد له الحيتان في الماء، والدودة في الطين، والحية في الجحر، والنملة في السرب، والنحلة في الخلية، الكل يرجو عطاءه ويطمع في فضله، ويأمل مدده، ويسأله بره وخيره؛ لأنه تكفل برزق الجميع، واطلع على شؤون الجميع ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

والله صمد تقصده الملوك إذا اضطربت الأمور، ووقع المحذور، وضاقت بالحوادث الصدور، وتخضع له الجبابرة إذا زلزلت منهم الأركان، وتزاحم عليهم الحدثان، وعظم على قلوبهم الشأن، لأن نواصيهم بيده، ومقاليد أمرهم في قبضته، والكل متقلب بين نعمته ونقمته، ولأنه صمد سبحانه ارتفعت إليه أكف الداعين تطلبه الغيث إذا تأخر نزوله، وتسأله الرزق إذا أبطأ حلوله، وترجوه رفع الضر إذا خيم بظلاله، وتتملقه في كشف البلاء إذا ثقلت وطأته، وعظمت حدته، وتناشده الألسن نصره إذا حمى الوطيس، وتستعيذ من غضبه إذا خيف أخذه، وترجو رحمته إذا ظهرت بشائر جوده، وتستعينه على إدراك المطالب، وحصول الرغائب، واندفاع النقم، وتتابع النعم، وتأمل منه الهدى عند الاختلاف، والرشد عند الاضطراب، والخيرة عند الاشتباه ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ولأنه صمد سبحانه تاقت إلى فضله أرواح العارفين، وطمعت فيما عنده نفوس العابدين، وأحسنت الظن به قلوب الصادقين «**أنا عند ظن عبدي بي فليظن**

بي ما شاء»، يصمد له الحاكم على كرسيي حكمه ليبقى له السلطان، ويستمر له الجاه وعلو الشأن، ويندفع عنه شر الإنس والجان، فيمنحه العز ويؤيده بالنصر ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾.

ويصمد له العالم عند ورد المسائل، وازدحام الأدلة، وتوارد الخواطر وكثرة الوقائع، ومرور الحيرة واختلاف البراهين، فيكشف له الحقائق، وينير له البصيرة، ويهديه الجادة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾.

ويصمد له التاجر عند بوار السلعة، وخسارة الصنعة، والطمع في الربح، والخوف من الإفلاس، فيعوضه عند التلف، ويقيل عثرته بأحسن الخلف، ويفتح عليه باباً من حيث لا يحتسب ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾.

ويصمد له ملاح السفينة عند تلاطم الأمواج، وغضب البحر، وطغيان الماء، وخوف الغرق، ودنو الهلاك، فينقذ المركب من الدمار، ويمسك السفينة أمام التيار، وينجي ركابها من البوار: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

ويصمد له سبحانه المريض على فراشه إذا بارت الحيلة، وما أجدت العقاقير، وما نفعت الأدوية، وما صح العلاج، وما عرف الطبيب الحالة، فيشافيه سبحانه، ويعافيه، ويلبسه لباس الصحة، ويذهب عنه سقمه، ويطرد عنه ضره ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

وتصمد له سبحانه المرأة عند الولادة إذا أصابها الطلق، وتعسر المخاض، وصعب الأمر، وضاقت الأنفس، واضطربت الأطراف، فيكشف ما بها ويزيل

كربها، ويذهب همها، وغمها، وييسر أمرها: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

ويصمد له سبحانه اليتيم إذا مات أبواه، وقل ناصره، وعظمت حسرته، واشتدت كربته، ولم يجد من يؤويه ويطعمه، ويسقيه؛ فيتولى أمره الرحمن الرحيم؛ بالفضل العميم، والعطاء الجسيم، فيحوطه بالرعاية ويحفظه بحسن الولاية.

ويصمد له سبحانه الفقير إذا أوصدت أمامه الأبواب، وأسدل دون حاجته الحجاب، وألصق بطنه بالتراب، فيهيء سبحانه فرجه في لمح البصر، ويكتب غناه بقلم القدر، ويغنيه عن كل البشر: ﴿والله يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ويصمد له سبحانه المديون إذا أثقله الدين، وأهمه الغرم، وأحزنته التبعة، وصعب عليه الحمل، فيقضي دينه، ويرضي غريمه، ويكشف عنه ما أهمه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾.

ويصمد له سبحانه السجين إذا أغلق عليه الباب، ووضع دونه الحجاب، وحيل بينه وبين الأهل والأصحاب، وضاقت به الحيل، وانقطعت به السبل فيطلق سراحه، ويفك أسره، ويعجل بفرجه، ويزيل كربه ﴿أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾.

ويصمد له سبحانه المجاهد في سبيله، والمقاتل لإعلاء دينه؛ إذا تطايرت الرؤوس وحشرجت في الصدور النفوس، وامتشقت الرماح، وارتفع الصياح، وتقاربت الصفوف، ولمعت السيوف، وضاق المعترك، والموت في ساحة الوغى برك، فينزل الله السكينة على القلوب، والنصر على المقاتلين، فينصر عبده ويعز جنده ويهزم الأحزاب وحده: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾.

ويصمد له سبحانه الأعرابي في الصحراء يوم يصيبه القحط، ويحاصره الجدب؛ فيموت العشب، ويجف الغدير، وييبس الروض، ويذرى النبت، وتشرف البهائم على الهلاك؛ فينزل الكريمُ المنانُ الغيثَ، ويفتح أبواب رحمته، ويرحم عباده، ويلطف ببهائمه؛ فإذا الماء، والخضرة، والنماء، وإذا السيل يملؤ النواحي، ويجتاح البؤس، والمحل، ويقدم بالخير والبشرى:﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾.

ويصمد له سبحانه المذنب وهو يريد أن يتوب عليه بعد أن توبقه خطيئته، وكاد أن تحيط به زلته، وتقصم ظهره معصيته، فينطرح على أبواب الملك الحق، ويتمرغ على عتبات التواب الرحيم، ويشكو ذنبه على اللطيف الخبير، فيقبل الله توبته ويغفر زلته، ويقيل عثرته، ويمحو سيئته، ويبدل سيئاته حسنات، ومعاصيه طاعات، ويتحفه بأنواع الكرامات، بل يفرح سبحانه بتوبة عبده أشد من فرح من ضاعت منه ناقته في الصحراء عليها طعامه وشرابه فوجدها بعد يأس(١) ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.

﴿ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

---

(١) جاء ذلك في حديث صحيح: متفق عليه، وتقدم ص٨٦ .

ويصمد له سبحانه المفتي والحاكم والقاضي إذا وردت المشكلات، وأقبلت المعضلات، وازدحمت المسائل العويصات؛ فيلجؤون إلى علام الغيوب، والمطلع على الخوافي، والمحيط بما في السرائر والضمائر؛ فيفتح سبحانه بالمعرفة ويتفضل بالفهم، ويجود بالتسديد ويمن بالإصابة؛ فيفتح بعونه المغلق، ويسهل الصعب، ويقرب البعيد، ويوضح المشكل، ويبين المجمل، وييسر العسير، وهو اللطيف الخبير ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾.

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾.

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾.

والله سبحانه وتعالى يصمد له الطبيب في عيادته إذا بارت عقاقيره، وضلت حكمته، وأعوزته بصيرته، وتاهت معرفته، وتضاعف مرض المريض، وسقم السقيم، وزادت علة العليل، عندها يأتي لطفه سبحانه فيكتب الشفاء على يد الطبيب، فضلاً منه ورحمة، ويجري العافية بسبب الدواء منَّة ولطفاً ويزيل السقم ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ ﴾.

فصل

والله سبحانه له الحجة البالغة على عباده، فلم يأخذ حتى أنذر، ولم ينتقم حتى أعذر، وأرسل الرسل لئلا يعتذر معتذر بعدم البلاغ[1] وأنزل الكتب لئلا يدعي مدع عدم البيان، فحجة الله على الخليقة بالغة لأنها صادقة القدم، عادلة الحكم، يقينية الدلالة، قاطعة للشبهة، فالجة للخصم، قاضية في محل النزاع، نافذة إلى عمق الحقيقة ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ والله له الحجة البالغة؛ لأنه لم يكلف ما لا يستطاع، ولم يخاطب ما لا عقل له، ولم يأمر غير مميز، ولم يعذب إلا من جاءته من الله البينة ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾.

وحجة الله بالغة الأثر، بليغة الأسلوب، مؤثرة في السامع، بينة صادعة المعنى، ظاهرة المقصود ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ وحجة الله في كتابه، وعلى لسان رسوله لها على القلوب سلطان، ولها في النفوس هيبة؛ لأنها تقرر للعقل ثوابت الإيمان، وتبصر للعبد براهين الشريعة، وتعلم الناس أدلة اليقين ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾.

---

(١) فيه حديث صحيح ولفظه «لا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين». وهو جزء من حديث «ولا أحد أحب إليه المدحة من الله». وقد تقدم تخريجه فراجعه ص٦٩ .

تقوى الله أجل ما يعظم به الله وأحسن ما يقدس به الملك الحق تقدست أسماؤه

الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة، فهو أحق من اتقي، وأولى من قدر، وأجل من عظم، وأكبر من يُسْتَحى منه، وأشرف من يراقب، وأكرم من يراعى أمره جل في علاه.

هو أهل التقوى؛ لأنه بالمرصاد، مطلع على العباد، يحاسبهم بأفعالهم يوم التناد، فتقواه مهابة واجبة، وتعظيم مفروض، وتوقير محتم، وتقدير لازم ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

هو أهل التقوى، حق على العباد تقواه سبحانه لأن مسدي الجميل، ومعطي الجزيل، وواهب النعم، والمتفضل بالعطايا ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾.

هو أهل أن يتقى؛ لأنه شديد العقاب، سريع الحساب عظيم النكال، قوي المحال، أخذه لا يطاق، وانتقامه لا يستطاع، وبطشه لا يقاوم، وجبروته لا يصادم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.

وأصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه

وسخطه وعقابه - وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته، واجتناب معاصيه، وخوف مقامه، والرهبة من أخذه، والحذر من مقته، وتذكر الوقوف بين يديه والوجل من اطلاعه، والحياء منه، والوفاء بعهده.

وتارة تضاف التقوى إلى اسم الله - عز وجل - كقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

وإذا أضيفت التقوى إليه سبحانه فالمعنى: اتقوا سخطه وغضبه، وهو أعظم ما يتقى، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي، قال تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾. فهو أهل أن يخشى ويهاب، ويجل ويعظم في صدور عباده، حتى يعبدوه ويطيعوه؛ لما يستحقه من الإجلال والإكرام، وصفات الكبرياء والعظمة، وقوة البطش وشدة البأس.

وتارة تضاف التقوى إلى عقاب الله وإلى مكانه كالنار، أو إلى زمانه كيوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾.

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾.

ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات، وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات، وترك المكروهات، وهي أعلى درجات

التقوى قال الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾.

قال معاذ بن جبل: ينادى يوم القيامة: أين المتقون؟ فيقومون في كنف من الرحمن، لا يحتجب منهم ولا يستتر. قالوا له: من المتقون؟ قال: قوم اتقوا الشرك، وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة، فجزاؤهم عند ربهم النزل الكريم وسكنى جنات النعيم، مع الفوز العظيم، والحظوة بالنظر إلى وجه الرحمن الرحيم.

وقال ابن عباس: المتقون: الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفونه من الهدى، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به.

وقال الحسن: المتقون: اتقوا ما حرم الله عليهم، وأدوا ما افترض الله عليهم.

وقال عمر بن عبدالعزيز: ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله: ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رزق بعد ذلك خيراً فهو خير إلى خير.

وقال طلق بن حبيب: التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله؛ ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله؛ تخاف عقاب الله.

وعن أبي الدرداء قال: تمام التقوى أن يتقى الله العبدُ، حتى يتقيه من مثقال ذرة، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً، يكون حجاباً بينه وبين الحرام؛ فإن الله قد بين للعباد الذي يصيرهم إليه فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

فلا تحقرن شيئاً من الخير أن تفعله، ولا شيئاً من الشر أن تتقيه.

وقال الحسن: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

وقال الثوري: إنما سموا متقين؛ لأنهم اتقوا ما لا يتقى.

وقال موسى بن أعين: المتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام؛ فسماهم الله المتقين.

وحديث: «**فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه**»(١).

وقال ميمون بن مهران: المتقي أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح لشريكه.

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (الفتح ١ / ١٢٦) (٥٢) كتاب: الإيمان. باب: فضل من استبرأ لدينه ومسلم (٣ / ١٢١٩) (١٠٧ / ١٥٩٩) في كتاب: المساقاة. أخذ الحلال وترك الشبهات. كلاهما عن النعمان بن بشير مرفوعاً. «**إن الحلال بين، وإن الحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس. فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام. كالراعي يرعى حول الحمى. يوشك أن يرتع فيه. ألا وإن لكل ملك حمى. ألا وإن حمى الله محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة. إذا صلحت صلح الجسد كله. وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**». واللفظ لمسلم.

قال: «**أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر**». وخرجه الحاكم مرفوعاً، والموقوف أصح [١].

وشكره يدخل في جميع فعل الطاعات.

ومعنى ذكره فلا ينسى: ذكر العبد بقلبه لأوامر الله في حركاته وسكناته، وكلماته فيمتثلها، ولنواهيه في ذلك كله فيجتنبها.

وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات؛ كما قال أبو هريرة، عندما سئل عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه، أو جاوزته، أو قصرت عنه. قال: ذاك التقوى.

وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

خل الذنوب صغيرها
وكبيرها فهو التقى
واصنع كماش فوق أر
ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة
إن الجبال من الحصى

وأصل التقوى: أن يعلم العبد ما يُتَّقى ثم يتقي.

(١) الحديث أخرجه الحاكم مرفوعاً والموقوف أصح: لم أقف عليه مرفوعاً عند الحاكم بل وجدته عنده موقوفاً (٢ / ٢٩٤) في المستدرك وعزاه كل من : ابن كثير في تفسير الآية (٢ / ٧٢)، والسيوطي في الدر المنثور (٢ / ٥٩) للحاكم مرفوعاً. فالله أعلم. ثم عزاه السيوطي في المصدر نفسه مرفوعاً وموقوفاً. وقال الحافظ ابن كثير: الأظهر: أنه موقوف وراجع التفصيل في العلل للدارقطني (٥ / ٢٧٤).

قال عون بن عبدالله: تمام التقوى أن تبتغي علم ما لم تعلم منها إلى ما علمت منها.

وفي الجملة: فالتقوى: هي وصية الله لجميع خلقه، ووصية رسول الله ﷺ لأمته.

وكان ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً [(١)].

ولما خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع يوم النحر وصى الناس بتقوى الله، وبالسمع والطاعة لأئمتهم [(٢)].

ولما وعظ الناس قالوا له: كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال: «**أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة**» [(٣)].

ولم يزل السلف الصالح يتواصون بها.

---

(١) صحَّ ذلك عند مسلم (٣ / ١٣٥٧) (٢ / ١٧٣١) في كتاب الجهاد والسير. باب: تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بآداب الغزو، وغيرها. عن بريدة قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً.... الحديث طويل».

(٢) جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم (٢ / ٩٤٤) (٣١١ / ١٢٩٨) في كتاب الحج. باب: استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً. عن يحيى بن حصين عن جدته أم الحصين مرفوعاً: ومحل الشاهد مرفوعاً: «**إن امرّ عليكم عبد مجدع (حسبتها قالت) أسود يقودكم بكتاب الله تعالى، فاسمعوا له وأطيعوا**».

(٣) حديث صحيح: أخرجه الترمذي (٤ / ٤٤) (٢٦٧٦) في كتاب العلم. باب: ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع وأبو داود (٥ / ١٣) (٤٦٠٧) في كتاب السنة. باب: في لزوم السنة. وابن ماجه (١ / ١٧ / ٤٣١) في المقدمة. باب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين. وأحمد في مسنده (٤ / ١٢٦ ، ١٢٧) والحاكم (١ / ١٩٦) كلهم عن العرباض بن سارية مرفوعاً بلفظ المصنف والحديث طويل.

وحكى ابن عبدالبر في جامع بيان العلم (٢ / ١٨٢) عن أبي بكر البزار أنه قال: حديث العرباض بن سارية في الخلفاء الراشدين حديث ثابت صحيح. ثم قال ابن عبدالبر: هو كما قال البزار: حديث عرباض حديث ثابت. أ هـ. راجع الإرواء (٢٤٥٥).

ولما حضرت الوفاة أبا بكر، وعهد إلى عمر دعاه، فوصاه بوصية، وأول ما قاله له: اتق الله يا عمر.

وكتب عمر إلى ابنه عبدالله: أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله ـ عز وجل ـ؛ فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده، واجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك.

واستعمل علي بن أبي طالب رجلاً على سرية، فقال له: أوصيك بتقوى الله ـ عز وجل ـ الذي لا بد لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه، وهو يملك الدنيا والآخرة.

وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى رجل: أوصيك بتقوى الله ـ عز وجل ـ التي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها؛ فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين.

ولما ولي خطب فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: أوصيكم بتقوى الله عز وجل؛ فإن تقوى الله ـ عز وجل ـ خلف من كل شيء، وليس من تقوى الله خلف.

وقال رجل ليونس بن عبيد: أوصني، فقال: أوصيك بتقوى الله والإحسان، فإن الله مع الذين اتقوا، والذين هم محسنون.

وقال له رجل يريد الحج: أوصني، فقال له: اتق الله؛ فمن اتقى الله فلا وحشة عليه.

وقيل لرجل من التابعين عندموته: أوصنا، فقال: أوصيكم بخاتمة سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

وكتب رجل من السلف إلى أخ له: أوصيك بتقوى الله؛ فإنها أكرم ما أسررت، وأزين ما أظهرت، وأفضل ما ادخرت، أعاننا الله وإياك عليها، وأوجب لنا ولك ثوابها.

وكتب رجل منهم إلى أخ له: أوصيك وأنفسنا بالتقوى؛ فإنها خير زاد الآخرة والأولى، واجعلها إلى كل خير سبيلك، ومن كل شر مهربك؛ فقد تكفل الله ـ عز وجل ـ لأهلها بالنجاة مما يحذرون، والرزق من حيث لا يحتسبون.

وقد ثبت عن النبيﷺ أنه كان يقول في دعائه: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**»(١).

وكان النبيﷺ يقول في دعائه: «**أسألك خشيتك في الغيب والشهادة**» (٢).

وخشية الله في الغيب والشهادة من المنجيات.

وهذا هو السبب الموجب لخشية الله في السر؛ فإن من علم أن الله يراه حيث كان، وأنه مطلع على باطنه وظاهره، وسره وعلانيته، واستحضر ذلك في خلواته، أوجب له ذلك ترك المعاصي في السر؛ وإلى هذا المعنى الإشارة في القرآن بقوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٤ / ٢٠٨٧) (٧٢ / ٢٧٢١) في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب: التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل. عن عبدالله مرفوعاً بلفظ المذكور.

(٢) الحديث إسناده صحيح: أخرجه النسائي في المجتبى (٣ / ٥٤، ٥٥) في كتاب السهو. باب: ٦٢، والحاكم (١ / ٥٢٤، ٥٢٥) وابن حبان (١٩٧١)، وابن أبي عاصم (١٢٩). عن عمار مرفوعاً وهو ضمن حديث. وصحح إسناده العلامة الألباني في ظلال الجنة (١٢٩).

كان بعض السلف يقول لأصحابه: زهدنا الله وإياكم في الحرام زهد من قدر عليه في الخلوة، فعلم أن الله يراه، فتركه من خشيته؛ أو كما قال.

وقال الشافعي: أعز الأشياء ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى أو يُخاف.

وكتب ابن السماك الواعظ إلى أخ له: أما بعد، أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيك في سريرتك، ورقيبك في علانيتك، فاجعله في بالك على كل حال في ليلك ونهارك، وخف الله بقدر قربه منك، وقدرته عليك، واعلم أنك بعينه، ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، ولا من ملكه إلى ملك غيره؛ فليعظم منه حذرك، وليكثر منه وجلك، والسلام.

وقال أبو الجلد: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: قل لقومك: ما بالكم تسترون الذنوب عن خلقي وتظهرونها لي؟ إن كنتم ترون أني لا أراكم فأنتم مشركون بي، وإن كنتم ترون أني أراكم فلم تجعلوني أهون الناظرين إليكم؟!

وكان وهيب بن الورد يقول: خَفِ الله على قدر قدرته عليك، واستح منه على قدر قربه منك.

وقال له رجل: عظني، فقال له: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك.

وكان بعض السلف يقول: أتراك ترحم من لم تقر عينه بمعصيتك، حتى علم أن لا عين تراه غيرك؟

وقال بعضهم: ابن آدم، إن كنت حيث ركبت المعصية لم تصف لك من عين ناظرَة إليك؛ فلما خلوت بالله وحده صفت لك معصيته، ولم تستح منه حياءك من

بعض خلقه ـ ما أنت إلا أحد رجلين: إن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت علمت أنه يراك فلم يمنعك منه ما منعك من أضعف خلقه، فقد اجترأت؟!

دخل بعضهم غيضة[1] ذات شجرة، فقال: لو خلوت ههنا بمعصية من كان يراني؟ فسمع هاتفاً بصوت ملأ الغيضة: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

راود بعضهم أعرابية وقال لها: ما يرانا إلا الكواكب، قالت: فأين مكوكبها؟!!.

رأى محمد بن المنكدر رجلاً واقفاً مع امرأة يكلمها، فقال: إن الله يراكما، سترنا الله وإياكما.

وقال الحارث المحاسبي: المراقبة: علم القلب بقرب الرب.

وسئل الجنيد: بما يستعان على غض البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق من نظرك إلى ما تنظره.

وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل

خلوت ولكن قل: علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة

ولا أن ما يخفى عليه يغيب

والمقصود أن النبي لما وصى معاذاً بتقوى الله سراً وعلانية أرشده إلى ما يعينه على ذلك، وهو أن يستحي من الله؛ كما يستحي من رجل ذي هيبة من قومه.

---

(١) الغيضة: هي الغابة ذات الشجر الملتف، وجمعها غياض.

ومعنى ذلك: أن يستشعر دائماً بقلبه قرب الله منه، واطلاعه عليه؛ فيستحي من نظره إليه.

وقد امتثل معاذ ما وصاه به النبي ﷺ.

وكان عمر قد بعثه على عمل، فقدم وليس معه شيء، فعاتبته امرأته فقال: كان معي ضاغط. يعني: من يضيق عليه، ويمنعني من أخذ شيء.

وإنما أراد معاذ ربه ـ عز وجل ـ فظنت امرأته أن عمر بعث معه رقيباً؛ فقامت تشكوه إلى الناس.

ومن صار له هذا المقام حالاً دائماً أو غالباً، فهو من المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، ومن المحسنين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم.

وفي الجملة: فتقوى الله في السر علامة كمال الإيمان، وتأثيرها عظيم في إلقاء الله لصاحبها الثناء في قلوب المؤمنين.

روي هذا مرفوعاً، وروي عن ابن مسعود من قوله.

وقال أبو الدرداء: ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر؛ يخلو بمعاصي الله؛ فيلقي الله له البغض في قلوب المؤمنين.

وقال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر؛ فيصبح وعليه مذلته.

وقال غيره: إن العبد ليذنب الذنب فيما بينه وبين الله، ثم يجيء إلى إخوانه؛ فيرون أثر ذلك عليه.

وهذا من أعظم الأدلة على وجود الإله الحق المجازي بذرات الأعمال في الدنيا قبل الآخرة، ولا يضيع عنده عمل عامل، ولا ينفع من قدرته حجاب ولا استتار.

فالسعيد من أصلح بينه وبين الله؛ فإن من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الخلق، ومن التمس محامد الناس بسخط الله ـ عاد حامده من الناس ذاماً له.

قال أبو سليمان: الخاسر من أبدى للناس صالح عمله، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد.

ومن أعجب ما روي في هذا ما روي عن أبي جعفر السائح قال: كان حبيب أبو محمد تاجراً يكري الدراهم، فمر ذات يوم، فإذا هو بصبيان يلعبون، فقال بعضهم لبعض: قد جاء آكل الربا، فنكس رأسه، وقال: يا رب أفشيت سري إلى الصبيان، فرجع فجمع ماله كله، وقال: يا رب إني أسير، وإني قد اشتريت نفسي منك بهذا المال، فأعتقني، فلما أصبح تصدق بالمال كله، وأخذ في العبادة ثم مر ذات يوم بأولئك الصبيان، فلما رأوه قال بعضهم لبعض: اسكتوا؛ فقد جاء حبيب العابد، فبكى، وقال: يا رب ، أنت تذم مرة، وتحمد مرة، وكله من عندك(*).

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

(*) يقول باحث الخزرجي: هذا جهدي في خدمة الكتاب، سائلاً ربي جزيل الثواب، وحُسن المآب، دون سبقة عذاب، ولا همسة عتاب، ولا جزعة عقاب، إنه هو الرحيم التواب الغفور الوهاب.

ثم أشكر شيخي المؤدب وأخي المهذب فضيلة الشيخ/ عائض القرني. الذي منحني العمل في العظمة ـ لضيق وقته ـ فجزاه الله خير الجزاء، وفضل النعماء، وعيشة الهناء، وحسن المستقر والثناء، وكشف الضراء، ورفع البلاء. اللهم آمين.

العبيكان
Obeikan
Printing & Packaging
Tel: (01) 265 1144